

الدكتور أحمد قري

مذكراتي
عن الثورة العربية الكبرى

١٣٧٥ هـ

١٩٥٦ م

BOBST LIBRARY



3 1142 02821 7142



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

New York University
Bobst Library Circulation Department
70 Washington Square South
York, NY 10012-1091

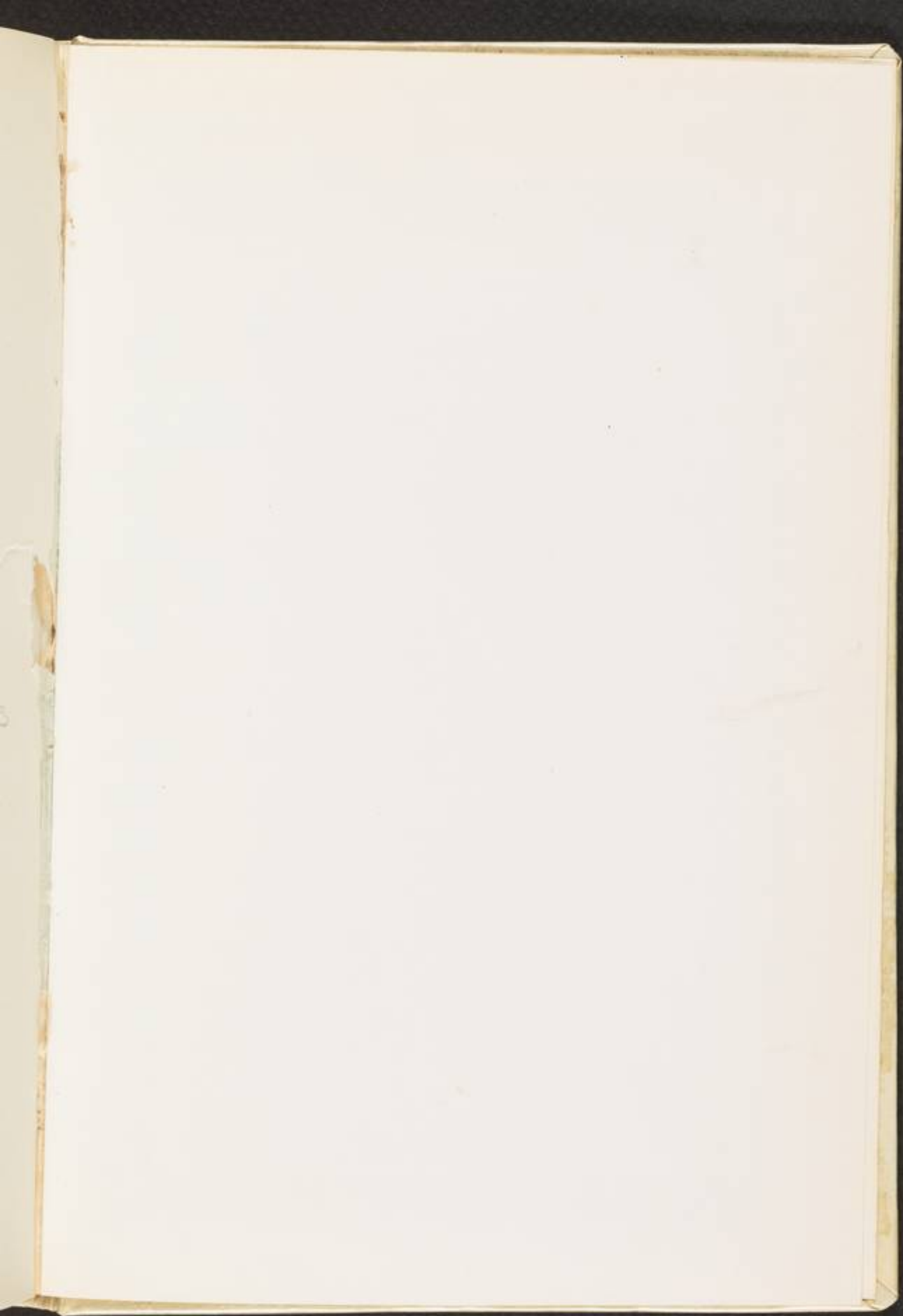
Web Renewal/Info:
<http://library.nyu.edu>

New Phone Renewal:
212-998-2482

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME!

RETURNED NOV 15 2006 NOV 29 2005		

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING VIA WEB/PHONE!



Qadrī, Ahmad
/Mudhakkaratī 'an al-
thawrah al-'arabiyah al-Kubrā/

مذكراتي
عن الثورة العربية الكبرى

٥١٣٧٥

١٩٥٦ م

مطابع ابن زيدون بدمشق

N. Y. U. LIBRARIES

Near East

DS

63

.Q3

C.1



إيماني بالوحدة العربية قوي كإيماني بالله ، لا أتخلل عنه ولا أميل ،
ولا يسعني إلا أن أفكر به كلما فكرت بالعروبة ونجاحها . ذاك ديدني
بل مبدئي في حياتي منذ عرفت الحياة وعرفت الجهاد .

ولهذا الإيمان أسبابه في حياتي الخاصة ، فقد ولدت ولا أعرف لي
وطناً اقليمياً ، ولا معنى لكلمة العروبة عندي إلا أنها تنظم كافة بلدان
العرب بأقطارها الناطقة بالضاد ، لا فرق لدي بين أحدها والآخر .
كلها أوطاني وبلادني ، وكلها ينبغي أن أسهده في جهادي .

كان والدي أحد امراء الجيش العثماني ، وكانت الثورات والحروب
قائمة على قدم وساق في ولايات الدولة الاوربية ، في أوائل سني خدمته ،
فقضى زهرة عمره فيها . ثم نقل الى دمشق ، ومنها الى بعلبك حاكماً ،
ثم مفتشاً للجيش في فلسطين ، وكانت بيروت تابعة عسكرياً الى عكا ،
ثم عين قائداً للبصرة ووكيلاً لوالها .

فكان لي من ذلك أن نشأت وأتممت دراستي الثانوية في ربوع
فلسطين وبيروت مع زملاء ربطتني بهم الرابطة المدرسية كمحمد رستم حيدر
ورشيد الحسامي وعوني عبد الهادي ورفيق التميمي وعبد النبي العربي .

وكانت رابطتي بدمشق ضعيفة لأن أخوة والدي لم يكن لهم أبناء
ذكور كما أنهم لم يعمروا طويلاً ، فلم يكن لنا أقارب في دمشق اللهم
إلا الذين عرفتهم في الفترات القليلة التي كنت اختلف فيها الى دمشق ،
وهم من ناحية بنات عمومتنا فقط .

ومن هذا يستبين أنني منذ نشأت لم أعرف لي وطناً خاصاً غير
الوطن العربي الشامل الذي عشت تحت أجوائه المختلفة متنقلاً كالطير من
قطر الى قطر .

وتحت تأثير هذه النشأة التي أحمد الله عليها نهضت بأعمالي الوطنية
سواء في استانبول او باريس خلال دراستي الجامعية .

هذا مع العلم بأن الفكرة الاقليمية الضيقة لم تكن يومئذ معروفة
بين مثقفي العرب اطلاقاً ، وان كان هذا لم يكن يمنع من أن يزعم
زاعم انه بيروتي أو شامي أو عراقي ، على نحو ما نقول اليوم في وطننا
السوري : شامي وحمصي وحلي . أما أنا فلم يكن حنيني الى دمشق
أكثر من حنيني الى نابلس مثلاً أو بعلبك أو خليل الرحمن .

ومن الغريب أن المرحوم والدي عبد القادر قد اختزل اسمه فدعي
في المدرسة الحربية في استانبول باسم قدرلي ، ثم غدا هذا الاسم كنية
لنا من بعده ، لا نعرف إلا بها . ومن الغريب أيضاً أنني بعد أن
عدت الى دمشق عام ١٩١٣ كان عليّ أن أثبت في السجلات أنني مواطن
دمشقي ، وكذلك بعد أن أصبحت بلادنا اثر انتهاء الحرب مقسمة بمؤامرات
المستعمرين ، ولكنني لم أفعل . وهكذا فبعد أن أخرجت من العراق
إرضاءً للانكليز عام ١٩٤١ عقب ثورة رشيد عالي ، لم أثير على أي قيد
لي في سجلات النفوس ، وأنكس من هذا كله أن زواجي نفسه الذي

تم في سنة ١٩١٩ قد أعيد عقده ثانية لأُسجل في «خانة» قريتي باسم
أحمد قدري بن عبد القادر قدري الترجمان . وكذا أولادي في مدارسهم
وشهاداتهم فكلها كان يردف بكنية قدري لانهم عاشوا مثلي بعيدين عن
سورية بعدما أصدر الفرنسيون عليّ حكمهم باعدامي عام ١٩٢٠ ، وایس
لهم أي قيد في السجلات السورية .

وكلمة الترجمان ترجع الى اني لما رجعت الى حجج أوقفنا لاثبت دمشقيتي
تبين لي أن جدي لدى فتح الترك لدمشق كان يحمل اسم يحيى ، وكان يحيد
التركية والفارسية على ما كان متعارفاً لدى أدباء ذلك العصر ، فاصطفاه
الفائحون ، ثم لقب بيحيى الترجمان . وله أوقف خيرية وذرية كثيرة .

* * *

ولقد رأيت من واجبي ، والعمر قد تقدم ، والصدر مغمم ، والتاريخ
العربي يتطور مع الايام ، وقد يخشى منه الانحراف والتخيف . . .
والافطار العربية تنحو نحو الوحدة العربية ، وقد اصبح على رأسها مصر العزيزة
التي كان لها سبق التحرر من النير العثماني ، ولكنها لبثت بعيدة عن
فكرة الوحدة ، الى أن قيّض الله لها من الوعي بفضل أفذاذها الخُلص
المؤمنين بالعروبة ، ان تدرك خيرها وخير كل بلد ينطق بالضاد ، في
جمع الشمل ، وتوحيد الكلمة ، وتحقيق الغاية المثلى التي ما أطلقت أول
رصاصه من الثورة العربية الكبرى إلا وهي تهدف الى انشاء امبراطورية
عربية ، ذات راية واحدة ، ورسالة واحدة .

أجل رأيت من واجبي الختم بعد أن سلخت زهرة العمر في الجهاد
الوطني تحت لواء فيصل ، رجل العرب الاكبر ، سواء في سني الحرب

العامة الاولى ، أو ما قبلها وبعدها ، الى أن أخرجت من دمشق عام ١٩٢٠ ، أن أدون مذاكراتي عن هاتيك البرهة الحافلة بأجل الاحداث من تاريخنا الحديث المجيد ، لاسيما واني واكتبها عن كتب ، ووقفت على دقائقها وأسرارها وشتى تطوراتها ، فحق عليّ إثباتها وتدوينها علّها تكون كالنبيع يرجع اليه الاحفاد يغترفون من معينه الصافي حقائق الاحداث .

ويشهد الله أن لا غاية لي إلا النهوض بالواجب ، وإلا أن أترك للخلف سجلاً من أعمال السلف ، في أيقظ أوقات الوعي القومي والجهاد الوطني .

وأملّي الأكبر أن أكون أوفيت على غايتي ، وقدّمت بعض الواجب الوطني ، وتركت للأجيال الصاعدة ما ينفع الباحثين الذين يستقصون الحقائق في مظانها ومراجعها .

والله حسبي ونعم الوكيل .

الدكتور أحمد قنبري

نوطنة

منذ اليوم الذي بسط فيه العثمانيون سلطانهم على البلاد العربية ،
والعلاقات القائمة بين العرب والترك موطدة الاركان ثابتة البنيان ، إذ
كان نجم عز العرب قد أفل ، وكان الاتراك ينظرون الى العرب نظرتهم
الى عنصر تجمعهم به رابطة العقيدة الدينية ، فلم يثقل حكمهم على العرب .
ودار الزمن دوراته ، وتعاقت الاعوام تبعاً ، والعلاقات بين العرب
والآراك ، تسير في جو هادئ لا تمكرها نغمة جنسية أو نزعة عنصرية ،
حتى اذا ما تولى السلطنة الخليفة عبد الحميد ، تجلت هذه العلاقات واضحة
وعلى صورة أقوى وأوثق من ذي قبل ، إذ حرص هذا الخليفة في سياسته
على خطب ود العرب واستدنائهم منه ، وتعزيز صلاته بهم ، فكان منهم
السيد المطاع ، والرئيس المرموق .

بيد أن الشعور القومي العربي كان ينبثق مومضاً بين الفينة والفينة
تحدوه الاجاد العربية التاريخية . ولكنه كان مقتصرأ على طائفة بعينها
هي طائفة المثقفين . لذلك لم يتعد هذا الشعور حدودهم ولم يتجاوز آفاقهم ،
بسبب الجهل الذي كان مسيطرأ يومذاك على العالم العربي .

غير أن الثقافة القومية الاوروبية ما لبثت أن تغلغلت في الاقطار
العثمانية جميعها ، وبخاصة ما نجم منها عن الثورة الفرنسية الكبرى ، فما
كان من الاتراك إلا أن راحوا يتغنون بهذه الثقافة مبشرين بعبادتها ،

متطلعين الى الاخذ عنها ، ولا سيما بعد اعلان الدستور عام ١٩٠٨ ،
حتى اذا سيطرت النعرة الطورانية على الشبيبة التركية الاتحادية ، لم
يمودوا ينظرون الى العرب كاخوان في الدين ، بل كمتعبدين مستعمرين .
وكان لابد لهذه الروح العنصرية العنيفة من أثر تجلى فيه . واذا هو
السمي نخلع الخليفة . وقد تمكن الاتحاديون من تحقيق حلمهم ، فخلعوا
السلطان عبد الحميد وأعلنوا الدستور عام ١٩٠٨ ، وبذلك قضوا على
آخر خليفة كان ينظر الى العرب نظرتهم الى اخوان في العقيدة الاسلامية
- وكان ذلك من دواعي سياسته كخليفة المسلمين - فيذر الرماذ على الروح
الوطنية الجياشة في صدور مثقفي العرب .

ثم شرع الاتحاديون يناهضون العرب مستغلين حفاوة الشعب باعلان
الدستور ؛ وان أنس لا أنس حادثاً مرّ في الاستانة ، وهو من أوثق
الادلة على الشعور العدائي الموجه ضد العرب . فبينما كنت أسير مع زميل
الدراسة عوني عبد الهادي عقب اعلان الدستور ، شاهدت جمهوراً غفيراً
من الاهلين أمام ضابط يدعى سري بك وقد قام يخطب فوق عجلة متغنياً
بحسنات الدستور وامجاده ، ثم مالبت أن انتقل الى التحامل على كبار
الموظفين العرب السابقين ، كأن يقول : « الخائن عرب عزة والخائن
عرب أبو الهدى^(١) » الخ . . . وقد عجبت أيماً عجب لهذا التحامل
المفرض ؛ أفلم يكن بين رجال الحكم البائد طائفة كبيرة من الاتراك
فلم لم يندد الخطيب بواحد منهم بمثل ما ندّد بالشخصيتين العربيتين ؟
واذا كان يندد بهما لشخصهما فلم يعمد الى ذكر قوميتهما ؟ .

(١) يقصد عزة باشا العابد وأبو الهدى الصيادي وكان الاول سكرتير عبد الحميد الثاني
والثاني شيخه المقرب اليه .

حقاً لقد هزني شعوري القومي وتعاطفتي العزة العربية ، فانطلقت اليه وصديقي عوني عبد الهادي ، ندفع صفوف الجماهير المزدحمة حتى اذا ما وصلنا اليه ، جابهناه باستنكار مزاعمه ، وفي ملاحنا الغضب الشديد ، وفي صوتنا نبرات في مثل النار .

ولدى معادي وزميلي الى مسكننا أخذنا نقلب الرأي فيما سوف تتخض عنه الاحداث بعد إذ أعلن لنا بوضوح أن رجال « جمعية تركيا الفتاة » الذين تساموا مقاليد الحكم في العهد الجديد متعصبون أيما تعصب لقوميتهم التركية ، حاصرون سياستهم في تقوية هذه القومية والنهوض بها على حساب القوميات الاخرى التي كانت تنتظمها الدولة العثمانية . وقد خرجنا من هذه الحقيقة على أن شكل جمعية عربية سرية على نحو جمعية تركيا الفتاة تنهض بواجب الدفاع عن حقوق العرب ورفع مستواهم ، ولم أكد أفصح الزميل محمد رستم حيدر الذي أعتمد عليه حتى جذب الرأي . وكان هذا مبدأ تشكيل الجمعية العربية الفتاة ، أي على أثر اعلان الدستور العثماني بأربعة أيام لا أكثر .

جمعية الاخاء العربي :

واحتفلت بالدستور جميع العناصر المنضوية تحت راية الامبراطورية العثمانية ، لأنها كانت تتوقع أن يعود عليها هذا الدستور بالخير العميم . ونحن العرب لم نكن نتوقع في حال أن يستغل الدستور للتحامل على وطنيتنا وقوميتنا ، لذلك اندفع المثقفون الواعون يفكرون في الطريقة التي تساعدنا على الاحتفاظ بكرامتنا ؛ ولما أن رأوا الى العنصر الارمني يشرع بتأسيس النوادي والجمعيات الخاصة به وبجاريه في ذاك الاروام والارناؤوط وغيرهم ، شعروا بالنبعة التي تحفزهم الى التطيرز على منوال

غيرهم ، وترسم آثارهم ، حفاظاً على عروبته من جهة ، ثم برهنة على أنهم ليسوا دون غيرهم استعداداً وطموحاً ؛ وقد لاقى هذا الشعور صداه القوي في الاوساط العربية ، فاغتتمه فريق من ذوي المقامات الرفيعة وأهل الرأي من رجالات العرب في عهد عبد الحميد ، وأسسوا جمعية أطلقوا عليها عنوان « الاخاء العربي » ، على أن تكون غايتها عون « جمعية الاتحاد والترقي » في الحفاظ على أحكام الدستور ، وجمع كلمة جميع الملل التي تظللها الراية العثمانية ، دون ما نظر الى الفروق الدينية والجنسية ، والسعي الى تأييد العدل والحرية والمساواة بين جميع هذه العناصر ، وإزالة الضغائن والاحقاد بينها . ومن هذا يتبين أن القائمين على « جمعية الاخاء العربي » قد حرصوا على ألا يظهروا بالمظهر الذي يستثم منه أي عدااء للحكم القائم . على أنهم لم ينفلوا في برنامجهم أن الجمعية سوف تعمل على اعلاء شأن الامة العربية في كافة مرافقها الحيوية فمن الناحية الفكرية تهتم بنشر العلوم والمعارف بين أبنائها وتأسيس المدارس واصدار الجرائد . ومن الناحية الاقتصادية ستعتمد الى رفع المستوى الاقتصادي بين السكان وذلك بالقيام بالمشاريع الاقتصادية وتنمية الثروة القومية .

وكان الطلاب العرب في هذا الدور لا يفكرون إلا بتعزيز قوميتهم على غرار زملائهم الاتراك الاتحاديين ، فيؤيدوا كل من يتقدم لتعزيز هذه القومية ؛ ولذا سارعوا الى تأييد « جمعية الاخاء العربي » كل التأييد ، من غير أن يكلفوا أنفسهم مؤونة استكناه حقيقة شخصيات أعضائها ، والبحث فيما اذا كانوا جديرين حقاً بالاضطلاع بمهمة خدمة العرب . وغاية ما كانوا يشعرون هو أنهم في حاجة قصوى الى تأييد كل

فرد عربي ، مهما تكن صفته ، ومهما تكن نزعته . أما هو عربي ؟ ؟
ان في ذلك لكفاية وغنى .

إلا أن جمعية الاخاء العربي ما لبثت أن انحلت بعد وقوع حادثة
٣١ آذار ١٩٠٩ الشهيرة وملخصها أن أفراد الجيش التركي المرباط في
الاستانة لم يكونوا متشبعين بالافكار الحرة التقدمية كزملائهم أفراد
الجيش المرباط في « الرومي »^(١) الذين كانوا على اتصال دائم مع الغرب وجيوش
الدول البلقانية المتشعبة بالروح القومية وبالافكار الحرة . لذلك فانهم
قد قاموا بعصيان مسلح بعد أن نحوا ضباطهم وطالبوا باعادة سلطة الخليفة
وعدم الاعتراف بالوضع الذي تم بعد اعلان الدستور ، الامر الذي
اضطر الجيش المرباط في « الرومي » بقيادة محمود شوكت باشا العراقي
الاصل الى الزحف على استانبول ومحاصرة العصاة والتغلب عليهم ثم خلع
عبد الحميد واعادة الوضع الى ما كان عليه قبل هذا العصيان .

واتهم عبد الحميد بالمؤامرة وتهيئة هذا العصيان لصالحه الخاص كي
يعيد سلطته الفردية التي أضعها باعلان الدستور سنة ١٩٠٨ . إلا أن
الواقع يدل على أن عبد الحميد لم يكن يفكر بما نسب اليه ، وهو الذي
يعرف بأن الدستور اعلن بناء على حركة قام بها الجيش المرباط في
الرومللي وان هذا الجيش هو النخبة الممتازة من الجيش العثماني . فمن
الطبيعي أن لا يخاطر عبد الحميد ويحرك القوة العسكرية المرباطة في
استنبول لتقدم على ما أقدمت عليه مع وجود الفارق الكبير بينها وبين
قوى الرومي . إلا أنه قد يكون داخله الفرح لما وقع ، مع الملاحظة
بأن ذلك ربما أودى بحياته . وقد سبب بالفعل خلعها عن العرش .
فالدافع الحقيقي للحادثة اذن هو أن أفراد جيش الاستانة كانوا متشبعين

(١) الرومي هي الولايات العثمانية التي كانت في أوروبا .

بالافكار الرجعية وبروح التعصب ، والنظر لوضع الاستانة الديني ،
وكونها عاصمة الخلافة ، وبتمسك الجميع فيها بالدعايات التي توجب التمسك
بأهداب الدين ومكارم الخلافة ، الامر الذي لا يخلو أبداً من التأثير
بأفكار واتجاهات الجمهور ولا سيما الجهلاء منه .

ولما كان معظم المنتسبين الى فروع جمعية الاخاء العربي في الولايات
العربية من الرجعيين الذين آزرُوا حركة عصيان ٣١ آذار المشهورة
لذلك فان الاتحاديين بعد أن قموا هذا العصيان المسلح ، أغلقوا فروع
جمعية الاخاء فلم يعد لرجالها منفعة من استمرارها في العمل بعد أن
أصبحت الحكومة ضدها فاحتلت الجمعية .

المنتدري الادبي :

وبعد اعلان الدستور ودعوة البلاد العثمانية الى الانتخابات النيابية ،
أخذ النواب يتوافدون الى الاستانة . وقد أراد الاتحاديون اخراج أحد
نواب العرب ممن اتصل بعد الحميد من مجلس النواب لانهم لم يطمثوا
اليه وكان نائباً عن بنغازي واسمه يوسف شتوان وقد تمايلوا على ذلك
بإدعائهم أن انتخابه غير صحيح وغير قانوني ؛ فثارت ثائرتي وصديقي
محمد يوسف نخبير ، واتفقنا مع كثير من اخواننا الطلاب العرب على
تأييده ، فانطلقنا الى المجلس ، واستطعنا بفضل تضامننا ، بعد أن مهدنا
السبيل الى ذلك بتوزيع المنشورات والقاء الخطب ، ان نثبت في المجلس .
وظفنا لا يتناهى الى مسامعنا نبأ وصول نائب عربي الى الاستانة
إلا ازدلفنا الى المرفأ نستقبله استقبالا حاراً رائثاً .

ومن هذا كله يتبين أن الشعور القومي العربي عمّ جميع الطلاب .
والشبيبة هم دعامة المستقبل .

ولكن الاحداث كانت تعاملنا وتثقفنا ؛ فأدركنا أن العمل غير المنظم لن يعود بفائدة ملموسة ، وخاصة بعد أن طالعنا نظم الاتحاديين وتشكيلاتهم ، فأسسنا المنتدى الأدبي عام ١٩٠٩ ، الا انني لم أكن انوي الاقامة في الاستانة طويلاً بعد تأسيسه ففادرتها الى باريس . وكان دعامة هذا المنتدى يوسف خيبر وسيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم ، وهم من أصدقائي الذين أعتد عليهم وعبد الكريم قاسم الخليل وجميل الحسيني وأحمد عزت الأعظمي مصدر مجلة المنتدى الأدبي . وبقي المنتدى قائماً حتى أوائل عام ١٩١٥ اذ أغلقتة الحكومة بعد ذلك . وقد أدى هذا المنتدى للعرب خدمات جليلة فنشر الفكرة العربية ، وكان بمثابة موئل للطلاب العرب الذين يؤمنون بالاستانة . وبالنظر لكونه المؤسسة العربية ذات المسكاة الوحيدة في الدولة العثمانية . ولما كان رئيسه عبد الكريم قاسم الخليل طموحاً سهل الانقياد ، فقد بلغ هذا المنتدى مكانة رفيعة وخاصة ابلان عقد الاتفاق بين زعماء العرب والاتحاديين عقب مؤتمر باريس .

جمعية الفتاة :

وقد سافر عوني عبد الهادي ومحمد رسم الباريس لأكال دراستهما فخابراني بخصوص مواصلة السير بجمعيتنا العربية التي كنا شرعنا بتأسيسها في الاستانة فأجبتهم بضرورة ذلك وبأنني على وشك اللحاق بهما . وهكذا تشكلت أول هيئة ادارية للفتاة سنة ١٩١١ وغايتها النهضة بالعرب وايقاظهم الى مصاف الامم الحية .

وكنا نهدف من اطلاق اسم « الفتاة » على جمعيتنا ، اسم « الجمعية العربية الفتاة » ولكننا خشينا أن يلفت هذا الاسم أنظار الاتحاديين فنقع تحت طائلة طغيانهم فيما اذا عثروا على شيء من مراسلاتنا أو أخبارنا لذلك آثرنا اللباز بالتستر الشديد . أما مركز الجمعية فقد كان في باريس بسبب وجودنا طلاباً فيها ، وقد ضمت كلاً من السادة :

عوني عبد الهادي ، رفيق التيمي ، محدرستم حيدر ، محمد محصاني ، عبد الغني العريسي ، صبري الخوجة ، توفيق الناطور ، وكاتب هذه السطور . وكنا أول هيئة ادارية للفتاة .

ثم انضم إليها : جميل مردم بك ، صبحي الحسيبي ، الامير مصطفى الشهابي ، توفيق فايد ، ابراهيم حيدر . وقد تحاشينا ذكر اسم الاستقلال في مضامين برنامج جمعيتنا ، وان كنا في السر نعمل ونسعى وراءه . أما سير أعمالنا فقد كان وفق خطة مرسومة منظمة . فكنا نعقد اجتماعاتنا في باريس بصورة سرية ، ونختاط لمساعدتنا بالكتمان الشديد ، ونحرص أيما حرص على محاضر الجلسات أن يتسرب منها ما ينم على حقيقتنا . وكان من شروط العضو المنتمي الى جمعيتنا أن يكون كتماً مخلصاً ، مؤمناً بالعقيدة القومية العربية ؛ مطيعاً لقرارات الاكثية بدون قيد ولا شرط .

واذا ما آنس أحد الاعضاء في شخص عربي نزعة وطنية عربية نظير نزعتنا ، وجب عليه أن يقدم عنه تقريراً حتى اذا درس الدراسة الوافية ، واستوثقت الجمعية من أهليته ، أصدر القرار بقبول انتسابه مبدئياً ، ثم عهد الى شخصين هما مقدمه وأحد الاعضاء بدراسة كافة أحواله وملابساته ، ونزعاته في مبادئه الوطنية ثم صلابة أخلاقه . ومتى

تمّ هذا كله دعي الى تأدية القسم أمامهما فقط وهو لا يعرف من أعضاء الجمعية غيرها .

وكان القسم الذي أشرت اليه يتلخص في الطاعة لقرارات الجمعية ، والحرس على الكتمان الشديد ، وبذل النفس والنفيس في سبيل إعلاء شأن الامة العربية وايصالها الى مصاف الأمم الحية - كما قلنا من قبل - . لم تكن أعمال الجمعية في بادئ الامر لتتعدى نشر الدعاية الوطنية في الصحف وغيرها ، والتحري عن أعضاء جدد . ولما كنت وأنا في باريس على اتصال دائم بأصدقائي في المنتدى الادبي باستانبول ، وهم سيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم ، ويوسف مخير ، فقد قدمت أسماءهم الى هيئة جمعية الفتاة الادارية ، فاحرزوا التزكية ، وقبلوا في عداد أعضائها وقد أقسموا اليمين أمام السيد توفيق الناطور وهو في طريق عودته الى بيروت عن طريق استنبول وبذلك أصبحت أعمال المنتدى المذكور في استنبول مرتبطة بجمعية الفتاة بباريس .

وخبرت كذلك رشيد الحسامي الذي كان موظفاً عدلياً في الكرك لينضم إلينا . وبعد أن تمت مخبرته ومخابرة توفيق البساط والامير عارف الشهابي وعمر حمد ومحمد الشريفي ، وبعد دراسة مبادئهم ، ضموا الى حلقة أعضاء جمعيتنا . ولما كان صيف عام ١٩١٣ فاتحتُ توفيق السويدي في استنبول وأنا عائد الى دمشق بالانضمام إلينا وقدمت اسمه للمركز ، فقبل حسب الاصول المرعية . وعقب وصولي لدمشق أطلعت شكري القوتلي على قانوننا في دارنا بالقنوات ثم زكّيتي وقبل بعد أن حلف اليمين حسب المعتاد .

وانضم إلينا أيضاً كثير من الاعضاء الجدد في العطل الصيفية ،

أي في الاوقات التي نعود فيها الى بلادنا . وما مرّت بنا فرصة سانحة
من الدعاية لقضية وطننا وخدمته إلا اغتبنناها .

جمعية العهد :

لم يكن وضع البلدان العربية خافياً على مثقفي الضباط العرب أيضاً .
فأخذوا بدورهم يفكرون بواجبهم نحو وطنهم وانتهوا الى تأليف « جمعية
العهد » عام ١٩١٣ وهي جمعية سرية كان من خيرة رجالها عزيز علي
المصري ، ياسين الهاشمي ، ونوري السعيد ، ومولود مخلص ، ومحمد
اسماعيل الطباخ ، وسليم الجزائري ، وعلي النشاشيبي الخ . . . وسأذكر
بعد قليل كيف اتصلت جمعية الفتاة بهذه الجمعية . وكان عزيز علي
يرى ضرورة لقلب ادارة الدولة العثمانية لتدار كولايات متحدة لكل
منها برلمانها ولها برلمان اتحادي في الاستانة حتى يمكن انقاذها من الانقراض .

مؤتمر باريس :

ثم جاء مؤتمر باريس كأحسن وأفضل فرصة للدعاية الى الاهداف
التي تستشر فيها « جمعية الفتاة » . وقد كلفت الجمعية اخواننا السادة :
عوني عبد الهادي وجميل مردم بك ومحمد محمصاني وعبد الغني العريسي
بهمة السعي لمقعد مؤتمر في باريس غايته تحقيق أهدافها ، فضموا إليهم
السادة : ندره المطران ، شكري غانم ، شارل دبلس ، جميل معلوف ،
حتى يشمل المؤتمر المسامين والمسيحيين معاً ، وكلف دبلس والعريسي ومردم
بأمانة سر المؤتمر . وبذلك تأسست لجنة (مؤتمر باريس) في أوائل نيسان
١٩١٣ . فالتصل أعضاء هذه اللجنة فوراً بحزب اللامركزية في مصر

وبكل من آنسوا فيهم امكان التعاون معهم . وكان حزب اللامر كزية يضم السادة : رفيق العظم ، رشيد رضا ، شبلي الشميل ، اسكندر عمون ، حقي العظم ، محب الدين الخطيب الخ . . . وهدفه أن تحصل البلدان العربية وهي جزء من الدولة العثمانية ، على شكل النظام الاداري اللامر كزي ، كما تتمكن من استصلاح شؤونها ومواكبة سير المدنية . وكان للحزب مسكاته الكبرى بالنظر لمكانة أعضائه وصلتهم بالصحافة المصرية . وكانت الغاية من اتصالنا بهذا الحزب اللامر كزي تعميم الحركة العربية ونشر فكرتها ، كما أن لجنة مؤتمر باريس اتصلت بالجمعية الاصلاحية في بيروت وكانت جمعية الفتاة متصلة بها بواسطة أعضائها الموجودين في بيروت .

وقد تأسست الجمعية الاصلاحية في بيروت عقب هزيمة الدولة العثمانية في الحرب البلقانية في خريف سنة ١٩١٢ وترديد الاندية الاوربية تقسيمها لمناطق نفوذ . وخشي العرب مغبة ذلك فتنادى مفكرو بيروت في شهر كانون أول ١٩١٢ للعمل على درء الخطر عن بلادهم ، وكان والي الولاية أدهم بك سياسياً معتدلاً عينته حكومة الاستانة الائتلافية التي يرأسها كامل باشا ، فاستجاب لطلباتهم ، فاجتمع مندوبو بيروت في دار البلدية وقرروا طلب تطبيق اللامر كزية في ادارة البلاد ، وأن يكون للولاية مجلس عمومي يشرف على الادارة المحلية ، وله حق استيضاح الوالي وطلب عزله من حكومة الاستانة المركزية ، وأن تكون اللغة العربية رسمية كالتركية في البلاد العربية ، ويستعان في الامور الفنية بمستشارين اجانب تعينهم الحكومة المركزية ، فلم تمنع حكومة الاستانة في ذلك ، إلا أن اغتيال الاتحاديين لوزير الحربية ناظم باشا واقالة كامل باشا من

الحكم في ٢٣ كانون الثاني ، واستلام أنور باشا وزارة الحربية ،
وجمال باشا البحرية غير الوضع ، فعزل الوالي وعين مكانه حازم بك ،
فحل الجمعية الإصلاحية في شهر مارس . وقد احتجت بيروت وظهرت
صحفها بيضاء مجللة بالسواد ، ولم يتوقف نضال رجال الإصلاح إلا بعد
اتفاق الاتحاديين مع المؤتمرين في باريس .

وانعقد مؤتمر باريس في ١٨ حزيران ١٩١٣ مؤلفاً من السادة :
عبد الحميد الزهراوي رئيساً ومندوباً عن حزب اللامركزية في مصر
مع زميله اسكندر عموت ، وأحمد مختار بهم ، وسليم علي سلوم ،
والدكتور أيوب ثابت وأحمد حسن طيارة ، عن الجمعية الإصلاحية في
بيروت . وتوفيق السويدي وسليمان عنبر عن العراق ، ومحمد حيدر وإبراهيم
حيدر عن بعلبك ، وعبد الكريم الخليل عن جالية الاستانة ، وعباس
بحاتي عن المهاجرين السوريين في أميركا الجنوبية ، ونجيب دياب ونعوم
مكرزل والياس مقصود عن المهاجرين السوريين في الولايات المتحدة ،
ونذرة مطران وحميل مردم بك وشكري غانم وعوني عبد الهادي وعبد
الغني العريسي وشارل دباس وخير الله خير الله ومحمد محصاني عن الجالية
العربية في باريس .

وقد أقرّ هذا المؤتمر المقررات الآتية :

١ - ان الإصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية فيجب
أن تنفذ بوجه السرعة .

٢ - من المسلم به أن يكون تمتع العرب بحقوقهم السياسية مضموناً
وذلك بأن يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً .

٣ - يجب أن تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لامركزية تنظر في حاجاتها ومتطلباتها للرقى .

٤ - كانت ولاية بيروت قدمت مطالبتها بلائحة خاصة صودق عليها يوم ٣١ كانون الاول ١٩١٣ باجماع الآراء وهي قائمة على مبدئين أساسيين وهما توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين الدولة العثمانية لمستشارين أجانب كموظفين لدى الحكومة ، فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين المطلبين .

٥ - اللغة العربية يجب أن تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني ، ويجب أن يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية .

٦ - تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف والاحيان التي تدعو الى الاستثناء الاقصى .

٧ - يتنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية أن تكفل لمصرفية لبنان وسائل ماليتها .

٨ - يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الارمن العثمانيين القائمة على أساس اللامركزية ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم وبحمي العراق .

٩ - يجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية .

١٠ - وتبلغ هذه القرارات أيضاً للحكومات الاوربية ، ويشكر المؤتمر الحكومة الفرنسية شكراً جزيلاً لترحابها الكريم بضيوفها .

ملحق لهذه القرارات

١ - اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتخبون في لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان

في الحكومة العثمانية إلا بموافقة خاصة من الجمعيات التي ينتمون إليها .
٢ — تكون القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن
مساعدة أي مرشح في الانتخابات النيابية إلا اذا تعهد من قبل بتأييد
هذا البرنامج وتنفيذه .

٣ — المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له .
وفي يوم ٣٠ حزيران زار وفد مؤلف من السيد عبد الحميد
الزهرابي رئيس المؤتمر وشكري غانم نائب الرئيس واسكندر عمون
وسليم علي سلام والشيخ أحمد طيارة وأحمد مختار بيهم و خليل زينية ،
قصر السفارة العثمانية في باريس ، فقابل الوفد السفير وسلمه نسخة من
قرارات المؤتمر مع الكتاب الآتي :

« انفاذاً للقرار الصادر من المؤتمر العربي في ٢٣ حزيران ١٩١٣
نتشرف بأن نرسل لدولتكم مع كتابنا هذا نسخة من القرارات التي
صادق عليها المؤتمر راجين أن تفضلوا باطلاع الحكومة العثمانية عليها
واقبلوا فائق احترامنا » .

كما زار الوفد المسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسية لشكره على
ضيافة فرنسا التي انعقد المؤتمر في عاصمتها . وفي أثناء الحديث أقيم
المسيو بيشون ان الاصلاح المطلوب ليس عملاً عدائياً ضد الدولة العثمانية
بل هو لغاية نبيلة ترمي الى اصلاح شؤون البلاد العربية والدولة العثمانية
التي تشكل تلك البلاد جزءاً كبيراً منها .

وبذلك لم يعد مجال لمن لهم ميول لا تتفق ومبادئنا الوطنية من
الاستفادة من انعقاد هذا المؤتمر .

وبينما كان مؤتمر باريس منعقداً سعى محمد باشا العظم وعبد الرحمن باشا اليوسف بوصفهما من ذوات بلادهما ، مدعين بأنه يجب أن يكون لهما المقام الاول في شؤونها - لتأليف حزب في دمشق باسم حزب الاصلاح المناوأة مؤتمر باريس وليتقربا بتأسيسه من الدولة العثمانية تأميناً لمنافعهما على حساب الشعب وانضم إليهم الامير شكيب أرسلان والدكتور حسن الاسير والشيخ أسعد الشقيري وقصدوا الاستانة وزاد عددهم بأن انضم اليهم الشريف علي حيدر وأخوه جعفر والشيخ عبد العزيز الشاويش من أقطاب الحزب الوطني المصري الذي كان يعمل لمقاومة الانكليز ويسعى لتأمين مساعدة الدولة العثمانية لحزبه والسيد عبد العزيز الثعالبي من وطني تونس والشيخ سليمان الباروني من وجهاء الوطنيين المجاهدين في طرابلس الغرب وقد نزع عنها بعد الاحتلال الايطالي ويوسف شتوان نائب برقة السابق . وبذلك قويا دعاية القائلين من الاتراك بأن مؤتمر باريس يعمل بوحى الدول الاجنبية .

الحكومة العثمانية وموقفها من العرب بعد المؤتمر :

وعقب نشر قرارات مؤتمر باريس التي ترمي الى اصلاح اساسي في البلاد العربية ، أرسلت الحكومة التركية الى باريس مدحت شكوي بك لاتفاق مع أعضاء مؤتمر باريس وتحديد مطالبهم على أساس يتفق مع وجهات نظر الحكومة العثمانية . وبعد جهد جهيد تم الاتفاق بين الفريقين على الشروط الآتية :

- ١ - يكون التعليم العالي فقط باللغة التركية وما عداه فيكون باللغة العربية في جميع البلاد العربية .

٢ - يجب على جميع الموظفين في البلاد العربية باستثناء الولاة أن يعرفوا اللغة العربية ويجري تعيينهم من قبل السلطات المحلية ما عدا القضاة الشرعيين الذين تعيينهم العاصمة .

٣ - توسع سلطات الادارة المحلية فتشمل النافعة والتعليم والاقواف الخ...

٤ - يكون في الوزارة مبدئياً ثلاثة وزراء من أبناء البلاد العربية وتضم وظائف الدولة الكبرى عدداً كافياً منهم يتناسب مع عدد العرب في الدولة .

٥ - لما كان أعضاء مجلس الاعيان يعينون تعييناً من قبل السلطان وجب تعيين اثنين من العرب عن كل ولاية عربية .

وقد أعلنت الحكومة العثمانية عزمها على تحقيق تلك الاصلاحات ، إلا أنها لم تحقق ماتم الاتفاق عليه ، بل رأت أن تنفذ خطة التقارب التركي - العربي بالاكتفاء بتعيين كل من السادة : عبد الحميد الزهراوي ومحمد بهم ويوسف سرسق وعبد الرحمن اليوسف ومحي الدين النقيب وأحمد كيخيا في مجلس الاعيان . وعينت السادة شكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي وناجي السويدي وأمين التيمي في مناصب رفيعة . ثم أسست مدرستين ثانويتين عربيتين الواحدة في دمشق والثانية في بيروت وعهدت الى كل من السيدين رفيق التيمي ورستم حيدر بأن يدير كل واحد منهما مدرسة ، وصار في مقدور الحاكم في البلاد العربية سماع المرافعات باللغة العربية . وقد خيل للحكومة التركية أنها ترضي أبناء البلاد العربية بهذه الحلول المحدودة ، ولكن جمعيتنا رأت في هذه الحلول مسائل ثانوية بالنظر لمطالبنا الاولى ، اذ ان تعيين بعض ارباب النفوذ من العرب في مجلس الاعيان وتعيين بعض الموظفين في وظائف مرموقة

ليس هو ما ينشده العرب ، وانما ينشدون حياة حرة تكفل لبلادهم تقدمها وازدهارها ؛ لذلك اتخذت جمعيتنا قراراً بأن التدابير التي اتخذتها الحكومة التركية يجب أن لا تشغلنا عن مطالبنا الرئيسية ، وعلى العرب إظهار شعورهم الحقيقي بعدم قبولهم لكل حل لا يتفق مع مقررات مؤتمر باريس . فالزهاوي لم يكن على علم بوجود جمعية الفتاة وخطتها فلم يدخلها في حسابه وان خطته المعتدلة هذه واتجاهه لماشاة سياسة الحكومة الاتحادية لم تنجح من أن يحكم عليه بالاعدام في المجلس العرفي في عاليه . وعلى الاثر أبلغت الجمعية القرار الآنف الذكر لعضويتها في الاستانة سيف الدين الخطيب ورفيق رزق سلوم وهما قوام المنتدى الادبي في الاستانة ، ليعملا على تحقيق ماقرره المؤتمر .

ولما كان الشعور القومي العربي آخذاً بالانتشار والامتداد ، فقد لاقى قرارنا تأييداً وتشجيعاً من أحرار العرب . فاتصل شبان العرب في الاستانة بالسيد عبد الحميد الزهاوي باعتباره أبرز شخصية عربية في مجلس الاعيان وأبلغوه عدم قبول العرب لتلك الحلول ، وأبرقت له من دمشق باسم شبابها الوطني راجياً منه التمسك بمقررات مؤتمر باريس كما اتصلوا هم بعبد الكريم الخليل رئيس المنتدى الادبي الذي كان همزة الوصل بين الاتحاديين وأعضاء مؤتمر باريس للتقريب بين وجهتي نظر العرب والترك ، وأبلغوه عدم قبول العرب للحلول التركية ، فعمل عبد الكريم الخليل على تهدئة الخواطر كما ان السيد عبد الحميد الزهاوي قال انه على استعداد تام للاستقالة فيما اذا كان العرب يرون في ذلك فائدة ، ولما كان السيد عبد الحميد الزهاوي من أعضاء حزب الامر كزية فقد كان عليه أن يتصل بحزبه ليأخذ رأيه فيما يجب عليه أن يعمل . فأقره على خطته .

وهذه صورة ما كتبه الزهراوي الى صديقه الاستاذ السيد رشيد رضا صاحب مجلة المنار الاسلامية وأحد أركان حزب الامركزية في مصر وضمنه كل آرائه السياسية وأعرب فيه عن ثقته التامة بالاتحاديين ووجوب الاخلاص لهم :

« كنت قد فصلت لكم إذ جئت باريس كيف وجدت أمر مؤسسي فكرة المؤتمر فوضى وكيف تعبنا في ستر الامر وابتعاد المؤتمر ، وبعد انقضاء المؤتمر تفرق الجمع الذي لفق تلفيقاً ، ثم بعد قليل نقد صبر البيروتيين فذهبوا الى بلادهم عن طريق استانبول ، وبقيت يا عزيزي وحدي أمثل الفكرة ، وبقي خليل زينية وأيوب ثابت وهما لم يرشفا من مشرب الجامعة العربية ولا قطرة واحدة ، حتى ولا من الجامعة السورية ، وانما همهما بيروت وحدها لاشريك لها .

« لو عجلت تلك الايام ورجعت على الفور الى مصر لبقيت المسألة مقطوعة براء ، فيكثر استهزاء الافراد والجماعات والاقوام بأشخاصنا وبجماعتنا وقومنا ، لكن الله عز وجل سلمني من هذا ، وقدرني على الصبر هناك ممثلاً للفكرة مدة خمسة أشهر - وما هي بالقليلة ولا الكثيرة - ونعمت المدة كانت ، وفقت فيها كثيراً وعظم فيها اختباري لاوروبا ، وما أخرجنا الى مثل هذا الاختبار .

« جئت بعد ذلك الى استانبول لأرى جدّ فيها لأن المعرفة بالقديم لا تقني ، والمعرفة عن بعد كثير من مآخذها غير صحيح ، وما أضر العلم المبني على مأخذ غير صحيح .

« بعد وصولي بقليل عرفت كثيراً من الاحوال الحاضرة هنا ، وبعد مدة أخرى عرفت أكثر وكدت أظنني اكتفيت وأحطت كل الاحاطة ،

ولكن الآن تبين لي انه لولا الصبر والثبات اللذان مكنتني الفاطر سبحانه
منهما لرجعت بمعرفة غير كافية ، ولذلك أصبحت لا أجسر أن أقول
تمت احاطتي وانما أقول أصبح يجوز لي أن أفصل بشيء من الطمأنينة ،
وان تأخير هذا التفصيل والشرح كان أنفع وجاء اليوم في وقته .

والشرح ههنا يتعلق بثلاثة مواضيع « أو موضوعات » :

١ - أوروبا العثمانية .

٢ - الاتحاديون وغيرهم .

٣ - رجال الإصلاح الحقيقي وابناء العرب هنا وفي الجهات الاخرى .

واني أبدأ بالاول لقصر البحث فيه ، واشفع بالثاني ، وأخرت
الثالث لطوله وطوئته لتوقف التفاهم وكثير من أعمالنا على الاحاطة بهذه
الحقائق المشروحة فيه .

أوروبا العثمانية : لقد كشفت أوروبا آخر ستار من ستر السياسة
في المسألة العثمانية وقررت التدخل في سائر شؤونها وانما لا يزالون
مختلفين بعض الاختلاف في كيفية هذا التدخل وكميته وصورة توزيعه
فيما بينهم ، وليس في أوروبا اليوم موضوع مقرب على هذا الموضوع ،
ولا تمضي ثلاثة أشهر حتى تمخض الليالي فتلد ذلك الشكل الجديد الذي
يتفقون عليه ، والذي أظنه ان الدولة ستبقى معه وتعيش أحسن مما
كانت عائشة لأن بعض التدخل طب ، ولست مغالياً اذا ذهبت الى أن
الموت أقرب اليها مع عدم التدخل البتة منه مع شيء من ذلك ، فانا
اذا قلنا بعدم التدخل البتة فحينئذ تخلق كل واحدة سبباً لانشاب الحرب
عليها فتؤخذ بداء السكتة دفعة واحدة .

الاتحاديون وغيرهم :

الاتحاديون معروفون فمن غيرهم ؟

لا يوجد الآن حزب سياسي آخر الا أن يكون خفياً ولم اشم شيئاً من هذا ، وحينئذ لا تجد مقابل الاتحاديين إلا جماعات الاجناس كجماعات الروم وجماعات الارمن وجماعات العرب .

نعرف أن للروم جماعات والارمن جماعات فهل للعرب مثل هذا ؟
هلم ننظر :

الروم كلهم جماعة واحدة يرأسهم البطرك ولكيلا يستبد ربطوه بمجلسين روحاني وجسماني ، وهكذا الارمن ، أما العرب فليس لهم مثل ذلك ،
وثانياً : الروم والارمن لهم جمعيات سياسية منظملة مرتبة غنية وليس للعرب مثل ذلك ، اللهم إلا جماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت ،
اذن غير الاتحاديين هم الروم والارمن وجماعتنا في مصر وجماعتنا في بيروت .
فالاتحاديون هم أولياء الامر مباشرة ، وهم اليوم يتسلحون بمزائم شديدة ماضية وناوون نية قاطعة أن يحددوا شباب الدولة بقدر ما تسمح الظروف ، ويشتهون أن يخلص اليهم العرب ويساعدهم فضلاً عن في هذا السبيل ، ويمترفون بخطيئاتهم الماضية ويودون أن لا يمودوا الى مثلها بقدر الامكان ، أنا مؤمن بنياتهم وأقولهم هذه كل الايمان لادلة كثيرة ظهرت لي ، ولكنني مرتاب من جهة قابليتهم لتطبيق العمل على النية ، وعلى كل حال أرى أن عدم تركهم وحدهم خير من تركهم ، ويرجى به أن تقوى قابليتهم فان شئتم أن نخطئوني بتحسين الظن الى هذه الدرجة - كما أشرتم الى ذلك في كتاب ... - فاني لا اخطئكم بالتخطئة

لاني اجل رأيكم أكثر من رأيي ، وانما أرجو أن يكون في خطئي شيء من البركة ، أرجو ذلك من مصداق قوله سبحانه : « فعي أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » .

هذا وصف الاتحاديين بما هم عليه اليوم . أما الروم فقد قلوا في المملكة وقصارهم أن يحافظوا على ما يدهم من امتيازات البطركية وحق المبعوثية وسيقل الالتفات اليهم ، وأما الارمن فهم آلة بيد روسية وسيتم لهم في المبعوثية حظ قريب مما يأملون . وأما نحن معشر العرب فإن احكام الآن يعتبر بمثل جماعتنا ، وقد فصلت ماتم على يدي في الكتاب الذي ارسلته الى الاخ الرفيق في البريد الماضي وههنا سأزيد .

رجال الاصلاح الحقيقي وابناء العرب هنا وفي الجهات الاخرى :

ما أظنكم - أستغفر الله - ما أعتقد انكم في حاجة الى بيان ان رجال الاصلاح الحقيقيين غير كثيرين ، وما أعتقد انكم تعرفون منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة ، وأعني رجال الاصلاح الحقيقيين من جمعوا في موضوع الاصلاح بين صدق النظر وصدق العمل ، من كثرت تجاربهم ومررت رويتهم وصحت عزيمتهم وشهد لهم ماضيهم ، من كثر اختلاطهم بمختلف الطبقات ، ووقوفهم على متباين النزعات ، وصبرهم على متنوع العقبات ، من امتزجت روحهم بحب النظام الذي يحبه الله وكره الفساد الذي يكرهه الله وامتزجت سيرتهم باخبار معامع الجهاد الاصلاحى ومن اشربت أفكارهم فهم معنى الرابطة وأقنعتهم محبتها وتعشعشها فنحن أقلية هؤلاء واقمون أمام حاجتين عظيمتين : الحاجة الى تكثيرهم ، والحاجة الى اشتغال هؤلاء مع من ليس من جنسهم وطبيعتهم ، ثم نحن مع

قلتهم وصعوبة اشتغالهم مع غيرهم أمام مشكلين عظيمين : الاول السبات الذي فيه الامة ، والثاني الجشع الذي اوروبا فيه .

اترك تفصيل هذا الاجمال لحكمتم وحسبنا هي في كل موضوع ، وآخذ الآن بحكاية حال أبناء العرب هنا لانكم علقتم الامل على صنف منهم ههنا .

العرب هنا ثلاثة أصناف : متاجرون ومتعلمون ومأمورون ، فالصنف الاول لا في العير ولا في النفير من جهة السياسة والاصلاح ثم هو في غاية القلة ، والصنف الثاني اولاد في ناشئة العمر لا يليقون للسياسة ولا تليق لهم ، والصنف الثالث أربعة أقسام : الضباط والمأمورون المنصوبون في بعض الوظائف والمأمورون المتقاعدون المقيمون هنا والمأمورون المعزولون الذين جاءوا لينصبوا .

فاما الضباط فلا تجربة لهم في هذه المسالك البتة والاولى عدم دخولهم فيها ، فان هذه التجربة القليلة التي ساقصها الآن زهدتني في كل سياسة يشترك فيها الضباط منا ، ذلك ان (. . .) ناظم اليوم على الحكومة فيشتهي لاجل هذا زعزعة الدولة ونسفها نسفاً ، وهو لاجل ذلك ناظم على ائتلافنا مع الحكومة ومضاد له لانه على زعمه يؤخر حركات العرب ، ولا أدري ما هي حركات العرب وأين تسير وأين ترسي ، وهذا يجتهد أن يجمع حوله بعض اولئك الاولاد وينفرهم منا ومن صنيعنا ولكن لا ينجح بحوله تعالى ، ومن جهة أخرى فهو يحافظ على ظاهر الصداقة بيننا ، وقد أردت اختباره فرأيت أنه ينجح الى مصالحه أولياء الامور وحينئذ يرضى عن كل شيء ، فانظر يا عزيزي الى الذين يمدون أنفسهم في مصاف رجالنا .

وأما المأمورون المتقاعدون فمثلهم كمثل العجائز لا يرضيهن شيء ولا يستطعن عمل شيء .

وأما المأمورون المنصوبون فلا هم إلا حفظ المنصب .

وأما طلاب المأموريات فجياع مساكين لا يفهمون من الإصلاح إلا المأمورية ، إن جاءت فقد جاء الإصلاح وإن لم تجيء فقد منع الإصلاح . ومن هذا التفصيل يظهر لك أن العاصمة في حالتها الحاضرة ليس فيها عرب تستطيع جماعتنا أن تعتمد على أحد منهم ، أو أن تعمل صلة ورابطة مع أحد منهم ، اللهم إلا أن يكون « فلان وفلان » وكل ما أخبركم عنه « فلان » وهو سراب بقيعة جاءه أخوكم الظلّمان فلم يجد شيئا . وبعض اولئك الاولاد يحسدون الشاب عبد الكريم ، وبعضهم لم يتمكن من انالتهم اربا لابيهم أو أخيهم أو ابن عمهم مثلا ، ومن ههنا أكثروا عليه من قيل وقال وكله هواً وهواء .

وأما العرب في الجهات الاخرى فهم أهل سورية وأهل العراق وأهل الجزيرة الخلّص . فالسوريون والعراقيون حضروا قد ألفوا الذل وتعودوا الاستجداء والاستكانة ، لا يفهمون ولا يريدون أن يفهموا ، لا يساعدون ولا ينوون أن يساعدوا ، لا يهتّون ولا يروق لهم أن يوقظوا . وأما أهل الجزيرة الخلّص فهم الاهل وقائم الله الخير وشدهم سواعدهم ، اولئك يجب وصل الرابطة بهم من غير أن نقطعها مع الحضرة على قلة غنائهم .

قد فهمت من كتاب الاخ « فلان » كثيراً واستنبطت كثيراً ، ولو كان في وسع البشر أن تتوزع ارواحهم على أمكنة متعددة لكنت

روحي أوزاعاً على اليمن وعسير والحجاز ونجد وحضرموت ولكن
نظرية الصوفية في هذا الباب لا يمكن تطبيقها .

انظر يا عزيزي أنا لازم هناك كما تشير ولازم الى هنا ، فان هنا
محل عمل ليس بقليل ، فاني أرجو أن يكثر وجودي هنا عدد رجالنا
الذين يعتمد عليهم ، فان رضيت عن هذا الرأي فعليك عملان معجلان
وعمل يمضي مع الزمان وأنا معك فيه على بعد المقر ، فالاول من المعجلين
تبشيري بتلغراف عن رضائك خاصة وهو الأهم ، ورضاء الرفاق عامة
وهو مهم . والثاني منهما حملك الرفاق على تقديم تلغراف للصدارة يحبذون
فيه هذا التعمين ويجعلونه دليل إقدامهم على تنفيذ الرغائب كلها بعبارات
رقيقة تشويقية . أما الثالث فهو ما بيننا من أمر إيجاد الرجال الذين
يعتمد عليهم وتوزيعهم بقدر ما يساعد الزمان والمكان لبث الإصلاح
العالمي والعملية . . .

وان لم ترض عن هذا الرأي فاكتب إلي مفصلاً ومبيناً من كل
جهة من جهات الموضوع ، وأنا من عهدة من يدع رأيه أسيراً الى
رأي وليه .

هذه هي الخلاصة المفصلة واليك خلاصة الخلاصة ، وهي : ان اليأس
لا يجوز في حال من الاحوال ، ولكن الامة في كل أطرافها ليست
بحالة يعتمد عليها في شيء . وانه مع هذا لا يجوز اهلها ، وكذا لا يجوز
اهمال من يبدع أمر المملكة وتركهم وحدهم ، وانه لا بد لنا ههنا من
رجال ، وان أكثر ما يتصرف به الرواة غير صحيح ، واني منتظر
أمركم بسرعة ، وان شوقي عظيم . . .

ومع ذلك لم ينج الزهراوي من طغيان جمال باشا فأمر بإعدامه
رغم أنه عرض نفسه لنقمة أمته بحسن نيته .

وبينما كانت المخبرات تجري بين الهيئات العربية لاتخاذ موقف حازم
حيال الحلول التركية ، كان السيد عبد الكريم الخليل رئيس المنتدى
الادبي ومن الرجال الذين طلبوا الانضمام الى جمعيتنا فرفضنا قبوله نظراً
لترعته في حب الظهور ، يستمر محاولاً تهذئة الخواطر بحجة ان البلاد
بحاجة الى الاستقرار ، وليس في الامكان تحقيق ذلك إلا بالمدول عن
الشعب ، إذ يحمل الشعب الحكومة العثمانية على عدم تنفيذ مقررات
مؤتمر باريس ألبته ، وما قامت به الحكومة العثمانية في الوقت الحاضر
ليس إلا مقدمة للاصلاح المنشود .

وحيال هذا الامر لم نجد مندوحة عن العمل ، وبخاصة بعد أن
أصبحت الحلول التي أقرتها الحكومة العثمانية أمراً واقعاً ، فرحنا نواصل
الجهود لتحقيق ما يمكن من مطالبنا .

والغريب ان الدولة العثمانية كانت كلما ازدادت قوة بعد خروجها
منهكة القوى من الحرب البلقانية ، كلما نكصت على أعقابها تراجعاً
في تنفيذ مطالب العرب وتعسفاً في أخذهم بالشدة .

وعدت الى دمشق قبيل انعقاد مؤتمر باريس كما عاد معظم أعضاء
هيئة جمعية الفتاة المركزية في باريس الى بيروت ، فانتقل مركز الجمعية
الى المدينة المذكورة .

وفي هذه الاثناء طفقنا نضم كل من فانس فيه الميول الخيرة للمساهمة
معنا في جهادنا . فدخل في الجمعية كل من فخري البارودي وفائز النصين

والامير طاهر الجزائري والشيخ كامل القصاب . وقد حُلِّفت القسم
 فخري البارودي بحضور المرحوم الامير عارف الشهابي .
 وهكذا أصبحت بيروت مركز العمل ؛ وكان على السيد محمد المحمصاني
 وأخيه محمود أن يتصلا بالجمعية الامركزية في مصر توثيقاً للصلة بيننا
 وبينها . وبذلك أصبحت قضيتنا تسير سيراً منظماً متسقاً .
 وفي هذه الاثناء افرج عن عزيز علي المصري فعاد من الاستانة
 الى مصر بعد أن اعتقل بسبب نشاطه القومي بين الضباط العرب رفاقه
 في السلاح ، وكاد ينفذ فيه حكم الاعدام لولا تدخل رجالات العرب
 وأعضاء حزب الامركزية في مصر الذين توسطوا لدى السلطات
 البريطانية والمصرية العليا لاجل الافراج عنه ؛ وكانت نفسه مفعمة
 بالغضب والحقد على حكومة الاستانة لما تحيفه من الظلم وهو الذي طالما
 اختص الجيش العثماني بخدمات مشكورة طوال أعوام مديدة . وما أن
 حل بمصر حتى اتصل بحقي العظم في القاهرة وقرر الاثنان اذاعة
 منشورات شديدة ضد الحكومة العثمانية ودعوة العرب الاستقلال باسم
 ماسماه « بالجمعية الثورية العربية » ، وكانا يوزعان هذه المنشورات في
 جميع البلاد العربية في الدولة العثمانية ، ثم انفرد حقي العظم أحد
 أعضاء حزب الامركزية في ذلك وكان يرسل كثيراً من المناشير دون
 أن يطلع الحزب على فحواها بصورة رسمية بل يكتفي أحياناً بإطلاع
 زملائه في الحزب عليها ومن ثم يرسلها الى السيد محمود المحمصاني عن
 طريق البريد الافرنسي . وقد شاءت المقادير أن يقع قسم من هذه
 المناشير في يد السلطة العثمانية فاعتبرت هذه المناشير صادرة عن حزب
 الامركزية واتخذت منها أعظم وثيقة للحكم على أحرار العرب في

(المحكمة العسكرية العرفية بعاليه) فيما بعد بحجة انتسابهم الى
حزب الامر كزية .

الحكومة العثمانية وامارة الحجاز :

وتنفيذاً للخطة التي وضعتها الحكومة العثمانية بسلوك سياسة الشدة
مع العرب قبيل اعلان الحرب العامة الاولى ، فقد أرسلت وهيب بك
قائداً الى الحجاز بعد أن زودته بتعليمات صريحة لاضعاف سلطة شريف
مكة (الحسين بن علي) ، ثم نزع السلطة من يده (كما سيأتي بيانه)
ولتحقيق هذه السياسة زادت من قوة فرقة الحجاز ، كما زادت من
تعزيز مركزها في ولاية البصرة وكان مركزها فيها ضعيفاً . وما هو
إلا القليل حتى ظهرت هذه السياسة واضحة ، اذ طفقت الحكومة تخضع
شوكة المنفذين العرب في البصرة وعلى رأسهم طالب باشا النقيب ، الذي
كان يطالب بالاصلاح في البلاد العربية .



النفي المام

او

الحرب العالمية الاولى (اول آب ١٩١٤)

مما لا شك فيه ان تركيا لم تدخل غمار الحرب العظمى (في منتصف تشرين الثاني ١٩١٤) إلا بوحى من ألمانيا وتأثيرها .
إلا أن ثمة سؤالاً يطلب جوابه . وهو هل ترامت تركيا في أحضان ألمانيا دفعة واحدة من غير أن تصطليح على هذه البادرة عدة عوامل أدت إليها ؟ .

والواقع أن العلاقات التركية - الألمانية ليست حديثة ، وإنما ترجع الى أمد بعيد ، أي الى ما قبل الحرب . فقد كانت تركيا تعلم علم اليقين أن عدوها الحقيقي هو روسيا ، وهذا العدو لا يتورع في بذل قصارى الجهد في سبيل القضاء على الكيان العثماني ، وبحسبه أنه هو الذي استثار الارمن ، وهو الذي يتحين أية فرصة لتحقيق ما ينشده من بسط سلطانه على الدردنيل .

وقد أدركت تركيا هذه الحقيقة التي لا تقبل أي جدال ، وبخاصة عند إبرام الاتفاق بين روسيا وإيطاليا في الرابع والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٠٩ ، حيث أطلقت الاولى يد الثانية في الاستيلاء على

طرابلس وبرقة كما أطلقت الثانية يد الاولى اذا ما حاولت الاستيلاء على الدردنيل .

فلما أن انقسمت أوروبا قبل الحرب الى معسكرين ، راحت الدولة العثمانية تفكر في أيهما أرجح كفة لصالحها كيما تميل اليه وتنضوي تحت رايته ، وبخاصة انها تحققت من أن الحياد مستحيل .

ولقد تشعبت الآراء في هذه الاثناء واختلفت الاتجاهات ، ولكن الاحداث ما لبثت أن رجحت فكرة الانضمام الى ألمانيا وحلفائها على فكرة الانضمام الى فرنسا وحلفائها . ونستطيع أن نحدد ذلك بيده الغزوة الايطالية لطرابلس وبرقة إذ طلبت تركيا من بريطانيا التدخل لتسوية مشكلة الغزوة الايطالية ، فما كان من بريطانيا إلا أن أبدت اعتذارها معربة عن عدم استعدادها لمثل هذه المهمة .

وكان جمال باشا معروفاً بصداقته لفرنسة ، فسافر الى باريس قبيل مقتل الارشيدوق فرنسوافرديناند ، واجتمع هناك الى وزير الخارجية الفرنسية ، وبحث معه الموقف الدولي وهل اذا كانت فرنسا تضمن للدولة العثمانية كيانها اذا ما سارت الى جانبها ، وهي ملتزمة الحياد اذا نشبت الحرب ، فما كان من الوزير الا أن أجاب : « لا سبيل الى الجواب قبل استفتاء حليفتنا روسيا في هذا الشأن » .

ثم أحاله على مدير الشؤون السياسية في وزارة الخارجية الفرنسية وكان جمال باشا في خلال حديثه مع المدير المذكور يحاول غاية جهده أن يقنعه بانضمام تركيا الى صفوف فرنسا لقاء مساعدة الحكومة الفرنسية وحلفائها لتركيا كيما تهض من كبوتها وتسترد قوتها بعد الوهن الذي

اعتراها من جراء الحرب البلقانية ، وتأمين غائلة المطامع الروسية . وكان في جملة ما قال :

« اذا أنتم وقيتمونا عواقب الاخطار التي تهددنا من روسيا ، فإننا نصبح لكم حلفاء أمناء في الشرق . وان جناية سيرا جيفو قد تؤدي الى حرب عامة ، فمن المهم البت في ذلك بسرعة » .

ولما عاد جمال باشا الى الاستانة ، حذر لآخوانه عما كان بينه وبين وزير الخارجية الفرنسية ، فكان ذلك من أهم العوامل التي أدت الى انضمام تركيا الى ألمانيا .

وهكذا عقدت معاهدة تحالف سرية ما بين الدولتين التركية والالمانية في الثاني من آب ١٩١٤ .

ومن هذا يتبين انه لم يكن سبب اتفاق تركيا مع ألمانيا سوى خشية الدولة العثمانية من مطامع روسيا التوسعية ، ولا سيما نزوعها الدائب الى الاستحواز على الاستانة والدرديل .

ولما وقعت معركة المارن الشهيرة علنت الحقيقة ، وتبدى بما لا يقبل الشك أن مزاعم القواد الالمان لاقطاب تركيا بأن نصر ألمانيا محقق ، غير صحيح . ومع ذلك فقد بذلت ألمانيا غاية الجهد لحمل تركيا على تنفيذ الاتفاقية السرية بينهما التي تقضي عليها بالنزول الى ميدان الحرب العظمى الى جانبها ، أملاً بأن تخفف الضغط الموجه اليها في الساحات الغربية . وفي هذا الظرف العصيب ، أي في منتصف شهر تشرين الثاني عام ١٩١٤ دخلت تركيا غمار الحرب العظمى .

وعلى الاثر استقال سليم البستاني الوزير العربي في الوزارة من وزارة الزراعة والتجارة لانه كان من المعارضين في دخول الدولة العثمانية الحرب .

وهنا لابد من التساؤل عما اذا كان خليقاً بتركيا أن تدخل الحرب العظمى قبل أن تدرس الموقف درساً دقيقاً وبخاصة وضع الجيش الألماني ومقدار قوته على مجابهة الاخطار التي تعترضه .

ومن البدهي ان دراسة الموقف من كافة وجوهه كان من أوجب الواجبات على تركيا قبل الانزلاق في الحرب ، ولكنها لم تفعل . ولم ترجع عن رأيها سيما بعد أن عاينت توقف الزحف الألماني عقب معركة المارن .

نعم كان الجيش الألماني غاية في النظام والاستعداد ، وقوة البأس والشكيمة ، إلا أنه كان يعوزه التحرر من سلطة غليوم الثاني المستبد برأيه والذي طالما تدخل في شؤون الجيش تدخلاً مباشراً دون أن يدع للقواد القديرين الخبراء رأيهم وحريتهم في العمل ، فأفسد بذلك على الدولة قوة جيشها وفوّت عليها ظفرها . ومن الممكن اتخاذ صورة واضحة عن استبداد الامبراطور الألماني ، بل غطرسته التي بلغت غايتها من الفرور ، من تصريحه عقب معارضة أقطاب ألمانيا العسكريين في تعيين « مواتكه الصغير » رئيساً لاركان حرب الجيش الألماني ، إذ قال في تأبّه المعروف :

« أنا الرئيس لاركان حرب الجيش في الحرب ، أما في السلم فحسي منه الاسم » .

وان مثل هذا القول يصدر عن رجل مغرور بنفسه ، لاشك في أنه يشل يد القواد الخبيرين ويصرفهم عن حمل عبء مقاليد الامور الجلية ؛ ثم هو بالتالي يعقب أسوأ العواقب . وقد جزم الخبراء العسكريون في أن غرور الامبراطور واستبداده برأيه هما علة العلل في

عدم نجاح ألمانيا بتوجيه الضربة القاصمة الحاسمة الى فرنسا واحتلال باريس أسرع ما يكون .

تلك هي حقيقة وضع الجيش الألماني . فكان على تركيا ألا تخفى عليها هذه الحقيقة بعد الدراسة الواسعة العميقة . وكان عليها كذلك أن لا تزج بنفسها في الحرب العظمى قبل سبر غور قوتها وقوة حليفها . نعم ان الجيش التركي كان قد بلغ درجة حسنة من حيث القوة والتنظيم بفضل الجهود العظمى التي بذلها أنور باشا وزملاؤه في انقاذ هذا الجيش من استبداد السلطان عبد الحميد ، هذا الاستبداد الذي امتد زهاء ثلاثين عاماً والذي أصبحت الدولة العثمانية بسببه صورة كالحمة للتأخر والاضطراب ؛ ثم ما تلا ذلك من انقسام في الرأي ، لتدخل الجيش بالشؤون السياسية بعد ثورة الجيش في مكدونيا ودخوله استانبول وعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ ثم خلع عبد الحميد حيث أدى هذا التدخل الى خسارة تركيا الحرب البلقانية ، وولاياتها الأوروبية ؛ ولكن البدء بقوة وتنظيم هذا الجيش يجب ألا يؤخذ مقياساً وحده دون أن تعار أوضاع الجيوش الاخرى الاهمية اللازمة سواء أكانت هذه الجيوش مخالفة أو معادية . وهكذا أفضى تدخل الامبراطور غليوم الثاني ، ذلك الرجل الاناثي المستبد برأيه ، بشؤون الجيش الى ضياع ألمانيا ؛ كما ان وجود رجل نظير أنور باشا عرف بالحزم وقوة الشكيمة على رأس الجيش التركي ادى الى انقاذ هذا الجيش من وباء الفوضى والاضطراب ، إلا ان رعونة أنور وزملائه الاتحاديين وعدم تبصرهم في الامور كانت اكبر عامل في دخول تركيا الحرب وضياع الامبراطورية العثمانية .

جمعية الفتاة في دمشق

كان علينا إثر دخول الدولة العثمانية الحرب العظمى سنة ١٩١٤ وبعد أن أصبح مستقبل بلادنا في خطر أن نفكر في موقفنا ، وندرس الوسيلة الى تحقيق ما نصبو اليه من أهداف وطنية وآمال قومية . وقد كان قائد الجيش التركي في سورية خلال هذه المرحلة الدقيقة زكي باشا الحلبي ، وهو قائد الجيش الرابع الذي عرف بالمقدرة وبعد النظر . فلما قضت الحرب بتجنيد كل قادر على حمل السلاح ، جند الطلاب كضباط احتياط ، الأمر الذي ساعد على جمع خيرة شباب العرب في دمشق ، وبذلك انتقل مركز الجمعية من بيروت الى العاصمة الاموية ، وعند اعلان النفير العام قررت الجمعية الاستنارة برأي الوطنيين السوريين العرب في مصر قبل أن تنقطع طرق المواصلات ، فأوفدت الاستاذ الشيخ كامل القصاب لاستتمام هذه الغاية ، فقام بها . وعند عودته أوقف من قبل جمال باشا الذي تسلم مقدرات البلاد في سوريا وبدأ باظهار نواياه نحو العرب ، إلا أن الشيخ كامل نجا بنفسه لان جمال لم يكن قد بدأ بتطبيق سياسة البطش ، ثم التجأ الى مكة ومنها سافر الى مصر حيث قضى فيها طيلة أيام الحرب العظمى الاولى . ثم انطلقت الجمعية في بث أفكارها القومية العربية بين صفوف الضباط الاحتياط حتى أذكت كوامن مشاعرهم . ولا أزال أذكر هاتيك الاجتماعات التي كنا نعقدتها في دارنا ، فيرسل الضباط الطلاب حناجرهم بترتيل الاناشيد العربية الحماسية ، متغنين بالابجاد والمفاخر القومية . وكان بينهم أخونا المرحوم جلال البخاري الذي كان يشنف أسماعنا بصوته العذب مثيراً في نفوسنا بالغ الحماس .

بيد أن هذا كله لم يمنع الجمعية من اصدار قرارها بأن غاية العرب هي الاستقلال حفاظاً على كيان البلاد العربية ، لا عداء للاتراك ، أما اذا كانت البلاد العربية عرضة لخطر الاستعمار الاوروبي فالجمعية تعمل مع أحرار العرب كافة للدفاع عن البلاد العربية جنباً الى جنب مع الاتراك .

ويرجع معظم الفضل في عوننا على العمل الى تلك الحرية التي كنا نستمتع بها في عهد قائد الجيش الرابع زكي باشا الحلبي ؛ ولكن هذا القائد ما لبث أن استبدل بحال باشا مغادراً سورية الى ألمانيا ممثلاً للجيش التركي لدى الامبراطور غليوم الثاني ، وذلك في ٥ كانون الاول ١٩١٤ وهو اليوم الذي وصل فيه جمال باشا الى سورية .

أما الاسباب التي حدثت بالحكومة العثمانية الى نقل زكي باشا القائد الركن المثقف فترجع الى معارضته الشديدة في ارسال حملة الى مصر ، اذ كان يعلم أن هذه الحملة لن يكتب لها التوفيق في مهمتها الشاقة نظراً للعراقيل الكأداء التي ستلاقيها في الصحراء ، وخاصة اذا كانت الحملة حملة جيش عصري . وكان لابد لهذه الحملة من أن تسلك الطريق عبر صحراء سيناء لعدم تمكنها من سلوك الطريق المتاخمة للبحر وهي طريق غزة - العريش نظراً لقوة بريطانيا البحرية وسيطرتها على البحر المتوسط . ولما كانت الاستانة خاضعة للنفوذ الالماني ، هذا النفوذ الذي لم يرم من ارسال الحملة العثمانية الى مصر إلا الى مناوأة انكلترا في هذا القطر ، أو على الأقل عرقلة سير السفن في قنال السويس ، فقد نقلت الحكومة التركية زكي باشا من سورية الى ألمانيا واستبدلته بحال باشا ناظر البحرية ، قائداً للجيش الرابع .

جمال باشا في سورية

ومنذ اليوم الذي غادر فيه جمال باشا الاستانة الى دمشق طفق يشير بخطبه وشتى تصريحاته ، الى ضرورة تعزيز الصلات بين العرب والترك ، والى حسن نوايا الحكومة العثمانية لتقاء البلدان العربية . وقد وقعت هذه التصريحات وتلك الخطب موقعها الطيب في نفوس العرب . ولذا ما كاد جمال باشا يصل الى دمشق حتى استقبلناه بقلوب ملؤها الحماس ، مأخوذين بمظهره الودية حيال قضيتنا من ناحية ومخافتنا على بلادنا من ناحية اخرى أن تذهب فريسة الاستعمار الغربي فيما اذا كتب النصر للحلفاء .

وقد جاء في أول خطاب ألقاه في العاصمة الاموية ما جعلنا نركن الى حسن نواياه اذ قال : « أؤكد لكم أن الاماني التركية والاماني العربية لا تتعارضان مطلقاً ، فالترك والعرب ليسوا سوى اخوان في غايتهم الوطنية ، وان هذين الشعبين مقضي عليهما بالفناء في اللحظة التي يتخاذلان فيها » . ولما انتهى من خطابه أنشد الشباب العربي بعض الاناشيد الوطنية الحماسية كنشيد « نحن جند الله شبان البلاد » ، فاستاء جمال باشا من هذه المظاهر العربية وتناسى ما كان قاله في خطابه ؛ ورغم اضطراره الى السفر مع حملة قنال السويس وتوجيه معظم جهوده لانجاح هذه الحملة ، فقد أصدر أمره بحل كتيبة تدريب الضباط العرب ، أي كتيبة ضباط الاحتياط في دمشق .

ولما أنباءت الحملة بالفشل ، ونزل بها ما نزل ، وأصبح مقر قيادة الجيش الرابع في القدس ، حل محله في دمشق فخري باشا قائد الفيلق (١٣) « الموصل » باسم وكيل قيادة الجيش الرابع . وكان رئيس أركان

حربه ياسين باشا الهاشمي وهو من خيرة الضباط العرب النابهين ،
 فقررت الجمعية الاتصال به ودرس اتجاهاته توطئة لادخله في عداد أعضائها
 وكلفت بذلك السيد عبد الغني العريسي . وقد تمكن السيد العريسي من
 الاتصال بضابط من ضباط أركان حربه ، وهو مجيد بك وعقد معه
 أواصر الصداقة . فكان هذا الضابط واسطة الاتصال مع ياسين باشا .
 وعلى الاثر قررت الجمعية قبوله عضواً فيها ، وقد حلفته اليمين مع عبد
 الغني العريسي وجعلناه شجرة الوصل بين جمعية الفتاة وجمعية العهد التي
 كان ينتسب اليها معظم ضباط العرب القوميين ، وعقب ذلك انضم رضا
 باشا الركابي للجمعية فتوسعت بذلك أعمالها ممتدة ، حتى لقد دخل
 في عداد أعضائها نسيب بك الاطرش ونواف الشعلان نظراً لسمعهما
 الوطنية الطيبة والاستعانة بقوى البر عند الاقتضاء . وقد أبلغت الجمعية
 الركابي والامير طاهر الجزائري ان يتقدما الى فائز الغصين بالسفر لمضارب
 الشعلان والعودة بالامير نواف لدمشق . فلي فائز الغصين الطلب وسافر
 الى مضارب الشعلان قرب تدمر وقوبل بمقابلة حسنة . وعلى اثر ذلك
 وشى الواشون بسفره الى تدمر ، فما كان من السلطات التركية إلا أن
 اعتقلته بعد عودته في ٢٣ تموز سنة ١٩١٥ وسيق الى عاليه ومنها نفي
 الى ديار بكر . ولقد قدمت له الجمعية مبلغاً من المال ليستعين به ، بواسطة
 أحد أعضائها القدامى السيد رشيد الحسامي ، وذلك عند مقابلتهما في
 القطار أثناء السفر من بعلبك الى حلب . إلا انه تمكن من النجاة بنفسه
 من ديار بكر فقصده الى البصرة سيراً على الاقدام ومنها سافر الى الحجاز
 حيث عين سكرتيراً خاصاً لسمو الامير فيصل . وقد اجتمعت الهيئة
 الادارية للفتاة عقب توقيف فائز الغصين ورأت أن الخطر اصبح يهدد

الأمير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي ، كما أن صدور الأمر بارسال توفيق البساط و ابراهيم هاشم من ضباط الاحتياط مع زملائهم العرب الى جهة الدردنيل يعني خسارتها لنشاطهم ، فقر القرار على تكليفهم بأن يتواروا عن الأبصار ثم يواصلوا سفرهم الى الحجاز ، وقد اتصلت لهذه الغاية بواسطة سليم بن يوسف عبيد من قرية جرمانا وهو أحد أقارب الدكتور عبد العزيز كنفاني والمعروف جيداً من قبل نسيب بك البكري بالمغوش شيخ خلخلة ، واتفقنا على أن يؤاويهم بالقرية المذكورة بادية بده ، وكان أخي ذكي اذ ذاك قائمقام السويداء ، الأمر الذي سهل مهمتي هذه ، فغادروا دمشق الى خلخلة في ٢٣/٧/١٩١٥ وكنت على اتصال دائم بهم أكفل لهم جميع حاجاتهم ، وكانت خمتي عند عبد الغني العريسي يوقع به بعض أوراق الجمعية عوضاً عن ختم الجمعية بصفته سكرتير هيئة الادارة ، وذلك زيادة في الاحتياط ، فسها عن اعادته إلى قبل سفره حيث تركه في جيب بذلته عند تغيير ملابسه بالملابس البدوية ، فوقع بيد الشرطة وأرسل لديوان حرب عاليه مع ما وجد من المستندات عند عبد الغني العريسي ، فكان عليّ أن أسافر لتدارك الأمر . ولما كنت طبيباً للدرك برتبة رئيس لم يصعب عليّ ذلك ، وقد تمكنت بواسطة أحد أصدقائي الضباط من استرداده وبذلك أمنت شر هذا الخطر الذي كان يترصدني .

وجاءني بعد حين عمر حمد أحد اخواننا في الجمعية من بيروت ينوي الهرب تخلصاً من ملاحقة السلطات له بسبب انتسابه للجمعية الامر كزية . فسهلت له سبيل الوصول الى اخواننا في خلخلة . وبعد أن مكث الجميع فيها مدة دبروا أمر سفرهم للحجاز للعمل مع الحسين بن علي . ولما

كان ابراهيم هاشم مصاباً بالمalaria لم يتمكن من مرافقتهم بل قصد متذكراً
بلدته نابلس وبقي مختفياً فيها الى انتهاء الحرب .

أما الباقون فسلكوا طريق الصحراء الى أن وصلوا الى تبوك فزین
لهم شيخ عرب الفقير سلوك طريق السكة الحديدية فأخذوا برأيه وركبوا
القطار الا أنهم بدلاً من أن يتواروا عن الأنظار جلسوا أمام نوافذ
القطار ، وحدث أن ضحك الأمير عارف الشهابي فرآهم طبيب في المحطة كان
يعرف الأمير عارف ، لكنه اشتبه بسن الأمير الذهبية ، وهي من غير
المتعارف به في تلك الجهات ، فسمى الى أن تعرف عليه ، ثم أخبر
السلطات الحكومية ، فألقوا القبض عليهم وساقوهم الى ديوان حرب
عاليه العرفي .

وحمل إليّ هذا الخبر خفية نسبب البكري في احدى الليالي وعندني
نخبة من ضباط أركان حرب جمال باشا يسهرون ويسمرون ، وأصانعمهم
بغية الحسر عن نوايا جمال باشا وخططه نحو العرب ، فكان لهذا الخبر
أثره العظيم في نفسي .

ولم يلبث موقف جمال باشا من العرب أن تبدى واضحاً جلياً إذ
كشف النقاب عن حقيقة نواياه نحوهم ، رغم اعترافه الصريح في مذكراته
بأنهم أظهروا عظيم التضحية والاخلاص خلال الهجوم على قناة السويس ،
ولكن هذه التضحية وهذا الاخلاص لم يجديا شافعاً لديه ، بل راح
يكيد كيده الايقاع بالعرب من غير هوادة أو رحمة .

وكان أول ما فعل أنه أمر باعتقال عبد الكريم الخليل وذلك في
أواخر حزيران ١٩١٥ بعد أن استدعاه من الامتانة ليساعده على تعزيز
الروابط بين العرب والترك . وقد تم هذا الاعتقال بحجة أنه تأمر

مع رضا الصلح على نفخ نار الثورة في جبل عامل ، وكان ذلك اثر
وشاية لا تستند الى حقيقة ؛ ثم أمر باعتقال رضا الصلح وصالح حيدر
ومسلم عابدين ونايف تلالو ومحمد الحمصاني ومحمود الحمصاني وعبد القادر
الخرسا ومحمود العجم وسليم الاحمد عبد الهادي ونور الدين القاضي
وعلي الارمنازي ، فأحيلوا جميعاً الى ديوان حرب عاليه العرفي . وفي ٢١
آب ١٩١٥ سيقوا الى المشانق ما عدا الصلح (وسليم العبد الهادي المتواري)
فكانوا أول قافلة من قوافل الشهداء ، بأمر من جمال باشا ودون
مصادقة الارادة السلطانية الواجبة في مثل هذه الأمور ، ولم يكن
من ذنب لجميع الذين شنقوا الا انهم ينتمون الى حزب الامر كزية ،
هذا مع العلم بأنه لم يكن في برنامج الحزب المذكور ما يوجب تعريض
المنتسب اليه المسؤولية ؛ واذا اعتبرنا أن سبب شنقهم هو انتسابهم
للجمعية الامر كزية بمصر — وقد أيد جمال باشا حجته بنشر المنشورات
التي كانت تصدر عن حقي العظم — فإن حزب الامر كزية بمصر كان
حزباً معترفاً به من الدولة ، وهذه المنشورات كانت تصدر عن حقي
العظم نفسه لا عن الجمعية الامر كزية ، فعلى مَ يتحمل اذن اعضاؤها
تبعات ما لم يقوموا به ؟

وعلى اثر هاتيك المأساة الدامية لم يرعني ذات ليلة الا أن باي يقرع
ثم طلب الي مقابلة سيدة محجبة ، خرجت اليها فاذا هي سيدة محترمة
تجلبت بالسواد ، جاءت تخاطبني بصوت راعش حزين قائلة انها شقيقة
المرحوم صالح حيدر . وكنا مرتبطين بصلة الجوار حينما كان والذي
قائداً لمنطقة بعلبك في عهد طفولتي ، وتربط عائلتنا صداقة حميمة ،
فأثر بي موقفها أيما تأثير ولا سيما حين فاجأتني بأن أخاها قد ذهب

ضحية الواجب ، وهي تود أن تكون هذه المأساة خاتمة المصائب ، ولذلك
ترجو أن نعمل على اإبادة الاوراق التي من شأنها ادانة أحد من شباب
البلاد . وبالنظر لثقتي بشرفها وشرف عائلتها فقد قابلت طلبها بكل ارتياح
ورجوتها أن تقصد الى بيروت لتتصل بشقيقة المرحومين محمد ومحمود
الحمصاني كما تأخذ اوراق الجمعية ومستنداتها من المكان المودعة فيه ،
وهو قبر ولي بالقرب من بيت الحمصاني ، ثم احراق هذه الوثائق
وإنبائي بنتيجة الامر . ولم تتأخر عن الشخوص ليلا الى بيروت وانفاذ
مارجوتها به بكل دقة ، وقد لمست من شقيقة المرحومين محمد ومحمود
الحمصاني كل مساعدة وعطف . ولو وقع أي تقصير في هذه المهمة ،
لسكان الشنق بلا ريب نصيب معظم الاعضاء العاملين في الحقل الوطني .
إلا أن شجاعة هاتين السيدتين المشكولتين وحسن نيتهما كان من أشرف
الاعمال الوطنية وآية رائعة من الاخلاص والقيام بالواجب .

وقد كان لهذه المآسي القاسية والسياسة الطاغية التي لجأ اليها جمال
باشا دوي وأي دوي في العالم العربي ، اذ ثارت الخواطر واضطربت
الافكار وأدرك العرب أنهم تلقاء سياسة جائرة ترمي الى القضاء على
جميع أمانهم والتعسف بهم لاختفات صوتهم .

ولما كان القضاء اعداماً على أمثال هؤلاء الشهداء الذين يمثلون صفوة
شباب العرب ونخبهم ، ومنهم من ينتمي الى جمعيتنا أمثال محمد الحمصاني
ومحمود الحمصاني وصالح حيدر ، ولما كان هذا الحكم قد أظهر النيات
التركية نحو العرب ، فقد قررت الجمعية القيام بدعاية واسعة النطاق
لاطلاع العالم العربي على حقيقة نوايا الاتحاديين ، فسمعنا جهدنا وبكل
ماأوتينا من حول وقوة لتحقيق هذه الغاية . ولقد انتهت تفاصيل هذه

الفجائع الى مسامع شريف مكة الحسين بن علي ، فوقت من نفسه موقعا
أليماً وحزن لها حزناً عظيماً ، وكان ابنه علي قد عثر على وثائق كان يحملها
وهيب باشا قائد الجيش العثماني في الحجاز وهو يرافقه مع متطوعة الحجاز
في طريقهما الى القنال للاشتراك في الحملة ، فوقف الامير من محتوياتها
على ما ينبيء بالقضاء على امتيازات والده تدريجياً ثم الغاء الامارة ؛ فاعتذر
إذ ذاك عن مرافقة وهيب باشا في الحملة قبل اعداد عدته ، عائداً ادراجه
الى مكة حيث أطلع والده على كنه الامور ، فأيقن شريف مكة أن
الخطر محقق بامارته وبالعراب جميعاً . وكانت قد اتصلت بمسامعه دعايتنا
فصادفت أرضاً خصبة من لدنه وتآلف من هذه الاسباب مجتمعة ما أثقف
في ضميره خطوط السياسة الجديدة التي ينبغي أن يسير عليها .

ولما كانت البلدان الحجازية تعتمد في معاشها على طريق البحر الاحمر
وطريق الخط الحجازي ، وكانت الحرب قد أفضت الى أن يفرض
الانكليز الحصار البحري على بلاد الدولة العثمانية . ولما كانت سورية لم
يعد في مقدورها امداد الحجاز بالمؤن لان الحكومة العثمانية وضعت يدها
على كافة المنتجات الزراعية لاعاشة الجيش ، كما ان الحج قد توقف وهو
مورد هام للحجاز . من أجل هذا كله ، أصبحت حالة الحجاز مهددة
بخطر المجاعة ؛ فراح شريف مكة يجهد الفكر في استنباط مخرج من
هذا المأزق الخرج . وقد وجد في مراجعة الانكليز إياه بدعوته للانضمام
الى صفوف الحلفاء منفذاً لمجانبة الخطر الدائم ، ثم الوسيلة الوحيدة
للخروج بيلاده من الموقف الدقيق الذي آلت اليه ، فرضي ، على كره ،
بمفاوضة الانكليز في شهر يوليو ١٩١٥ ؛ الا ان ابنه الامير فيصل كان
على جانب عظيم من الحذر والتيقظ ، لا يطمئن الى نوايا الحلفاء ، ولذا

التمس من والده السماح له بالسفر الى الاستانة عله يجد من رجال الدولة
العثمانية ما يضمن الحفاظ على حقوق العرب وكيان الحجاز المهدد .
توجه الامير الى دمشق فوصلها في ايلول ١٩١٥ . وكنا ، أعضاء
الفتاة ، نبذل قصارى الجهد لمجابهة الخطر الداهم ، فأجمعنا الرأي على
الافادة من الفرصة السانحة لنا بوجود الامير فيصل بين طهرانينا . ولما
كان قد حل ضيفاً على عطا باشا البكري ، وكان ابنه نسيب من
اخواننا ، اتصلنا به بسهولة ، ودرسنا فكرة ادخاله في عداد أعضاء
الجمعية ، فوجدنا فيه تربة خصبة ، وهو ما كنا نتمناه . فسلكناه في
عقد أعضاء الجمعية ورجونا منه التوسط لدى السلطات العليا الافراج عن
المعتقلين الوطنيين العرب في عاليه .

وقد رغب الامير فيصل معرفة مدى قوة الحركة العربية في
سورية ، فاجتمع أولاً بالشيخ بدر الدين ، ثم ياسين باشا الهاشمي
رئيس أركان حرب وكالة قيادة الجيش الرابع ، ورضا باشا الركابي ،
وسأل عن المساعدة التي تحتاجها سورية لتشارك بالحركة التحريرية
العربية عند الاقتضاء ، فما كان من ياسين باشا الهاشمي إلا أن
أجابه بأن سورية لا تحتاج إلا الى عزم الحسين على ترؤس الحركة
التحريرية العربية ؛ فكان لهذا الموقف الحازم ، موقف الهاشمي ، أثر
عميق في نفس فيصل ، لأنه موقف شخص يملك صفة التكلم باسم
قوى الجيش الماربط في سورية وهو الذي يتألف بأكثره من العرب .
وقد سلمته الجمعية المصور الذي يمين حدود البلاد العربية الجغرافية في
آسيا ، وهي التي يجب أن يدور السمي على أساسها لنيل الاستقلال .
وسرعان ما أرسل بجميع ما وقف عليه الى والده الحسين ، ثم توسط

لدى جمال باشا كي يعدل عن سياسة البطش برجال العرب على غير جدوى .

وتابع السير الى الاستانة حيث اجتمع بالصدر الاعظم وأنور وطلعت وكشف لهم عن الوثائق التي عثر عليها مع وهيب باشا ، وأضاف فأبان لهم بصراحة مضار سياسة الضغط التي ينحوها جمال باشا لتقاء العرب ، فكان لمحدثته صداها وأثرها ، وقد وعدوه خيراً ، وبعثوا للحال الى جمال باشا يوصونه بفصل ، كما انهم حوّلوا وهيب باشا عن الحجاز بعد أن بعثوا مكانه غالب باشا . على أن هذا كله لم يقد في تغيير الخطة التي كان يتبعها جمال باشا في سورية . واذا كان قد جامل الامير فيصل لدن عودته الى دمشق فما ذاك إلا أملاً بأن يرافقه على رأس فرقة حجازية في حملته الثانية على القنصل .

وفي هذه الاثناء كان في عاليه فريق جديد من المعتقلين العرب وهم : شفيق المؤيد والامير عمر ورفيق رزق سلوم وعمر حمد وعبد الغني العربي وعارف الشهابي وتوفيق البساط وسيف الدين الخطيب والشيخ احمد طيارة وسليم الجزائري وجلال البخاري وأمين لطفي وسليم الاحمد عبد الهادي وفايز الخوري ورضا الصلح ورياض الصلح ، وقد سعى الامير ما استطاع للافراج عنهم باذلاً كل ماله من الوسائل الفعالة سواء في الاستانة أو في دمشق ، ولكنه خاب سعيه وذهبت مجهوداته أدراج الرياح ، فاضطر لمراجعة والده ، فأبرق الحسين الى أنور باشا ينذره بأن الحرب الحاضرة تستلزم مساهمة العرب فيها بكل قواهم ، لأن بلادهم من أهم ميادين القتال ، وان ارضاء الشعب العربي يستلزم منح سورية النظام اللامركزي الذي ننشده ، واعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين

الموقوفين في عاليه ، وابقاء اماره مكة كما هي ، اذ أن الوثائق التي عثر عليها مع وهيب باشا تجعل مستقبلها في خطر ، فاذا اتبعت الحكومة العلية هذه الخطة الرشيدة ، فجميع العرب بدواً وحضراً لا يتأخرون عن حشد قواهم للدفاع عن الوطن . وقد تعهد الحسين في هذه البرقية بأن يكون أولاده قادة للقوى العربية في ميادين العراق وفلسطين ، الا ان أنور باشا لم يوافق على هذه المطالب ، وأسرع فأبلغ الشريف بأن لا بد أن ينال الموقوفون في عاليه عقابهم .

وعلى الاثر غادر فيصل دمشق الى الحجاز في كانون الاول ١٩١٥ ليرفع الى والده نتائج مساعيه في الاستانة وما وقف عليه في دمشق ، وفي كانون الثاني ١٩١٦ عاد الى دمشق على رأس كوكبة يبلغ عددها الحسين من المتطوعين حلوا بالقابون في دار عطا باشا البكري ، وهذه الكوكبة مقدمة لفرقة متطوعي الحجاز الى حملة القنال .

وفي شباط ١٩١٦ رافق فيصل جمال باشا وأنور باشا الى المدينة المنورة لتفتيش قوى الجيش المرابطة فيها وقوى المتطوعين ، ثم عاد معهما الى دمشق . وقد كلفه بعض الاشراف القبض على أنور وجمال وهما في معسكر المتطوعين الا أن فيصل أبى ذلك وقال انهما في ضيافتنا ، وعاد معهما إلى دمشق . وبعد برهة قصيرة طلب منه جمال باشا أن يكتب لأخيه كي يضع حداً لاعتداءاته على سلطة محافظ المدينة المنورة وليدعوه للقدوم الى دمشق للسفر على رأس حملة متطوعي الحجاز الى القنال ، وبذلك يكون الاخوان رهينتين في يد جمال باشا .

ولما لم يعد في الامكان القيام بثورة منتجة في دمشق بعد أن شنت جمال القوى العسكرية العربية التي كانت معسكرة فيها ، فقد أصبح هم

فيصل أن ينجو بنفسه الى الحجاز . وعندما طلب منه جمال باشا استقدام أخيه ، اتخذ من ذلك ذريعة فطلب من جمال باشا أن يسمح له بالسفر للمدينة ليعود مع أخيه والمتطوعة إلى دمشق ومنها الى جبهة القنال . وقد تألف وفد للقيام بهذه المهمة وهي استقبال المتطوعين الحجازيين ، برئاسة فيصل وعضوية كاظم بك مفتش منزل الجيش الرابع وآصف بك المستشار العدلي والشيخ عبد القادر الخطيب والسيد نسيب البكري ، وقصد الجميع المدينة المنورة بالسكة الحديدية في منتصف شهر مايس واستقبلوا بكل حفاوة وانضم فيصل الى أخيه واعتذر الى أعضاء الوفد عن تعذر عودته معهم لأنه لم يُعطَ قرار بعد بسفر المتطوعين عن طريق السكة الحديدية الى دمشق او عن طريق الصحراء الى القنال . وبذلك نجا بنفسه .

وفي تلك الاثناء وصل غفري باشا وكيل قائد الجيش الرابع الى المدينة للاشراف على الحالة وقيادة القوى الموجودة فيها وهي من خيرة القوى التركية وقد عززت بقوى أخرى بحجة ارسالها الى اليمن . وخشي الشريف حسين توالي وصول النجيدات الى المدينة ثم احتلال الحجاز عسكرياً وسلبه امتيازاته ، فأنهى محادثاته مع انكلترا بسرعة وأعلن الثورة العربية بتاريخ ٢ حزيران ١٩١٦ .

وقد أعقب توقيف عبد الكريم الخليل اعتقال أمين لطفي قائد الحامية في الاسكندرون ، وهو من المتصلين بعبد الكريم إذ اشيع انه اتفق معه على قطع الاتصال بين الاناضول وسورية اذا ما قامت حركة تحريرية فيها . وقد اتخذ جمال باشا من هذه الحوادث ذريعة لاتباع سياسة البطش القاسية ، فراح يبعد المثقفين والضباط والقطعات العربية في

الجيش العثماني الى جهات أخرى . فأرسل جميع ضباط الخدمة المقصورة من خريجي المدارس العالية الى جهة جنائ قلعة ، وفيلق الموصل الى القفقاس ، وياسين باشا الهاشمي الى جهة السكاريات ، فلم يعد بإمكاننا القيام بأي عمل يذكر بعد تشتت قوانا بسبب ما عثر عليه من المنشورات الصادرة عن حقي العظم باسم الجمعية الثورية العربية ، وعدم احتياط عبد الكريم الخليل .

ولما كان اسمي قد تردد كثيراً على السنة بعض الموقوفين في عاليه من غير أن يذكر أحد حقيقة أعمال جمعيتنا ، فقد قرر استدعائي رئيس الهيئة التحقيقية بديوان حرب عاليه ، فلوقت يوم الاثنين في ٣ كانون الثاني ١٩١٦ وكان ذلك من قبل قائد درك المركز طاهر افندي واودعت غرفة ضابط الدرك في سراي دمشق يومين كاملين . ولما جاء والذي يزورني عامله القائد المذكور معاملة فظة ، قاسية . فأثر ذلك فيه كثيراً ، وكان من أمراء الجيش القدماء ، فوقع عن سلم السراي ، وكان هذا الحادث سبباً في مرضه ثم انتقله لدار البقاء بتاريخ ١٥ شباط سنة ١٩١٦ وانا في سجن عاليه . وقد أبلغت وفاته بعد حين بواسطة جميل الاثني رفيقي في السجن .

ولما كنت برتبة يوزباشي في الجيش فقد نقلت الى عاليه بعد يومين مصون الكرامة . وأودعت الغرفة المجاورة لغرفتي شفيق بك المؤيد وسليم بك الجزائري ، وكان الاول قد أرسل لحيته ووقف أوقاته على تلاوة القرآن وحفظه ، والثاني وهو النحيف جسماً ، لا يفتأ يوقد الفحم في مدفأة من طين اتقاء للبرد القارس . وقد أبلغت لدن وصولي الى

السجن أن من المحظور على السجين أن يتحدث مع غيره من السجناء ،
وكل من تسول له نفسه خرق هذا الحظر تعرض للرمي بالرصاص .
فلما ولجت غرفتي كان همي الوحيد الاتصال بأخواني الموقوفين وخاصة
من كان منهم ينتمي الى جمعيتنا علناً تتمكن من إيجاد مخرج من الموقف
الذي انتهينا اليه ، واثلاً تكون افاداتنا متضاربة .

وحدث إذ ذاك أن أصيب شقيق جمال باشا بمرض ضمن اختصاصي
وكان الأطباء الاختصاصيون نادرين إن لم يكن في حكم المفقودين ،
فدعيت لحسن الحظ الى معالجته والطب لمرضته ، فكان لابد من تحويلي
من غرفتي الى مكان آخر ، فنقلت الى مقر قيادة سرية المحافظة على
المسجونين ، وقواد هذه السرية وجندها من خيرة الرجال الذين يعتمد
عليهم جمال باشا ، لانهم من متطوعي اترك بلغاريا ، وكان القائد عليهم
نوري بك مناطقة جمال باشا ، وهو في الوقت نفسه من أعضاء ديوان
الحرب العرفي ، ومساعدته حسني بك من الروملي الشرقية . وهكذا
مهدت لي الظروف سبيل الاجتماع برئيس الهيئة الاتهامية شكري بك
إذ شاء هو أيضاً أن أعالجه بعد النتيجة الحسنة التي انتهت إليها معالجاتي
لشقيق جمال باشا . وقد خصص لي سرير في غرفة منام نظيف بك
مترجم ديوان الحرب العرفي ، وهو شاب أديب لم يتجاوز الخامسة
والعشرين من عمره ، تخرج من المدرسة السلطانية في استانبول ، إلا
أنه مولع أياماً ولع باللهو شأن أمثاله في سنه من الشباب الطائش . ولا
أكتم أني جاريته في مجرى هواه على ما اقتضاني ذلك من نفقات كنت
أدفعها راضياً اتقاءً للمغبة السيئة التي ترصدني وأخواني المتهمين . وكانت

جلساتنا الطويلة المستمرة تدور في الاغلب حول أعماله وما يتصل بشؤون
المسجونين مما يهمني الوقوف عليه .
وكان من هذه المناسبات ان هيات لي سبيل اكتناه نوايا جمال باشا
نحو المعتقلين ، كما افدت الاطلاع على التهم الموجهة اليهم ، وعلى الافادات
التي كانوا يتقدمون بها . فتوفيق البساط لم ينس ببنت شفة برغم
تعذيبه وضربه . ومثله عارف الشهابي لم يستطيعوا أن يعرفوا منه شيئاً .
أما عبد الغني العربي فقد كتب صفحات مستفيضة ، فوجب عليّ
الاتصال به تحذيراً وتنبيهاً . ولكن كيف السبيل للوصول اليه ودون
ذلك موانع كثيرة ؟ . لقد اصطنعت الحيلة ، فذهبت الى البناء الذي يحتويه ،
متدعراً بحجة وجود حمام جيد هناك ، وبعد رشوة الخفير قابلته
وأطلعته على ما انتهى إليّ عنه ، فكان جوابه بأنه لم يكتب شيئاً له صلة
بأعمال جمعيتنا ، وكل ما كتبه وقف على مؤتمر باريس والجمعية الاصلاحية
في بيروت ، مما هو مدون ومنشور في الصحف . وانه لم يعتمد الى ذلك
إلا بغية تضليل المحققين واستمناح شفقتهم لاسيما وانهم استشاطوا غضباً
أمام تكتم توفيق البساط . وقابلت على الاثر توفيق رزق سلوم وسيف
الدين الخطيب وهما قد ذكرا اسم جمعيتنا مؤولاً ، وعلى هامش افاداتهما .
ولكن المحقق - ولله الحمد - لم يمر هذا الذكر اية اهمية بعد أن استروح
من كلامهما ان الجمعية إن هي إلا جمعية للطلاب في باريس ليس لها
اثر سياسي في الاعمال التي يحققون عنها . ولا شك في ان افادة العربي
قد كان لها أثرها القوي في ابعاد الظنون عن جمعيتنا . إلا ان المحققين
استغلوا اقواله وحكموا عليه بالاعدام ، نظراً لجهلهم ما كان منشوراً منها
في بطون الصحف . ولما كان توفيق الناطور قد أصيب بقذيفة نارية

اثر محاولته التحدث الى أحد المعتقلين ، فقد خشيت أن يؤثر هذا الحادث على أعصابه فيبوح بما يعلمه عن جمعيتنا ، ولذا عزمتم على الاتصال به رغم العقبات التي تعترض سبيلي في هذا الاتصال . وكانت حيلتي أنني اتصلت بنقيب الخبراء مظهراً الشوق الى مشاهدة المستشفى العسكري . وسرعان ما قبل طلبي ملياً وبخاصة بعد أن شاهد بين يديه بعض القطع الذهبية التي رضخت بها اليه . وهكذا توجهت برفقته الى المستشفى في الصباح الباكر لنكون في منجاة من رقابة الضباط . ولما دخلت الى غرفة توفيق الناطور أمسكت بصحيفة معالجته متظاهراً بأنني أدقق فيها ، موهماً بذلك من حولي ، وقلت له : ان عقبي من يبوح بأسرار الاعمال الوطنية هو الشنق لا محالة ، ولن ينجيه البوح من الموت ، فحذار حذار من الضعف . ثم خرجت من غير أن يعلق بي أثر من الريبة .

واتصل بي أيضاً — من خلال محادثاتي مع من كنت بينهم من أعضاء ديوان الحرب — ان الامير عادل أرسلان ، وكان في ذلك الحين قائمقام عاليه ، عرضة لخطر الانتقام من الترك ، لاتصاله السابق برجال العرب العاملين لقضيتنا . ولكن تأخير اعتقاله كان بسبب وجود شقيقه بالقرب من جمال باشا ، فأسرعت اليه متخذاً نفس الطريقة التي اتخذتها لدن زيارتي لتوفيق الناطور — الصباح الباكر والرشوة — ووقفته على الحقيقة ، كما رجوت منه اتخاذ الحيلة والحذر ، وتبليغ ذلك الى أخيه . وفي هذه الاثناء — أي في شباط ١٩١٦ — وصل أنور باشا الى دمشق كيما يعدّ العدة لحملة يند بها القوي العثمانية التي تقاتل الانكليز في العراق ، واتفقش القطعات الحاربة في سورية والحجاز . ولما كان أخي تحسين ملحقاً بأركان حرب فخري باشا وكيل قائد الجيش الرابع

فقد مرّ بعاليه مع هيئة أركان الحرب ، وزارني خلصة ، وهذه الزيارة هي الوحيدة من نوعها إذ لم يسأل عني أحد منذ اعتقلت ، لأن أخي زكي الذي كان قائماً في السويداء قد أقصي الى الاناضول مع جميع العائلة ، ولان والدي انتقل الى دار البقاء . ولقد علمت من أخي تحسين أن « شوبان أوغلو زكي » أحد الضباط المتنفذين في هيئة أركان حرب جمال باشا ، ومن الذين كانوا يترددون عليّ فيما مضى بصورة مستمرة سيوصي بي خيراً أعضاء ديوان حرب عاليه . وهكذا تمت جميع اجراءات ديوان الحرب من غير أن أدعي للتحقيق . وحدث اتني اجتمعت بكالم بك مستنطق ديوان الحرب ، وذلك قبل يومين من الافراج عني ، فكان مما قال لي :

« إننا نحكم بالشنق على كل من يؤتى به الى هنا كي لا يبقى في بلاد العرب من يفكر بالانتفاض على الدولة العثمانية . أما أنت فقد غدوت صديقنا ، وأعتقد أنك من الذين سيفرج عنهم إذ لا خطر منك ، فاذا ما دعيت للسؤال ، فعليك أن تتظاهر بالبساطة واستنكار كل ما يعزى اليك » . وعلى هذا الاساس جرى استنطاق صورياً بتاريخ ١٤/٣/١٩١٦ وبعد يومين لا أكثر بلغت قرار منع المحاكمة فقادرت عاليه الى دمشق عقب الافراج عمن لم يحكموا بالاعدام ، ورحلت أسعى جهدي لانقاذ من أستطيع ممن سيحكم عليهم بالاعدام . وأول من قصدت كان واصل المؤيد حيث طلبت اليه العمل على انقاذ شفيق المؤيد الذي أبعدت أسرته الى الاناضول كما أبعده من سورية عدد كبير من الاسر النافذة الكلمة لاضعاف الحركة الوطنية .

وعلى أثر الافراج عني حضر شكري بك رئيس ديوان حرب عاليه

الى دمشق ، فلم أجِدْ بدءاً من دعوته الى حفلة ساهرة . وقد استثمرت
عواطفه رحمةً وعطفاً لانقاذ اخواني ، ولكنه أجنبي ، والدمع يتفرق
في عينيه ، بأن ليس في وسعه تلبية طلبي لأن جمال باشا مصر كل
الاصرار على شئ أكبر عدد ممكن من المعتقلين ، وبخاصة اولئك
الذين يخشى أن يقوموا بحركة من الحركات في سبيل قضية بلادهم ،
وانه لم يتمكن من حمله على المدول عن رأيه رغم المحاولات الكثيرة في
هذا السبيل .

وهكذا قضي على هاتيك النفوس البريئة أن تمضي الى بارئها ضحية
طفيان جمال باشا . فلم تشرق شمس ٦ مايو سنة ١٩١٦ حتى كان حكم
الاعدام قد نفذ بالقافلة الثانية ؛ فسبق من كتب عليهم أن يعدموا في
بيروت من عاليه تواء الى دائرة شرطة المدينة المذكورة وكانوا ينشدون
الاناشيد الوطنية ، وأول من حملته أعواد المشنقة كان سعيد عقل وبتر
بولي وجرجي حداد . ثم أعقبهم من اخواننا الاكرمين عارف الشهابي
وعبد الغني العريبي وعمر حمد ، وكانوا يرددون أنشودة :

نحن أبناء الألى شادوا مجداً وعلى
نسل قحطان الأبي جد كل العرب

وعندما صعد عمر حمد منصة المشنقة صاح في وجه السلطة الحكومية
ان هذا الذي ترتكبه الحكومة الآن سيقوض أسس الدولة ويكون
سبباً في خرابها . ثم خاطب الحاضرين قائلاً : اتني أموت فداء الامة
العربية غير خائف ولا وجل ، فليسقط الخونة وليحيا العرب . وصاح
عبد الغني العريبي والحبيل يوضع في عنقه قائلاً : ان الدول تبنى على

الجماجم ، وان جماجمنا هي أساس استقلال بلادنا . ثم أعدم الشيخ أحمد طيارة ومحمد الشنقيطي . وعندما جاء دور توفيق البساط التفت نحو المشنوقين وكان عددهم أحد عشر شاباً ، ثم صاح بصوت جهوري ، وعلى محياه ابتسامة مرة : ألا مرحباً بارجوحة الابطال ، مرحباً بارجوحة الشرف ، مرحباً بالاعمدة التي يستند اليها استقلال الامم ، مرحباً بالموت في سبيل الوطن . ثم رفس كرسي المشنقة برجله وفاضت روحه الطاهرة الى بارئها . وكانت خاتمة المأساة شنعاء سليم الجزائري وأمين لطفي .

أما الذين سيقوا من عاليه الى دمشق فهم شفيق المؤيد وعبد الوهاب الانكليزي وشكري العسلي وعبد الحميد الزهراوي والامير عمر الجزائري ورفيق رزق سلوم . وقد أعدموا جميعاً في ساحة الشهداء صباح ٦ مايو أي في اليوم الذي اعدم فيه اخوانهم في بيروت .

وأبت علي السلطة العسكرية إطالة الإقامة في دمشق ، فأمرتني بالسفر الى بئر السبع لآكون بعيداً عن سوريا . وبعد أن لبثت في بئر السبع مدة قصيرة قابلت الرئيس في فوج سكة حديد الحجاز السيد مغربية ، فكلفني بأن أنتقل الى طبابة الفوج المذكور على أن يكفل لي جميع أسباب الراحة . وسرعان ما قبلت . ولما كان رئيس الاطباء في بئر السبع ألمانيا ولا علم له بمخطط جمال باشا فقد وافق على تقلي ، وهكذا أصبح مركزي في وادي الصرار إذ كان العمل قائماً لتمديد السكة الحديدية حتى القنال تحت رئاسة المهندس الالماني الكبير مايسز باشا . وقد كان بين المهندسين الذين يعملون هناك المهندس المصري أحمد عبود ، فتوثقت ما بيننا عرى الصداقة . وفي خلال وجودي

في هذه المنطقة ، وكانت الحرارة فيها شديدة تكاد لا تطاق ، هاجمتنا الطائرات البريطانية ملقمة علينا حمم قنابلها . ولا لم تجد أدنى مقاومة فقد تهابطت الى مسافة قريبة من الارض ثم أصلتنا من رشاشاتها نيراناً حامية ، وقد أصابني شظية في ذراعي الايمن ، فنقلت على الاثر بصالون رئيس المهندسين الخاص الى المستشفى بدمشق . وبعد أن تماثلت للشفاء واستوفيت بعض الراحة علمت بأن السيد شكري القوتلي قد أوقف في خان الباشا ، فكان لهذا النبأ مثل وقع الصاعقة عليّ ، إذ كنت أعلم بأن شكري باشا الايوبي بطل قضية الخان المذكور ، الذي اوقف في يونيو ١٩١٦ ، كان غاية في السذاجة ، ولذلك لم تقبل جمعية الفتاة ادخاله بين أعضائها رغم الحاح السيد نسيب البكري ، كما كنت أعلم بأن السيد نسيب البكري رضي العمل معه وأوصاه بالالتجاء الى السيد شكري القوتلي اذا ما اضطرته الحال الى الفرار من دمشق . ومن أجل هذا قوي لديّ الاعتقاد بأن سبب توقيف شكري القوتلي إنما هو اعترافات الايوبي بعد تعذيبه تعذيباً لا يطاق .

ثم عدت وفي نفسي من الاسى لا يعلمه إلا الله ، الى قطعتي ، وكانت تعسكر يومئذ في (بيريرين) بعد (عوجة الحفير) باتجاه القنال مواصلة العمل لايصال سكة الحديد الى القنال .

وفي أثناء ذلك زار جمال باشا وأركان حربه تلك المنطقة ، فاجتمعت بأحد ضباطه المقربين ويدعى جوبان اوغلو زكي . وكان في جملة ما أخبرني أنهم عثروا بين أوراق عبد الحميد الزهراوي ، بعد أن أخلي سبيلي من عاليه ، برقية بتوقيعي نيابة عن شباب دمشق المثقف راجياً تمسكه بمقررات مؤتمر باريس مع التهنئة بعضويته في مجلس الاعيان وهي العضوية التي

ستكون ولا شك مقدمة لنا على تحقيق مطالبنا الوطنية . وقد عزموا على استئناف توقيفي ، لولا انه قال للقائمين على شؤون ديوان الحرب : « اذا كنتم تجدون ما يدعو لاعدامه فأوقفوه ؛ أما أن تأتوا به ثم تخلون سبيله فليس هذا بالرأي المصيب » . ولذا عدلوا عن استعادتي الى عاليه . وعلمت كذلك وأنا في بيريرين أن عزة دروزة وفوزي القاوقجي ، وكان من ضباط الجيش ، موجودان في عوجة الحفير . وكانت هيئة ادارة جمعية الفتاة قررت قبولها عضوين فيهما ، فقصدت الحفير وحلفتهما اليمين المعتادة . وبالنظر لتحكي من الحصول على كمية كبيرة من الديناميت إذ كان لدى قطعنا الشيء الكثير منها ، فقد رأيت أن أسلمها لفوزي القاوقجي علنا نحتاج اليها في يوم من الايام . وفي تلك الآونة كان الوقود الذي تحتاجه قاطرات السكك الحديدية مفقوداً فاضطرت السلطات للاستعاضة بحطب الاحراش ، وجاءنا الامر بالانتقال الى (الشوبك) على مقربة من « وادي موسى » لنمدّ فرعاً للسكة الحديدية من أحراش الشوبك الى معان . ولم يمض إلا القليل على وصولنا الى مقر عملنا الجديد حتى أرسل في طلبي قائد فوجنا ثم أسرّ إليّ بأنه تلقى الأمر بالقاء القبض عليّ ومصادرة جميع أوراق ، فما عليّ إلا أن أحتاط للأمر قبل التحقيق . ولما لم يكن لديّ شيء مما ذكر فقد أجبته باني أشكره على لطفه ولكنني بريء ، ولست بحاجة الى ابداء شيء من أوراق . وهنا أمر بتوقيفي ، فأوقفت في ١٩١٦/١٠/٩ ثم نقلت محروساً بشدة الى معان ، ومنها الى دمشق حيث وصلتها في ١٩١٦/١٠/١٤ ؛ وبينما أنا في طريقي مع الضابط المكلف بحراستي ، رأيت في السنجقدار في مدخل الفندق المسمى « فندق دار الفرح » ، إذ ذاك ، صديقي وأحد

أعضاء جمعية الفتاة مصطفى برمدا . فعزمت على الضابط أن تتناول طعام العشاء معاً ، قبل أن يسلمني الى أمر الموقع . فوافق ولم يمانع . وبينما نحن على المائدة سألت الأخ برمدا عما اذا كان حقاً ما اتصل بي من أن والي دمشق قد توسط لدى السلطات العليا في الاستانة للحد من مظالم جمال باشا وان الوضع قد تغير بسبب ذلك ؟ فكان جوابه بأن الحالة ويا للأسف لم تزل على ما كانت ، وان مظالم جمال باشا وأوامره لا تزال نافذة لا راد لقضائها . ولم يكن محدثي يعرف حقيقة أمري ، فلم أشأ إزعاجه أكثر من ذلك . وبعد أن تم العشاء مضيت برفقة الضابط المكلف بالمحافظة عليّ ، الى قائد الموقع الذي أمر بنقلي الى سجن الضباط حيث أصبت قسماً من الراحة مدة ساعتين ، ثم تحولوا بي الى دائرة الشرطة حيث أخبرت بأن مديرها توفيق بك يرغب في مقابلتي . ولبثت في غرفة الكتاب حتى الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، وكانت الغاية من ذلك التأثير على أعصابي .

وأخيراً أرسل في طلبي مدير الشرطة واذا هو يفاجئني بقوله : « لدينا معلومات أكيدة عن أنك رئيس جمعية تهديد كيانات الدولة ، ولما كانت النجاة بالصدق وجب أن نخبرني بكل ما تعرفه عن ذلك » . وللحال وبدون اكتراث أجبت بـ « بأن سوق الوشايات أصبحت رائجة ، فيجب أن لا يؤخذ بما يتقوله المغرضون . . . وظل الرجل فوق الساعة يحاول انتزاع ما يمينه على اداتي ، ولكن على غير جدوى . وهنا مارا عني إلا أنه يسألني عما اذا كنت مشاركاً للسيد شكري القوتلي في الاعمال السياسية ؟ فنفيت ذلك البتة . ثم استنلى يقول : وهل تنكر أيضاً صداقتك له واتصالك الدائم به ؟ فأجبت بـ « بأن ما يقول حق ،

ومرجعه صلتنا العائلية ، إلا انني في المدة الاخيرة قطعت ما بيني وبينه
لاختلافنا في وجهة النظر . ومنذ ذلك العهد زال ما بيننا من صداقة .
وتمسكت بهذه الكلمات لا أزيد عليها حرفاً . ولما تبلى الليل عن الصباح
وهب الناس من رقادهم ولم أكن قد ذقت للكريم طعاماً ، أمر المدير
بأن أحمل الى خان الباشا . وهناك أودعت في إحدى الغرف بالطابق العلوي ،
موصداً عليّ ، محالاً بيني وبين الاتصال بأحد . ولما كان البناء قديماً
وليس للباب قفل محكم وإنما يقفل بسلسلة من الحديد عليها قفل فقد
كنت أتمكن من خلال الباب أن أرى ما يجري خارجاً ، فرأيت شكري
باشا الايوبي وعبد النبي الرافعي وفارس الخوري وعمر الرافعي وسعدي
المزلا وحيد باشا القلطقجي وأخانا في الجمعية شكري القوتلي . وكنت
جداً تواق الى الاجتماع به ، وكانت الرغبة ذاتها تحفزهم الى ذلك .
ولما انتصف الليل ، وتفقد ضابط الحرس جنوده ، عمدت الى الحارس ،
وكان من جنود بلوك القادرية ذوي العمام الخضراء ، فرشوته على أن
يهي لي مقابلة شكري القوتلي الذي كان على نحو يترقب الاجتماع بي
فلم يجد الحارس أية صعوبة في عقد اجتماعنا . فتقابلنا هو في الممر ،
وأنا داخل الغرفة ، وابتدرته بقولي : « لقد قلت لمدير الشرطة في
التحقيق الابتدائي انه حدث مؤخراً عداء عائلي فيما بيننا مما قسرنا على
الانفصال ، فرجائي اليك أن تؤيد هذا القول . ولما كنا نحن الاثنين
فقط من أعضاء الجمعية ، فعلينا أن نلقى وجه ربنا من غير أن تبدر
منا كلمة عن جمعيتنا وأعمالها . ولا شك بأن موتنا شرفاء خير من أن
نخبين ونذك صرح اعمالنا الوطنية ونكون سبباً في اعدام غيرنا . فأيد
رأيي . الا انه قال : « والضرب والتعذيب والقسوة ؟ كيف يمكننا

تحملها ؟ » فأجبتة : « تتحمل كل ما يمكننا تحمله ، ثم علينا بالانتحار عندما نستوثق من التخاذل وتحمل ما فوق الطاقة . ولنا بأخينا توفيق البساط اسوة ومثال . فقد انزلوا به من العذاب ما يزلزل الجبال ومع ذلك ظل قوياً مستمسكاً لا يتحلحل عن نفي التهم وإعلان البراءة » . ثم أخبرته بأنني محتفظ بموسى حلقة في طيات معطفي وسأستخدمه لقص شرابيبي عند مفصل اليد ، فأقر هذه الخطة وطلب أن أعطيه هذه الموسى ، فأجبتة بأنها مدخري لا غنية عنها . فسألني : فكيف السبيل إذن الى الانتحار ؟ فأجبتة : اذا أعجزك الحصول على موسى حلقة فما عليك إلا أن تصعد فوق درابزون الممشى وتلقي بنفسك الى ارض الخان . فقال : واذا تهشمت أعضائي من غير أن أموت ، ثم استمروا في تعذبي ، فتلك ولا شك الطامة الكبرى . فقلت : ثقي بأن ذلك أبعد مما تظن . ثم افترقنا على هذا الرأي ونمت ليلتي ملء جفوني بعد أن استوثقت من اتني قت بواجبي ، وما علي إلا أن أنتظر مصيري في اللحاق بغيري ممن سبقني من الاخوان لنيل الشهادة في ساحة المراجعة . ولما استيقظت وأرسلت النظر خارج غرفتي ، رأيت الدم يخرج من تحت باب الغرفة التي احتوت شكري القوتلي ، فهالني الأمر ، وأيقنت للحال بأنه استعمل ما اتفقنا عليه .

واني لأخفق الباب خفقا متداركاً فيفتح الحارس فألفت نظره الى أن الدم يسيل من الغرفة المجاورة واتي كطبيب لا بد من أقوم بواجبي اسعافاً للجريح . وهنا حصل هرج ومرج في السجن ، وارتبك ضابط الحرس ، فلم يمانعني أحد في اسعاف شكري القوتلي الذي كان قطع شرابيبي يده ، فوضعت عليها قطعة كبيرة من القطن وربطتها بإحكام

رباط الحرب الذي يدخره كل ضابط وجندي ، فاستعاض بعض وعيه .
ونصحت له بأن يتظاهر بمثل المشرف على الموت ليتمكن انقاذه من سجنه .
فلي وهو يقول لي بأنه كتب ورقة تركها تحت الوسادة يذكر فيها انه
ماضٍ للقاء ربه لا خوفاً على حياته بل خوفاً من اهانتة بالتعذيب كما
جرى لغيره وأنه هو بريء والله على ما ذكره شهيد . . . فتركت الورقة
مكانها . وبعد ساعة وصل طبيب البلدية فؤاد الساطي وجراحها أبوه
محمد علي الساطي ، فربطنا له الشرايين المقطوعة وتحمل ذلك دون أن
يظهر عليه أي أثر للحياة ، وبعد ذلك نقل الى المستشفى .

وكان لهذا الحادث أثر سيء عند جمال باشا لانه ادرك أن الحراسة
غير كافية ، فأمر بنقل (سرية) القادرية القائمة على الحراسة في خان
الباشا ، وجعل مكانها السرية الخاصة المرتبطة به والتي كانت مكلفة
بحراسة موقوفي عاليه . وقد تفقد قائدها حسني بك المسجونين واحداً
واحداً عند تسلمه العمل ، الى أن رأى في فحائي تحية الصداقة القديمة .
وفي المساء دعاني الى غرفته حيث تناولنا معاً الطعام . وكان مما قال لي :
أنا واثق من براءتك . إلا اني أستغرب كيف أدخلوا اسمك في جميع
القضايا السياسية العربية . وعلى كل فلن يكون عليك بأس ان شاء الله .
وبعد بضعة أيام دعت ثانية لغرفته ، وكان هناك شقيق جمال باشا الذي
عالجته وأنا في سجن عاليه ، فاستشارني بأمر مرضه ، وأكد لي بأنه
سيوصي رئيس ديوان الحرب العرفي فخر الدين بك بي خيراً . وعند
استجوابي كان التحقيق يدور ممي على محاولة السيد القوتلي الانتحار ،
وكيف وقع في الصباح الذي تلا دخولي الى السجن . وكانت أجوبتي
منحصرة في اني أجهل كل شيء ، إذ كنت مسجوناً سجيناً منفرداً

وغير مسموح لي الاتصال بأحد . وحمدت الله على أن التحقيق لم يطل .
وكان مستشار الجيش العدلي في دمشق إذ ذاك جودت البغدادى ، وهو
جاري أعرفه ويعرفني جيداً ، فبذل غاية وسعه لمعاويتي .

وفي ١٠ كانون الاول صدر القرار بتخلية سبيلي ، فحرصت على
البقاء في دمشق مركز الحركة العربية بعد أن أعلن الشريف حسين الثورة .
وقد فاتحت بذلك الدكتور كنعان من شبان نابلس النابيين وكان مساعداً
لمدير الصحة العسكرية في دمشق إذ ذاك ، الدكتور حسن ابراهيم باشا ،
فوافقت القيادة على أن أعين طبيباً لمستشفى الامراض الزهرية في دمشق . ولما
كان الامير فيصل قد احتل العقبة في آب فقد أصبح اتصالنا به ميسوراً
عن طريق جبل الدروز لأن قوافل المهرين كانت لا تنقطع عن العقبة
بسبب قلة بل انعدام وجود السكر والارز وماشاكلها من المواد الغذائية
وغيرها من المنسوجات الضرورية في البلاد . ومما ورد في الاحصاءات
أن سورية والعراق فقدتا سنة ١٩١٧ وحدها ما لا يقل عن مئة وخمسين
الف نسمة بسبب المجاعة والامراض مما دفع بعض النساء الى التهام جثث
الاطفال ، فحكم على إحدى النساء بالموصل واخرى في طرابلس الشام
بالاعدام بسبب ذلك ، ولم يشفع لهما بؤسهما الذي كان العامل الحقيقي
على ما أقدمنا عليه .

وبعد أن استقر بي المقام في دمشق كان همي الوحيد تبين الخطط
التي تضعها السلطة العسكرية في محاربة الامير فيصل ، وارشاده اليها
كيما يتحاشاها . وقد اضطررت في احدى الليالي الى السفر لدرعا بقطار
عسكري فوق أكياس ، والبرد قارس ، لاستلام رسالة أرسلها لنا
الامير فيصل . فقطعت الطريق وقد استغرق اثنتي عشرة ساعة اذ كان

وقود القطار من الحطب . وقد حظيت بكل مساعدة لمعرفة خطط السلطة العسكرية من ياسين الجابري أحد أفراد هيئة أركان حرب جمال باشا الصغير الذي خلف جمال باشا الكبير في سورية بعد مغادرته لها في خريف ١٩١٧ . وبعد استقرار فيصل في (أبي الاسد) وضبطه مرتفعات سمحة التي تشرف على معان وتخريب رجاله لكثير من محطات سكة حديد الحجاز ، غدا الاتصال بين سورية والامير أسهل منه قبلاً . وفي تلك الاثناء نقلت القطعة التي يترأس عليها ياسين باشا الهاشمي الى جهة فلسطين قرب عمان ، الا أنها أصبحت تركية ، فأرسلت له الملازم المكلف بالخدمة سليم عبد الرحمن لاستشارته فيما يمكن عمله ، فأبدى غاية التحفظ ولم يزد على القول بأن الاسر أصبح بيد فيصل ، فقررنا آتئذ استشارة فيصل بالحقاق به ، فجاءني الرد بأنه اذا لم يعد بإمكاننا القيام بأي عمل ايجابي في دمشق فلنلتحق به في (أبي الاسد) . وهكذا عمدت الى تهيئة أمر حملة لتلك الغاية وكان كل ما بقي معي من مال اذ ذاك ألفي ذببة عثمانية ، فوضعها تحت أمر اخواني لتنظيم الحملة المذكورة ، وهي مؤلفة مني ومن قائدها أخي تحسين قدرتي الذي طلبت اليه العودة لدمشق من جهة فلسطين ، فوافاني متذكراً ونزل من القطار بين الكسوة والقدم واختفى في بيت مربية أولاد أحمد مختار مردم بك (والد صديقي خليل بك) الى يوم سفرنا ، ومن رفيق التميمي وسليم عبد الرحمن ورستم حيدر والملازم الاول محمود المغربي و خليل السكاكيني وسعيد الباني والعسليّة الثلاثة الذين كانوا في انتظارنا بالحبيل واستعنت بسليم ابن يوسف عبيد من جرمانا لتهيئة الخيل والسلاح والعتاد والمتطوعين الذين نحتاج اليهم . وبلغت التكاليف التي تكبدناها حداً باهظاً بسبب

سرية العمل . وفي أواسط يونيو قصدنا متفرقين بساتين جرمانا بنوطة دمشق . . . وبعد حين جمعنا شملنا وغيرنا زينا ، وغادرنا مكاننا تحت جناح الليل قاصدين الى خلخلة ، مارين بغير اكتراث بالخفر الذي يعترض طريقنا اذ كان في وسعنا الاستيلاء عليه ولكننا لم يعترضنا أحد .

ولبثنا يومين في خلخلة ندعو الى ضرورة انصواء العرب تحت راية الامير فيصل . ومنها قصدنا في طريقنا الى القرية المجاورة (الحلبية) . ولما كان شيخها يتظاهر بالصدقة للسلطة التركية ، فقد تحاشى الاجتماع بنا ولم يصفنا ، فأوجس زملائي أن يتكاثر علينا أهل القرية فيتعذر علينا الدفاع ، ثم يساموننا للحكومة التي كانت قد أعلنت على انها تمنح لمن يأتي بأحدنا حياً أو ميتاً مكافأة قدرها (٥٠٠) ليرة ذهبية . فرأيت أن لا خلاص لنا إلا بالاقدام ورباطة الجأش ، وهنا تقدمت من ابن الشيخ زاعماً اني صديق حميم لسليم الاطرش ، وكان يحكم حاكم الجبل في نظر أهاليه ، كما اني أخ انسب الاطرش ، ولم أقم بهذه الرحلة إلا بعد الاتفاق معهما ، واتي على استعداد لمقادرة القرية واخبارها بهذه المعاملة الشاذة التي لا يليق أن يعامل بها الضيوف . فتغير الوضع آنئذ ، وذبحت لنا ذبيحة ، وأتانا منشد القرية ينشد على ربابته أناشيد في تمجيدنا . ولما لاح الصباح غادرنا القرية قاصدين عنزة ، قرية حسين الاطرش ، إلا اننا بقنا ليلة في الطريق قبل الوصول إليها ، وكنا نلحق كل ترحاب بمن نصادفهم ، كما ان لقاء حسين لنا كان لقاء كريماً ، ثم واصلنا السفر الى (القرية) مقر سلطان الاطرش ، ورغم تعنيه يومئذ ، فاننا بقنا في المضافة ، وأصبحنا آمنين على أنفسنا . ومكثنا

هناك بضعة أيام لاستكمال عدتنا ، واستأجرنا بعض الادلاء والمتطوعين
 من عرب السردية . واجتمعنا بعبد اللطيف العسلي ولطفي العسلي وحكمة
 العسلي . ولما أن استوفينا ما أردنا من العدة وكان عديدا قد غدا وفيراً
 بانضمام الكثير ممن يرغب الالتجاء الى مصر ، الى أقاربهم من اللبنانيين ،
 ومن الارمن ممن كانوا مختبئين في جبل الدروز والذين أعلن فيصل
 أخذهم تحت حمايته ، وكان بينهم عدد من النساء أيضاً . فسارت القافلة
 بتنظيم عسكري بطريق البادية ، وبتنا بالخلاء ، ثم حللنا بالازرق للارتواء ،
 فباغتتنا عن بعد غزو ، إلا انه لم يجرؤ على مهاجمتنا . وفي أثناء انحدارنا
 نحو أحد الوديان أراد سعيد الباني أن يسرع ويتقدم غيره ، فثمنته
 راجياً أن تكون النساء في المقدمة . ولم أكد أتم كلامي حتى انطلقت
 علينا عدة طلقات نارية ، فاتجه عندئذ نحوي وقال لي : هذا هو السبب
 الذي كنت من أجله أود الاسراع في النزول . وللحال اتخذت حاميتهما
 خطة الدفاع ، وفتحت النار بشدة على المهاجمين ، وأحضرت أنا آلات
 الاسعاف ، وكان رستم حيدر مكلفاً بجلب الماء للجرحى اذا ما أصيب
 أحد ، الا ان تنظيمنا شبه العسكري ووفرة النيران التي قابلنا بها
 المهاجمين إذ كان لدينا رشاش ، كل اوائك جعلهم يرتدون بسرعة . ثم
 واصلنا السفر بعدها الى بير بيرين مقر (عودة ابو تايه) شيخ الحويطات
 وهناك رأينا على بئرها قطعة Buxton العسكرية الانكليزية معتلية الجبال ،
 عائدة بخيبة من التجربة التي أرادت القيام بها لتخريب خط السكة
 الحديدية بين جهة فلسطين ودرعا ، وغاية ماوسعها عمله هو الاستيلاء
 على محطة المدورة شمال معان بحماية رجال فيصل . ولقد بتنا ليلتنا هذه
 ضيوفاً على ابو تايه حتى اذا اشرق الصباح سرنا نجتاز السكة الحديدية

قرب معان قاصدين «أبا الأسل» أمام معان مقر الامير فيصل . وكان
اول من صادفنا من قواد جيشه النظامي جودة الايوبي ، وكنا آتخذ
ننشد الاناشيد الحماسية التي نظمها ولحنها لنا خليل السكاكيني ومطلعها :

أيها المولى العظيم فخر كل العرب
ملكك الملك العظيم ملك جـدك النبي الخ... .

وبعد أن تناولنا عنده المرطبات ودعناه قاصدين مقر الامير ، وكان
وصولنا اليه عند المساء عقب الغروب . فاستقبلنا سكرتيه الخاص فايز
الغصين ونسيب السكري وهما من اخواننا في الجمعية ، وفايز المؤيد
وأخوه أحمد ، وللحال نصبت الخيام لمبيتنا . وما هي إلا استراحة
قصيرة حتى طلب فيصل مقابلتي ، ورحب بي ببشاشته المعهودة ثم رأى
أن يعين رستم حيدر رئيساً لديوانه ، ورفيق التميمي رئيساً لديوان
أخيه الامير زيد ، وتحسين قدرتي مرافقاً خاصاً له . واقد حسرت له
عن الحالة الاليمية التي انتهت اليها سورية ، ونفور الاهلين من مظلّم
جمال باشا وسوء الادارة في البلاد ، ونحيمهم الفرص للانضمام تحت لوائه ،
الامر الذي لم يعد خافياً على الحكام في الاستانة ، فسحبوا جمال باشا
لتخفيف حدة التوتر في سورية وتخفيف شدة انتقاد حلفائهم الامان
على سوء تصرفهم في البلاد العربية . وفكروا بتكليف المارشال ليان
فون ساندرس الذي كان قد عين قائداً عاماً لجيوش تركيا في سورية ،
بالاشراف على شؤون سورية الادارية ايضاً . فاعتذر بسبب الانحلال
الذي بدأ يظهر في الادارة التركية في هذه البلاد ، ونفور الاهلين
من الحكم القائم . وبعد اجتماعات متعددة علمت أن هناك تدمراً بين

قادة فيصل بعد أن اتصلت بهم أخبار عقد اتفاق سيكس - بيكو الذي تمت مذاكرات توقيعه في ١٦ مايس سنة ١٩١٦ والذي يتنافى مع العهد المعطاة الى الشريف حسين . وقد نشر الروس نصه بعد انسحابهم من الحرب ، وهماهي أهم بنوده :

المادة الاولى - ان فرنسا وبريطانيا العظمى مستعدتان أن تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربي في المنطقتين (أ) [داخلية سورية] و (ب) [داخلية العراق] المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ، ويكون لفرنسا في منطقة (أ) ولانكلترا في منطقة (ب) حق الاولوية في المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسا في منطقة (أ) وانكلترا في منطقة (ب) بتقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناء على طلب الحكومة العربية او حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية - يباح لفرنسا في المنطقة الزرقاء [سورية الساحلية ويدخل ضمنها لبنان] ولانكلترا في المنطقة الحمراء [شقة العراق الساحلية من حدود بغداد حتى خليج فارس] انشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة او بالواسطة او من المراقبة بعد الاتفاق مع الحكومة او حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة - تنشأ ادارة دولية في المنطقة السمراء [فلسطين] يعين شكلها بعد استشارة روسيا وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي الشريف مكة .

المادة الرابعة - تنال انكلترا ما يأتي :

١ - ميناء حيفا وعكا .

٢ - تضمين مقدار محدود من ماء دجلة والفرات في المنطقة (أ)
 للمنطقة (ب) . . . الخ

من أجل هذا راح فيصل يفكر بتفاوضة رجال الدولة العثمانية ثانية بغية توحيد العمل الحربي معهم اذا ما ضمنوا للعرب ، بالاتفاق مع حلفائهم ، ما وعد الانكليز به الشريف حسين ، فيبقى العرب دوماً حلفاء للدولة العثمانية وعلى اتفاق تام معها ، كل ذلك فكر به فيصل ولو انه لم يكن يعتقد بان الحكمة ستكون رائد رجال الاتحاد والترقي . هذا ومع انه كان من المرجح لديه انهم سيرفضون مطلبه ، فلم يكن بد من الاقدام على هذه الخطوة ارضاء المتذمرين من أنصاره بعد أن اتصل به ان جمال باشا الصغير الذي خلف أحمد جمال باشا في قيادة الجيش الرابع ، يرغب في اتباع خطة المسالمة مع العرب . ولم أر بدأ من غماشة الامر في رأيه لاني لم أكن مطلعاً على حقيقة الوضع السياسي إذ ذاك ، فأرسل فيصل اقتراحاً بما تقدم الى جمال باشا الصغير الذي كانت القوات التركية الحاربة لجيش فيصل في معان تابعة له طالباً منه الجواب بسرعة إذ أن هجوم البريطانيين العام قد قرب مياعده ، فرفعه هذا بدوره الى القائد العام ، فحبذه ليمان فون ساندرس ، إلا انه لم يحوز رضى السلطات العليا في الاستانة . فرفع فيصل نتيجة مساعييه الى والده الذي أراد أن ينتهز الفرصة ليحصل من بريطانيا على تأكيد أكثر صراحة بتعهداتها تأمين استقلال العرب بالحدود المرسومة ، وهي المقدمة له من الفتاة . وقد هدد بالانسحاب من المعركة اذا لم يوافق البريطانيون على ذلك ، فكان جوابهم الماطلة والتسويق .

وبالنظر لقرب قيام الانكليز بهجومهم العام في جهة فلسطين وعدم

تمكنهم من عرقلة خط رجعة الجيش التركي بقواهم الخاصة فانهم أناطوا هذا الامر الهام بالامير فيصل الذي كان يتشوق الى سورية ونجدة مواطنيه فيها ، فوحب بالأمر ، وأعد حملة من خيرة جنوده المدربين تحت قيادة نوري السعيد على أن يرأسها بنفسه . وهكذا غادرت الحملة أبا اللسل في ٣١ اغسطس ١٩١٨ قاصدة الازرق وفي طريقها ارسلت مفرزة دمرت جسر السكة الحديدية الكائن بين المفرق والزرقاء بقصد عرقلة تموين الجيش العثماني المرباط في جهة السلط وعمان . فبلغت الازرق في ١٢ ايلول . وقد بارح الامير فيصل أبا اللسل بالسيارة وكنت في معيته . وتوقفنا في مضارب الحويطات ليستصحب شيخها عودة أبو تايه ورجاله ، ولكن الشيخ تردد كثيراً بحجة احتياج أهله لازاد ، وقاسى فيصل كثيراً من الصعوبة حتى تمكن من تدبير المبلغ الذي رضي به . فأخذناه وابنه محمد معنا الى الازرق وعكف الامير على مخبارة مشايخ جبل الدروز وحواران معلناً قدومه لسورية لتخليص البلاد من المظالم والاهوال التي حلت بها طالباً اليهم الانضمام اليه . وكنت أقوم بوظيفة كتابة المخبرات . وقد حدث أثناء ذلك حادث غريب إذ أن محمد بن عودة أبو تايه عطش فلم ير أحد أليق مني ليأتيه بالماء لان الفقيه وهو الوحيد الذي يعرف القراءة والكتابة بين البسود هو أقل شأنًا من الجميع . فأسرعت وأجبتة الى طلبه لأن الوقت كان وقت عمل لا وقت ارشاد الجهلاء ، لكن فيصل لم يوافق على ذلك وقال لي : « على هؤلاء أن يعلموا بانك لست فقيهاً لدى قبيلة بدوية بل انني اعتبرك كشيخ لي » . وأفهم ذلك من كان حاضراً .

وفي اليوم التالي وصلت الحملة العسكرية الى الازرق . ثم وصلت

الى الازرق بيارق وآل نوري الشعلان لتكوين تحت امرة الامير . وبعد استراحة الحملة يومين في الازرق اتجهت الى حوران . وبعد سفرها تحرك ركاب الامير في السيارات من الازرق ونزلنا في حوران قرب (أم السراب) وقد تجمعت جموع الرولة والحويطات بأطراف مقر الامير ووافته مشايخ حوران مسامة ، إلا انهم التزموا خطة الحذر . وقد اندفع من بينهم بوطنية جائشة شيخ قرية طفس طلال حريدين يشجعهم ويلقي الحماش بين صفوفهم . وفي ١٦ سبتمبر ١٩١٨ وصلت الحملة الى حوران فرجوت الامير أن يسمح لي بمرافقتها مع نوري السعيد فوافق على ذلك . وخربت الحملة في ١٧ منه مخفر تل عوار الكائن على بعد ثمانى كيلومترات شمالي درعا ، ثم خربت طريق السكة الحديدية ، واتجهت الى المزريب حيث خربت محطاتها واتصلت بطلال حريدين بغية تسهيل تخريب جسر السكة الحديدية الكبير الكائن قرب تل شهاب . وكاد هذا الامر الخطير يتم لولا أن قطاراً وصل في اللحظة الاخيرة وبه قوة كبيرة مسلحة بالمدفعية والرشاشات المحافظة عليه . لذلك عادت الحملة باتجاه درعا قاصدة محطة نصيب جنوب درعا لمرقلة تموين وقطع خط رجعة الجيش الموابط في جهة السلط - عمان ، فدمرتها وواصلنا السفر الى أم السراب واستمرت أعمال تخريب قضبان السكة الحديدية . وفي ٢٤ منه علمت قيادة الحملة ان الهجوم البريطاني الكبير على جهة فلسطين قد نجح وتمزق الجيش التركي وأخذت كل قواته تتراجع فخفت الحملة لقطع خط رجعتها وأسرت ما عثرت عليه من القوات المتراجعة من عمان . وبعد أن تركت قوة في نصيب لمنع اصلاح خط السكة الحديدية ، قررت قيادة الحملة قطع خط رجعة القوى الاساسية التركية المتراجعة عن طريق سكة

حديد حيفا ، فاتجهت نحو الشمال فوصلت في صباح ٢٧ منه الى الشيخ
 سعد ، واجتمعت فيها بالقوى البدوية التي تجمعت حول نوري الشعلان
 وعوده أبو تايه وكان رأسها الشريف ناصر . ولم يطل مقامنا فيها حتى
 أتانا رسل أهل قرية طفس يستجيرون بالحملة لتصد عنهم اعتداء الترك
 الذين مروا بقريتهم ، وكانت القوة المعتدية عظيمة ولديها قيادة منظمة
 تحت رقابة فنية ألمانية ، وهي تود سلوك طريق طفس ، نوى ، دمشق .
 ولما كنا نجهل امكانيات هذه القوة ولم نسترح من عناء السفر ، فلم
 يقابل طلب قرية طفس بحماس ، بل ان نوري الشعلان ندد بالخورانيين
 لعدم قيامهم بواجبهم أمام طلال حريدين قائلاً : « على مشايخ حوران
 أن يدافعوا عن أموالكم وأعراضكم وأن يعملوا مثلما نعمل نحن » .
 فارتد طلال الى قريته مع بعض المتطوعة البدو الذين رافقوه وقاوم المعتدين
 بكل حمية وشجاعة حتى سقط شهيداً في ساحة الشرف . ثم خف قسم كبير
 من قوتنا لتخليص أهل القرية من القتل والتشيل وصبت نيران مدافعها
 الرشاشة على المعتدين الذين هالهم هذه المفاجأة ، فأسرعوا بالاتجاه نحو
 درعا - شيوخ مسكين - دمشق . وعندها عدنا الى الشيخ سعد . ثم علمنا
 أن القوى البريطانية تتجه نحو درعا فقصدناها قبل طلوع فجر يوم ٢٨
 ايلول وكنت مع لورنس أول من دخل البلدة . واتصلت الحملة في درعا
 بالقوات البريطانية . ثم غادرنا درعا قاصدين دمشق حيث بقنا في قرية
 غباغب وقبل فجر أول تشرين الأول دخل الشريف ناصر دمشق مع
 رجال القبائل الذين كانوا تحت لواء نوري الشعلان ومتطوعي الدروز
 الذين انضموا الى الشريف ناصر بقيادة سلطان باشا الاطرش . وأعقب
 ذلك دخول الحملة النظامية بقيادة نوري السعيد ثم الخيالة الاسترالية .

وبلغ مجموع القوات التركية التي أسرها العرب أكثر من (٢٥) ألف جندي ، كما ان عدداً قد يزيد على هذا أخرج من صفوف القتال بسبب المرض وانهاك القوى والاصابة أثناء المعارك . فلو أن جمال باشا وحكومة الاتحاديين سلكا مسلكاً حكيماً مع العرب لكان تعذر على الانكليز اختراق جهة فلسطين بقوة لا تزيد كثيراً على الـ (٢٥) ألفاً يقابلها عدد لا يقل عنها من الجنود الاتراك ، ولكان في الامكان أن ينضم الى القوى التركية أيضاً ما لا يقل عن هذا العدد من خيرة الجنود الاتراك الذين كانوا يقاتلون العرب ما بين المدينة ومعان ، ولما كان بإمكان الجيش الانكليزي الهجوم وجناحه الايمن غير مؤمن . ولقد أظهر العرب كل ما في وسعهم من نية حسنة لتفادي هذا المصير المشؤوم ، لكن تعنت الاتحاديين أوصلهم الى هذه النتيجة . هذا ولا شك أن العرب لو لم يقوموا بثورتهم المباركة لما أمكن الخيلولة دون انتصار الحلفاء وتسليم الاتراك وحلفائهم بدون قيد أو شرط ولكانت بلادهم مسرحاً لاستعمار أشد هولاً مما عانوه بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

وعندما دخلنا دمشق كانت الاعلام العربية ترفرف على مؤسساتها الرسمية إذ اتنا ككنا كلفنا رضا باشا الركابي وشكري باشا الايوبي بتشكيل حكومة وطنية في دمشق دون انتظار دخولنا بعد أن لم يعد في امكان القوى التركية المقاومة . إلا أن رضا باشا لم يكن في دمشق إذ عينته القيادة العثمانية قائداً عاماً للاستحكامات التي فكروا باقامتها حول المدينة للدفاع عنها . فاضطلع بذلك شكري باشا الايوبي ورفع العلم العربي بعد ظهر ٣٠ سبتمبر على دار الحكومة وكان طيب القلب فوحد مساعيه مع الامير سعيد الجزائري وأخيه عبده وقبل تقدمهما عليه . وعندما بلغت

السراي كان لورنس قد وصل إليها فدهشنا من ذلك لأن المذكورين لم يكونا من الوطنيين الذين يعملون مع فيصل وانما كانا يعملان مع رجال الحكومة العثمانية ولهما صلة بفرنسا . فلم نتحمل هذا الوضع بعد الانتصار الباهر الذي نلناه ورغب لورنس في تنجيتها عن التدخل في شؤون الحكم فوافقته على ذلك ، فدخلنا به السراي الكبير لمفتحة الشريف ناصر بما تقدم ، إلا اننا فوجئنا بصياح وعريضة بالغرفة المجاورة بين عودة أبو تايه وسليمان الاطرش فخرجنا حالاً لاصلاح ذات البين فما كان من الامير سعيد إلا أن كلف الشريف ناصر بأخذ قسط من الراحة في داره وغادر السراي . وكانت تلك خطة مدبرة لتفادي العاصفة إذ لم يكن من الحكمة أن يترك الشريف ناصر السراي في الوضع الحرج الذي كانت دمشق مسرحاً له في تلك الساعات العصيبة ويرغب بأخذ قسط من الراحة ، عوضاً عن الاضطلاع بمهام ترتيب شؤون الحكومة ، وكانت قوات الحملة العربية قد استلمت المباني الرسمية كما ان مقدمة الجيوش البريطانية قد وصلت إليها . فألح العقلاء على الشريف ناصر بالعودة حالاً الى السراي فعاد ومعه الامير سعيد وأخوه فتقاهما مع الشريف ناصر وابلغ الامير سعيد لزوم التزامه بيته إلا أنه لم يرتدع بسهولة فحنق عليه لورنس وقال له : ان هذا ما يرتأيه من يدهم الامر ، وان لم ترتعوا فان الشريف ناصر سيأمر القوى التي بامرته بالقاء القبض عليك ويجب أن تعلم بان القوى البريطانية أيضاً مستعدة لمساعدة القوى العربية لتأمين الهدوء والنظام في المدينة . فخرج حانقاً . وفي هذا اليوم السعيد كان الفرح يغمر سكان مدينة دمشق والاعلام العربية التي كنا أعددناها من قبل ترفرف في انحاءها . وكان هماً الوحيد في ذلك

اليوم تأمين الأمن ومنع رجال القبائل الذين رافقونا من أن يعمدوا الى السلب والنهب اللذين تعودوا عليهما في حياة البادية ، فطلبت الى كبير مراقبي الشرطة ان يبلغ جميع أفرادہ بالاستمرار على أعمالهم كالسابق وان يقوموا بواجباتهم فأجابني بان ذلك يتطلب سرعة تنقله وليس لديه ما يركبه فسلمته حصاني وقام بهذه المهمة على أحسن وجه ، لكن الحصان المسكين بعد أن أعيد إليّ قضى نحبه من شدة الارهاق . وكانت دوريات الجند في الشوارع الرئيسية تسهل مهمة الشرطة وقد وصل رضا الركابي بالوقت المناسب للسراي واستلم رئاسة الحكم وفقاً للقرار الذي كان تبلغه . وفي ١١/٣ غادر فيصل حوران ودخل دمشق فاستقبل بحفاوة لا نظير لها وحل ضيفاً في دار محمود بك البارودي في الشاذلية .

وبعد دخول فيصل دمشق استأذنه لورنس بالسفر وعاد الى بلاده . وكانت الحرب لم تزل قائمة ، لذلك صدر أمر الجنرال اللنبي قائد قوات الحلفاء بحالة ادارة سوريا الى سموه بصفته قائداً من قواد الحلفاء . وكان رضا باشا الركابي بالاتفاق مع هيئة ادارة الفتاة قد تسلم الادارة فيها لتخليصها من الفوضى بعد عودته للدمشق ، عقب دخول الجيش العربي ثم الانكليزي لها وانسحاب الجيش العثماني . وكان أول ما قام به اعلانه بان الجيش العربي بقيادة الامير فيصل العليا سيعدم كل من يجرؤ على الاخلال بالأمن ، وأمر بنصب مشنقة أمام دار الحكومة ، فاستتب النظام في دمشق للحال إذ كان أول واجب نسعى لتحقيقه ، هو استتباب الأمن وعودة أمور الدولة الى مجاريها الطبيعية .

وفي ٥ تشرين الثاني ١٩١٨ أصدر الامير بياناً عين بموجبه الركابي

حاكماً عسكرياً لسوريا وأقر آلنبي هذا التعيين الذي كان قائماً . وهذا
نص البلاغ المذكور :

الى أهالي سوريا المحترمين :

أشكر جميع السوريين على ما أبدوه من العطف والمحبة وحسن القبول
لجيوشنا المنصورة والمساعدة للبيعة باسم مولانا السلطان أمير المؤمنين
الشريف حسين نصره الله ثم ابلغهم المواد الآتية :

١ - تشكلت في سورية حكومة دستورية عربية مستقلة مستقلاً
مطلقاً لا شائبة فيه باسم مولانا السلطان حسين شاملة جميع البلاد السورية .
٢ - قد عهدت الى السيد رضا باشا الركابي بالقيادة العامة للحكومة
المذكورة نظراً لثقتي باقتداره ولياقته .

٣ - تتألف ادارة عرقية لرؤية المواد التي يحيلها القائد اليها . بناء
عليه أرجو من الاهالي الكرام المحافظة على الهدوء والسكون والطاعة
للحكومة الجديدة والالتقياد لأوامرها والاصفاء لتبليغاتها . وأبلغكم بأني
سأكون تجاه جميع الافراد المنضوين تحت لواء الحكومة العربية كأب
شفوق كما اني سأكون شديد العقاب على من يجراً على مخالفة أوامرها
والعبث بقوانينها وإيقاع العراقيل في سبيل سيرها ورقها . لذلك فاني
أمل من أهالي سوريا الذين برهنوا على محبتهم لنا بترحيبهم بنا أن
يكونوا مثلاً حسناً للطاعة والسكون حتى يثبتوا للعالم أجمع أنهم أمة
لائقة للاستقلال قادرة على ادارة شئونها بنفسها . وليعلم جميع الناس
أن حكومتنا العربية قد تأسست على قاعدة العدالة والمساواة فهي تنظر
الى جميع الناطقين بالضاد على اختلاف مذاهبهم وأديانهم نظراً واحداً

لا تفرق في الحقوق بين المسلم والمسيحي والموسوي فهي تسعى بكل ما لديها من الوسائل لتحكيم دعائم هذه الدولة التي قامت باسم العرب وتستهدف اعلاء شأنهم وتأسيس مركز سياسي لهم بين الاثمن الراقية . والله نسأل أن يوفقنا جميعاً الى ما فيه خير العرب واعلاء كلمتهم والسلام .

في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٦ الشريف فيصل

وصدر الامر بعودة جميع الموظفين الى أعمالهم كالمعتاد . إلا أن عدد رجال الأمن لم يكن كافياً فصدر الأمر بتعيين محمد علي التيمي أحد موظفي العدلية الاداريين بدمشق لمديرية الشرطة . وعينت لجنة لانتقاء أفراد الشرطة من المشهود لهم بالخلق الحسن والسمعة الطيبة . فانضمت الى تلك اللجنة لأن المصلحة كانت تقضي بالاسراع في العمل وتعيين عدد كاف من رجال الأمن إذ ان فيصل كان يرغب في أن يطارد الجيش العربي الجيش العثماني المنهزم لاجراجه من حدود سورية قبل أن يتمكن من جمع فلوله في الشمال ، وفي تنظيم فرقة بدوية محلية تنضم الى الجيش النظامي العربي فتواصل حركاتها في الشمال . وقد علمنا في تلك البرهة أن ياسين الهاشمي قد وصل الى دمشق مع فلول جيشه المنهزم في السلط ، وجرح في الطريق جرحاً بسيطاً في وجهه ، والتجأ الى أحد المنازل في الميدان ، فأسرعنا الى زيارته ، وانضم الى هيئة الفتاة الادارية التي كانت تجتمع بانتظام ، وتقرر الخطوة الواجب اتباعها وجميع الأمور الهامة ، وتنفيذها بواسطة الأمير والركابي اللذين هما من أعضائها .

وفي ٦ تشرين الاول عين الأمير شكري الايوبي حاكماً للساحل

السوري بعد أن أخلى الترك بيروت في ١ تشرين الاول ١٩١٨ وأعلنت المدينة انضمامها للحكومة العربية وحذت حذوها المدن الساحلية الأخرى فقصده شكري الأيوبي الى بيروت مع معاونه رفيق التيمي الذي عين ليساعده في تسيير الأمور السياسية والإدارية ، وكان جميل الأشي رئيس اركان حربه ، فرفع الأيوبي العلم العربي على السراي في بيروت في ٧ تشرين الاول وكان الأتراك قد جلوا عنها باتجاه رياق ، ومنها الى حمص وأخلوا حمص في ١٢ منه ليشكلوا خط دفاعهم في حلب .

ثم قصد الى لبنان وأعلن في بعبداء باسم فيصل إعادة امتيازاته التي ألغاه الأتراك الى سابق عهدها ، وعين حبيب باشا السعد متصرفاً على لبنان . إلا ان فرنسا احتجّت على ذلك احتجاجاً شديداً ، وطالبت بريطانيا بتنفيذ اتفاق سيكس - بيكو الذي يطلق يدها في إدارة الساحل السوري ومن ضمنه ولاية بيروت ولبنان . وأسّرت فأرسلت القوة العسكرية التي كانت اعدتها ، وانزلتها في الثامن من تشرين الاول ١٩١٨ في بيروت التي كانت محتلة بقوى بريطانية فقط . فأصدر الجنرال آلني في ٩ منه أمراً بتعيين (الكولونيل دي بياب) الافرنسي حاكماً على المنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة بالنيابة عن الحلفاء ، كما اصدر امره بانزال العلم العربي عن دوائر الحكومة فانزل باحترام عسكري ، ولم يرفع مكانه علم آخر . وقيل ان هذه الاجراءات ليست أكثر من تدابير عسكرية الى ان يبت في مصير البلاد بعد انتهاء الحرب . وبقي الأشي ورفيق التيمي ضابطي ارتباط للجيش العربي في بيروت بعد أن عاد الأيوبي لدمشق . وقد زار الجنرال آلني فيصل في دمشق وأطلعه على الخطة التي

ستتبع في ادارة البلاد الى ان يعقد الصلح مع الترك ويتقرر مصيرها نهائياً . وخلاصة هذه الخطة هي انشاء حكومة عسكرية عربية تبدأ من حدود الحجاز وتضم شرقي الاردن ودمشق وحمص وحماء وحلب ويكون على رأسها الأمير فيصل باسم القيادة الخليفة ومرجعه اللورد آلني . وعين الكولونيل كورنواليس ممثلاً لآلني والكولونيل كوس ممثلاً للفرنسيين لدى الأمير لتأمين حسن التفاهم معهم .

أما الساحل السوري فسيديره باسم الجيش الخليف ضابط فرنسي وفلسطين ضابط بريطاني وهو الميجر جنرال ارثر موني . وقيل ان هذا الوضع لن يطول كثيراً وسينتهي بعد عقد الصلح مع الترك . لكن وضع الساحل وفلسطين الذي ابلغ للأمير لم يرضه فوجد الأمير نفسه امام مصاعب عظيمة في سورية بسبب اشتباك المصالح الدولية بشأنها وعزم فرنسا وانكلترا على تنفيذ ما تم الاتفاق بينهما بخصوص الساحل السوري وفلسطين .

وكان الأمير فيصل وأهل البلاد جميعاً لا يقبلون بغير الاستقلال والوحدة ولا يريدون بهما بديلاً ، الأمر الذي جعل مهمة الأمير شاقة متعبة بالمصائب والاشواك ثم ان هذه الخطة لم تترك للسوريين أي ميزة في الوظائف والاعمال العامة على غيرهم من أهل بقية البلاد العربية كالفلسطينيين والعراقيين . هذا ولم يتأخر الاقطاعيون واكثر من ينعتون انفسهم بأبناء الذوات الذين يستندون على التزلف للحكام عن استغلال هذا الوضع لتأمين منافعهم وتقوية نفوذهم على حساب الشعب ، فسمعوا سعيهم لتفريق وحدة الامة احوج ما تكون اليها للوقوف في

وجه التيارات والمطامع الاجنبية التي تتجاذب الوطن متذائبة لاستعمارها
بعد تمزيق وحدته .

وكان الجنرال فون ساندروس باشا يبذل قصارى الجهد لجمع شتات
ما تبقى من الجيوش التركية المتراجعة بادىء ذي بدء في رياق فلم يتوفق .
لكنه توصل بعد ذلك الى تأليف قوتين كل منهما تعد خمسة آلاف
مقاتل ، وأمر احدهما وكانت بقيادة مصطفى كمال باشا بصدد القوى الخليفة
في مشارف المعرة ، وتجمعت الثانية في شمال حلب . وفي ١٩ تشرين الاول
دخلت القوات الانكليزية وفي مقدمتها قوة عربية غير نظامية الى حماه
ولكنها لم تتمكن من التقدم إذ لاقى مقاومة عنيفة من القوات التي تحت
قيادة مصطفى كمال ، فاستنجدت قوة العقيب البريطانية بفيصل ، فأسرعت
الحملة العسكرية العربية بقيادة علي جودة لمعاونتها مع جموع المتطوعين
العرب ، فدخلت حماه ثم تمكنت القوى العربية بمساندة السيارات
المدرعة الخليفة في ٢٣ منه من التغلب على القوى التركية في تول المعرة
وابو الضهور بقيادة تحسين علي بسبب مرض علي جودة واضطراره للبقاء
في حماه ، وزاد عدد القوة العربية بما انضم اليها من عرب الشمال .
وفي ٢٤ تشرين الاول كانت حلب تعج بالعرب المسلحين الذين ينتظرون
المهجوم ليشتروا به . وفي ٢٥ منه هاجمت قوى الامير التي استلم
قيادتها نوري السعيد حلب وبرغم المقاومة التي أبدتها قوى مصطفى كمال
فقد تغلبت عليها القوات العربية واستولت على دار الحكومة مساء ٢٥
تشرين الاول بعد أن انضم اليها كل من تمكن من حمل السلاح من أهل
المدينة ، الأمر الذي اضطر مصطفى كمال الى اخلاء مدينة حلب ومشارفها
بسرعة فدخلتها على الاثر القوى البريطانية أي في ٢٦ منه . وكانت

الدولة العثمانية قد عقدت الهدنة مع الحلفاء وساد الاعتقاد بأن حالة الحرب قد انتهت مع الترك ولم يكن احد يعتقد ان الصلح معهم لن يتم إلا بعد أربع سنوات . وفي هذه المدة ظلت سوريا معتبرة جزءاً من اراضي العدو المحتلة . وقد استلم الجيش العربي زمام الامور في حلب . وفي ٣٠ منه كان استلم مصطفى كمال القيادة من الالمان في كليشيا . وعين الامير شكري باشا الايوبي حاكماً مؤقتاً لحلب .

وهكذا تم الاستيلاء على سوريا ، وانضم لخدمة الحكومة كافة الموظفين العرب الذين وجدوا فيها أو تمكنوا من الوصول اليها من سوريين وفلسطينيين وعراقيين وكل الضباط العرب الذين كانوا في خدمة الجيش التركي وانسحبوا منه ، فارتأى ياسين باشا بالاتفاق مع رضا باشا تحت ضغط الظروف ، حل جيش الشمال الذي دخل دمشق ظافراً بقيادة فيصل بعد جهاد مرير ، واجراء تشكيلات جديدة للجيش ، فعين الامير ياسين باشا الهاشمي رئيساً للشورى العسكرية ، ودخل جميع الضباط في خدمة الجيش ، وشكلت ثلاث فرق : فرقة في حلب ، وواحدة في دمشق ، واخرى في درعا . وعين جميع الموظفين العرب القادمين الى سورية في وظائف الدولة التي شغرت بمناسبة نزوح الموظفين الاتراك من البلاد . ولما لم يبق وظيفة لفائد الجيش الشمالي جمعفر باشا العسكري الذي حارب بامرة فيصل من الحجاز الى العقبة الى قبيل دخول دمشق اذ كان مجازاً في مصر في تلك الايام للتداوي والاستجمام ، فقد صدر الامر بعد وصوله لدمشق بتعيينه حاكماً لحلب محل حاكمها الموقت وسمي نوري باشا السعيد رئيساً لمرافقي الامير بعد أن تتوج جهاده ورفاقه

بالتوفيق باستلامه زمام الامور في حلب وعمله لتعود أعمال الدولة فيها الى حالتها الطبيعية .

وان انتهاءنا لهذه النتيجة السعيدة جعلنا نخفف من قيود قبول الاعضاء في الفتاة . وارتأينا أن كل من كان يليق لاستلام عمل هام في الدولة الناشئة يستحق أن يكون عضواً من أعضائها . وبذلك أصبح أكثر المتربعين في الوظائف الرئيسية في الحكومة من أعضائها . وبالنظر لكثرة الاعضاء روي أن يقسموا الى قسمين : فمن دخل في الفتاة قبل دخول الجيش العربي لدمشق اعتبر عضواً أساسياً ، وله الحق بمعرفة جميع الاعضاء ، وان ينتخب الهيئة الادارية في كل سنة وقوامها سبعة أعضاء وكانوا اذ ذاك ياسين بلشا الهاشمي وشكري القوتلي ورستم حيدر وعزة دروزة ورفيق التميمي وتوفيق الناطور والدكتور قدرى . ومن دخل في الفتاة بعد دخول الجيش العربي دمشق اعتبر عضواً عادياً . ثم لم نكتف بذلك بل رأينا أن يكون لنا مظهر خارجي يعمل كحزب سياسي في البلد . فأسسنا حزب الاستقلال ، وأنيط أمر الاشتغال به حسب توجيهات الهيئة الادارية ، بتوفيق الناطور ، وانتخب سكرتيراً مساعداً للحزب المحامي سعيد الغزي ، فنتج عن حسن التفاؤل الذي ساد الموقف نتيجة لم تكن مفيدة للوطن سيما بعد أن تقوض الحكم الوطني في سورية سنة ١٩٢٠ . إذ لم تعد هنا أي رابطة قوية تربط أعضاء الفتاة في الوقت الذي كان يجب أن يستمر نضالها بتضحية واتحاد كالسابق . فأمر هذا الوضع على من لم يكن منسباً للجمعية ممن اعتادوا الواجهة من أهل الشام وعلى من كان يرغب في الوظائف ولم ينلها بسبب العهدة بها لمن هو أحق منه من شباب العرب فتشكلت جهة ضعيفة تناوى الحكم القائم ،

لكن فيصل وجد في المثقفين من أبناء الشعب تقديراً ومساعدة . وفي ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ صدر تصريح انكليزي - فرنسي يطمئن أهل البلاد على مستقبلهم بعد القلق الذي ساورهم نتيجة لعدم تحقيق رغباتهم وهذا نصه :

« ان السبب الذي من أجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق تلك الحرب التي أهاجتها مطامع الالمان ، انما هو لتحرير الشعوب التي رزحت اجيالاً طوالاً تحت مظالم الترك تحريراً تاماً نهائياً واقامة حكومات وادارات وطنية ، تستمد سلطتها من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً . ولقد أجمعت فرنسا وانكلترا على أن تؤيدا ذلك بأن تشجعا وتعيينا على اقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في سورية والعراق والمنطقتين اللتين أتم الخلفاء تحريرها وفي الاراضي التي مازالوا يجاهدون في تحريرها ، وأن تساعد هذه الهيئات وتعرف بها عندما تؤسس فعلاً ، وليس من غرض لفرنسا وانكلترا ان تنزلا أهالي هذه المناطق الى الحكم الذي تريدهانه ولكن ههما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الاهلون من ذات أنفسهم ، وأن تضمن لهم عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد باحياء مواهب الاهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية . تلك هي الاغراض التي ترمي اليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة » .

وقد أراد بعض من لا يفقهون المعاني المستترة خلف البيانات السياسية

الرنانة العذبة من مدعي الوجاهة أن يعدوا هذا التصريح مستنداً رسمياً واعترافاً بنيل البلاد العربية المنفصلة عن تركيا استقلالها . الا انني ، نظراً لاقامي مدة طويلة في باريس واطلاعي على طراز المساعدات التي يعلنون انهم يسدون بها المغرب الأقصى والجزائر وتونس والتي لم يكن من شأنها إلا استبعاد أهالي تلك الاقطار ، فقد اعتبرت هذا التصريح كارثة قاصمة ، لانه اشتمل على المعونة والمساعدة من انكلترا وفرنسا للحكومة العربية التي وضعنا أسسها في دمشق لا الاعتراف باستقلالها التام . وقد ذكرت في هذه الاثناء ذلك الاعلان الذي نشر في جميع محطات السكك الحديدية والترام في باريس يوم كنت فيها . وقد جاء فيه وجوب استصلاح الاراضي الزراعية في الجزائر من واردات الحكومة المحلية ، وكان من شروط شراء هذه الاراضي أن يكون الراغب افرنسياً مستعمراً ، أي لا يحق لاحد من الجزائريين أن يملك ما هو بحاجة اليه من هذه الاراضي . فأين العدل ؟ وهل هذا نمط المساعدة التي يعلنون عنها ويمنون بإسداؤها على أهل تلك البلاد ؟ لذلك بحثت « الفتاة » هذا الأمر وقررت أن تعلن أن البلاد متمسكة باستقلالها التام ووحدتها وفقاً للاسس التي قامت عليها ثورة الحسين العربية الكبرى ، وأيدتها البلاد كلها في قرارها هذا رغم تقولات الجبهة المعارضة الضعيفة .

وكان الأخ شكري القوتلي يعضدني بشدة لاسكات صوت جهة الذوات المعارضة ، إذ كنا نحن الاثنان من هيئة الفتاة الادارية اللذان يسعهما الاضطلاع بذلك بنجاح .

* * *

وبعد أن استقرت الامور في العاصمة رغب الامير في زيارة حلب

عاصمة الشمال برفقة نخبة من شباب دمشق الوطنيين فغادروا دمشق الى زحلة ومنها الى بعلبك فحمص فحماه ووافوا الامير في معرة النعمان ، إذ لم تكن السيارات حينئذ متوفرة حتى يسافروا سوية . وقد غادر الامير فيصل دمشق بالسيارة في ٤ تشرين الثاني وبمعيته الدكتور أحمد قدري ومرافقه فزار حمص ثم حماه حيث حل فيها ضيفاً على آل العظم القديم ، وكان استقباله على طول الطريق استقبالا شعبيا حافلا بمظاهر التأييد وعرافان الجليل . ولحظ سموه في حماه شعاع نهضة شعبية من أم مظاهرها الاهتمام بنشر التعليم بين أبناء الشعب ، فاستنهض همم الاهلين لجمع التبرعات ونشر العلم ، فجمع في جلسة واحدة أربعة آلاف ذهبة ، ووعد الاهلون الامير بجمع ثمانية آلاف جنيه أخرى لسد هذا النقص تيمناً بزيارته لمدينتهم . وفي مساء الخامس من تشرين الثاني وصل الامير لمعرة النعمان فاستقبل أيضاً بالهتافات والزغاريد ، وأعد السيد الحراكي لسموه سماعاً عظيماً ، وقضى ليلته في ضيافته . وفي اليوم الثاني دخل حلب تواكبته هذه النخبة الممتازة من الشباب الدمشقي ، فاستقبلته الشبابة بشيبيها وشبابها ونسائها وأطفالها وكانت الهتافات والزغاريد تشق عنان السماء والورود والرياحين الملقاة على الامير تملأ الطرقات .

وشرع الامير فيصل في تنظيم ادارة شؤون عاصمة الشمال وتوثيق عرى المحبة ، والعمل على الوثوق من اعتمادهم عليه . وقد أقيم له في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ اجتماع حافل لاطهار تعلق الحليين به ولتلقى توجيهاته في نادي العرب الفسيح فألقى فيصل في الاجتماع أول خطاب سياحي ممتع له وهذا نصه بعد المقدمة :

... خرج الاتراك من بلادنا ونحن الآن كالطفل الصغير ليس لنا

حكومة ولا جند ولا معارف ، والسواد الاعظم من الشعب لا يفقه معنى الوطنية والحرية ، ولا ما هو الاستقلال حتى ولا شيء يذكر من كل هذه الامور ، ذلك نتيجة ضغط الاتراك على عقول وأفكار الامة . لذا يجب أن نفهم هؤلاء الناس قدر نعمة الاستقلال ونسعى ، إن كنا أبناء أجدادنا ، لنشر لواء العلم ، لأن الأمم لا تعيش إلا بالعلم والنظام والمساواة ، وبذلك نحقق آمالنا وآمال حلفائنا .

أنا عربي ، وايس لي فضل على عربي ولو بمنقال ذرة . اتني وفيت واجبي الحربي كما وفي والدي واجبه السياسي فانه تحالف وتعاهد مع أمم متمدنة بدأت توفي بعبودها ولا تزال تساعدنا على تشكيل حكومة منتظمة ، فعلينا ابراز هذه الامنية الى حيز الوجود بكل الحزم والعزم لأن البلاد لا يمكنها أن تعيش بحالة فوضى ، أي بلا حكومة . وهذا واجب في ذمة الامة وأهل البلاد ، ونبرأ الى الله مما يحصل لهذه البلاد بعد اليوم . أنا ومن معي سيف مسلول بيد العرب يضربون به من يريدون .

أحض اخواني العرب على اختلاف مذاهبهم بالتمسك بأهداف الوحدة والاتفاق ونشر العلوم وتشكيل حكومة نبيض بها وجوهنا ، لاننا اذا فعلنا كما فعل الاتراك نخرج من البلاد كما خرجوا لاسمح الله ، وان فعلنا ما يقضي به الواجب يسجل التاريخ أعمالنا بمداد الفخر . اتني أقل الناس قدراً وأدناهم علماً لا مزية لي إلا الاخلاص .

اتني اكرر ما قلته في جميع موافقي بأن العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد ، وان الديانات تأمر باتباع الحق والاخوة على الارض .

وعليه فمن يسمى لابقاع الشقاق بين المسلم والمسيحي والموسوي فما هو بعربي .

إننا عرب قبل كل شيء وأنا أقسم لكم بشرفي وشرف عائلتي وبكل مقدس ومحترم عندي بأنه لا تأخذني في الحق لومة لائم ، ولا أحجم عن مجازاة من يتجرأ على التفرقة ، فلا أعتبر الرجل رجلاً إلا إذا كان خادماً لهذه التربة .

عندنا والحمد لله رجال أكفاء كثيرون ولكنهم مقيمون خارج الديار وفي بلاد الأتراك ، وسيأتون قريباً إن شاء الله فيصلحون الخلل الموجود هنا ، ولا يجدر أن نتقاعس عن العمل ريثما يأتون ، فما لا يدرك كله لا يترك جله ، ويلزم علينا أن نبتدىء بدون أن ننظر للمرء من حيث شرف عائلته وخصوصيته بل ننظر إلى الرجل الكفء وحيهاً كان أو وضعياً إذ لا شرف إلا بالعلم . الإنسان بخطي . فإذا أخطأت ساعحوني وبينوا لي مواطن خطئي .

وبما أن أغلب الأفراد يجهلون قدر نعمة الاستقلال كما بينت لكم فلا يبعد أن يحصل في بعض الحالات ما يخل بالأمر فالحكومة مجبرة على تطبيق معاملاتها على القانون العسكري العرفي مدة الحرب ريثما يتم تشكيل حكومة منتظمة .

أرجو اخواني أهل البلاد أن ينظروا إلى الحكومة نظر الولد البار للوالد الشفوق ويساعدوها جهد طاقتهم ، ويعلموا أن الحكومة مشرفة على أعمال الأفراد والموظفين .

إن الحكومة في طورها الجديد بحاجة لايجاد قوة تحفظ كيانها ،

فكل من يعبث بأوامرها ويخل بمقرراتها يستهدف ايدها القوية ، ولاجل حفظ الاستقلال ليس لي إلا أن أدعو أهل البلاد للاهتمام الزائد بتكوين حكومة ثابتة الاركان متينة الجانب .

الدرك والشرطة هما قوام البلاد وبدونهما لا تنتظم أحوال الحكومات . لذلك أطلب من الجميع وخصوصاً الشبان أن ينتظموا بهما وأن لا يتأخر أحدهم عن خدمة وطنه وبلاده بدون نظر لموقعه العائلي بقيامه بتلك الخدمة . ان الشرطة وظيفة شريفة عالية وان الانسان يتولى كل عمل في داخلته وبيته حتى لنجد رب البيت يكنس داره بيده ولا يرى بذلك استخفافاً . وستكون القوانين السابقة مرعية الاجراء الى أن يتم سن القوانين من قبل المجلس الأعلى ، أي مجلس الأمة .

الحكومة الحاضرة تحفظ الأمن والنظام ريثما تتعين هيئات الحكومة الجديدة .

العرب نحل وشعوب مختلفة باختلاف الاقليم ، فالخليجي ليس كالجزائري والشامي ليس كالبحيني ، ولذا قرر والذي أن يجعل البلاد مناطق تطبق عليها قوانين خاصة متناسبة مع أطوار وأحوال أهلها . فالبلاد الداخلية يكون لها قوانين ملائمة لموقعها ، والبلاد الساحلية أيضاً يكون لها قوانين طبق رغائب أهلها .

كان من الواجب علينا أن نبتدى أولاً بجمع الهيئة التي تسن هذه القوانين ، ولكن العرب الذين هم في البلاد الخارجية هم أعلم منا بالقوانين الأكثر ملائمة للبلاد ، ولذلك نرجى هذا الأمر الى وقت اجتماع هؤلاء ، وفي أقرب وقت يصلون ان شاء الله . ان الذين استدعيتهم من الخارج رجال قديرون على وضع قوانين صالحة ملائمة لروح البلاد

وطبائع أهلها . وسيكون اجتماعهم في دمشق أو غيرها من البلاد العربية لعقد مؤتمر ، وسأنظر بأعجل وقت بشؤون الاوقاف والكنائس ورد حقوقها المنصوبة من قبل الاتراك وأعطي كل ذي حق حقه .

وأطلب من اخواني أن يعتبروني كخادم للبلاد ، إنكم قد أعطيتُموني البيعة بمنتهى الاخلاص والرضى فأقابلها بالقسم العظيم أي لا أفتر عن نصرة الحق ورد الظلم وعمل كل ما يرفع من شأن العرب . وأرغب الى الاهالي أن يؤازروني بالعمل في خدمة اجماعية الى أن يلتئم مجلس الامة فأقول حينئذ هذه بضاعتكم ردت اليكم .

ان حلب خالية من المدارس فأتى لها مستقبلا علمياً باهراً كما كانت عليه بالتاريخ وأرجو أخيراً صرف الهممة والنشاط لأشرفين مهمين : (١) حفظ النظام العام . (٢) ترقية المعارف . فوالله لا يمتاز أحد عندي إلا بفضلته وعرفانه .

عند مروري من حماه استنفذت همه الاهالي بكلمات وجيزة للعناية بالعلم وافتتاح المدارس . وبجلسة واحدة تبرع بضعة أشخاص بأربعة آلاف جنيه ، ووعد الآخرون بإبلاغها حتى (١٢) ألف جنيه . وسأستدعي حضرات الاهالي بحفلة خاصة للعناية بهذا المشروع الهام ، مشروع العلم روح البلاد . نسأل الله تعالى أن يوفقنا لخدمة البلاد ونفع العباد ويمتدح الامة بالحياة الرغيدة والسلام .

السفر الى باريس :

ولم تطل اقامة الامير في حلب إذ وصلت اليه برقية من والده الملك

حسين ليمثله في مؤتمر فرساي ، ضاحية باريس الشهيرة . فاعتذر فيصل
بإدى ذي بدء عن قبول هذه المهمة لأنه ليس لديه نصوص العهود المعطاة
لوالده من بريطانيا بشأن استقلال البلاد العربية التابعة لتركيا بعد انتهاء
الحرب ، فأرسل اليه الملك حسين يقول له بأن نصوص هذه العهود
موجودة في وزارة الخارجية البريطانية فلا حاجة لارسال نسخة عنها له
كأن هذه الامور السياسية الهامة تحل بسهولة ، والعهود والمراسلات
السياسية لا يمكن مخالفتها أو تحوير مفهومها — وقد وقعت المخالفة فعلاً
عندما طالب فيصل رئاسة الوزراء ، لدن وصوله الى لندن بتنفيذ العهود
المقطوعة للعرب — أي ان تحقيق ماتم الاتفاق عليه مع بريطانيا ، هو
في نظر الحسين من الامور المسلم بها شأن عهد يعطيه هو ، ولا يدور في
خلده أبداً عدم البر به شأن معاملات أمراء ورؤساء شيوخ العرب .
فاضطر فيصل لقبول المهمة . وأتاب عنه أخاه زيد لرئاسة الدولة .

وغادر الامير حلب في ١٨ تشرين الثاني الى طرابلس عن طريق
حمص ، وما كان استقبال الفيحاء له بأقل من غيرها من المدن السورية
روعة ، وأضافه فيها عبد الحميد كرامي مفتيها وزعيمها الكريم ، وكانت
جميع الخطب التي أقيمت ترمي الى أن طرابلس جزء لا يتجزأ من سوريا
وانها ميناؤها الطبيعية وقد أنابت الامير عنها في تحقيق ذلك .

ووصل الامير لبيروت في ١٩ تشرين الثاني سنة ١٩١٨ واستقبله
الشعب البيروتي ورجالاته بحفاوة بالغة ، وكان قائد الفيلق الحادي والعشرين
البريطاني الجنرال بولفين في مقدمة مستقبليه . وأبلغه أنه أعد له قصر
سرسق الكبير الذي يسكنه لينزل به ، وهرعت رجالات دمشق لبيروت
لوداعه وزود حكومة دمشق بتعليماته .

ثم أبحر الأمير من بيروت في ٢٢/١١/١٩١٨ على مركب حربي بريطاني صغير اسمه غلوسستر وبصحبه رئيس مرافقيه توري السعيد ورئيس ديوانه رستم حيدر وكاتبه الخاص فائز الفصين ومرافقه الخاص أخي تحسين ، وكاتب هذه المذكرات بوصفه طبيباً الخاص ومستشاره .

ولما كانت القيادة الخليفة العليا في سوريا بريطانية فهي التي قامت بتدبير رحلة الأمير وفق تعليمات لندن ، فلم يرق ذلك لفرنسا واحتجت لدى الملك حسين على عدم أخذ رأيها في ذلك .

وعند وصول سموه الى مرسيليا في ٢٦/١١/١٩١٨ ، استقبل استقبالاً رسمياً من قبل السلطات المدنية والعسكرية فيها ، إلا أننا لاحظنا أن الحكومة الفرنسية وضعت الخطة لاستقباله بصفته أميراً حجازياً ونجل ملك الحجاز الذي اشترك في الحرب مع الحلفاء ، جاء ليزور فرنسا . وبما ان انكلترا هي التي اضطلعت بمهمة سفر الأمير ، فبطبيعة الأمر لم يستشر ممثل فرنسا المسيو جورج بيكو في ذلك لأن الجنرال آلبي هو القائد الأعلى للحلفاء في سورية . ومع ذلك لم يرق لفرنسا هذا التصرف فأبلغت ممثلها في جده الكولونيل كوس ، الملك حسين ، استغراب فرنسا لهذا العمل وعدم إمكان اعتبار نجله مفوضاً بمهمة سياسية الى فرنسا . وكانت الصحف الفرنسية تلقبه بالأمير الحجازي ، منكراً عليه الاعتراف بأنه جاء الى مؤتمر السلم ليشترك فيه كقائد عربي حليف دخل سورية دخول الظافرين على رأس جيشه مع الجيش البريطاني ، وأن له اليد الطولى في انتصارات الجنرال آلبي في جهة فلسطين إذ كان يحمي جناح جيشه الأيمن . وقد اعترف له بذلك القائد الانكليزي بصراحة تامة . وتناست فرنسا ، وصحفاً من وراء مطامعها ، أن القوى العربية من القوة بحيث

كانت تؤلف ما يقرب من ثلث الجيش العثماني المخصص للحرب في جبهة فلسطين والحجاز ، كما أن من خطورة ثورة الحسين انها جعلت الجيش التركي في بلاد مستطير وتلقاء جم من العراقيين لأنه راح يحارب وكأنه في بلاد عدوه ، الأمر الذي شعرت به القيادة الألمانية وأشارت الى خطره وصعوبة اجراء الحركات العسكرية في مثل واقعه ، بل هي نصحت بالانسحاب من فلسطين قبل الهجوم البريطاني الكبير في ١٩/٩/١٩١٨ الى خط أقرب للحدود التركية لتلافي الخطر .

وكانت الخطة التي سلكتها الحكومة الفرنسية إحاطة الأمير بجميع مظاهر التكريم والتبجيل بغية التأثير في نفسه وسيراً على السياسة التي تتبعها في شمال افريقية . ثم إقصاؤه عن الاشتراك في مؤتمر الصلح في فرساي ممثلاً للعرب بالمؤتمر . فأعد لسموه صالون خاص أقله وحاشيته الى ليون ليحضر الجبهة الغربية ، فاستقبل في ليون في ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٨ استقبالا عسكرياً ، وكانت جنود الخيالة بأبواقها تحييه من المحطة حتى فندق ترمينوس الكبير الذي نزل به .

وقد التحق بالأمير في ليون الكولونيل بريمونت ممثل الحكومة الفرنسية في جده ليمثل حكومته لدى فيصل وحده ، عوضاً عن لورانس الذي التحق بالأمير في مارسيليا كممثل للحلفاء . فأغضب ذلك فرنسا فأبلغته العدول عن مرافقة الأمير ، في ليون ، واستعاضت عنه ببريمون . وكان سمو الأمير بارتدائه الملابس العربية ، وعلى رأسه الكوفية والعقال ، وبوجهه السموح المستطيل يوحى الى كل من يشاهده بنبالته وسموه وجاهته ، ويستميل اليه الافئدة والقلوب ، بل ان كثيراً من رجال الغرب المرموقين راح يشبهه بالسيد المسيح .

وواصل موكب الامير سفره من اميون مساء ٣٠ تشرين الثاني الى
أن بلغ بلنور في الصباح ، وكان بين مستقبله السيد قدور بن غبريط .
ووصل الى استراسبورغ في السادسة مساء .

وقد زار الامير أثناء الطريق جبهة القتال في فردون ، وكان الضباط
الفرنسيون الذين عهد اليهم أن يرافقوه يشرحون له تفاصيل المعارك
الطاحنة وما أبلاه الجيش الافرني في مقاومة الالمان بقيادة الماريشال
بيتان ، وان المدينة التي أصبحت أطلالاً لا كبر شاهد على ذلك .

والواقع ان مدينة ستراسبورغ عبارة عن قلعة جميلة لا مثيل لها في
حينها من حيث التحصينات القوية ، فالمدافع الضخمة لم تكن تشاهد
من على سطح الارض وانما كانت أفواها هي البارزة فقط استعداداً
لصب الحمم ، وهي محفوظة في أبراج فولاذية متحركة . وكان سكان
المدينة جميعاً تقريباً لا يتكلمون إلا الألمانية . وقد شاهدت في أحد
المقاهي جوقة موسيقية تعزف ألحاناً شجية وعند انتهاء العزف عرفت
(مارش المارسيليز) فلم ينهض لتحيته واحترامه أحد ، فما كان من
العسكريين الموجودين هناك الا أن أعمالوا فيهم الركل بالاقدام اكراها
لهم على القيام احتراماً لنشيدهم القومي .

ومما لاحظت أيضاً أن بعض سكان المدينة كان ينظر نظرة الاستغراب
الى بائعي المأكولات والفواكه الفرنسيين ، اولئك الذين تحولوا من
القرى الافرنية المجاورة لبيع سلعمهم في الميادين العامة . ثم ما ينتجه
عملهم من اطراح بعض الفضلات من المأكولات على الارض ، مما
لا عهد للسكان بمثله .

وفي ستراسبورغ قلدت الحكومة الفرنسية سمو الامير وسام جوقة الشرف الاكبر باحتفال عسكري مهيب كان يترأس عليه الجنرال غورو . ومن ستراسبورغ دعي سمو الامير لزيارة فيسبادن ، وهي من أجمل مدن الاستحمام الالمانية . ومنها الى فرنكفورت . وكانت خطة قيادة الجيوش الخليفة التي رأسها المارشال فوش هي اطالة اقامة الامير في مدن الجبهة وفقاً لتعليمات وزارة الخارجية الفرنسية ليكون بعيداً عن باريس التي سيفتح بها مؤتمر السلم ، وما قدم الامير إلا ليشارك به ويطالب بحقوق العرب في استقلالهم وفقاً لليهود التي قطعت لجلالة والده الملك حسين ، وجرياً مع مبادئ الرئيس ولسون الامريكي .

وكان سمو الامير قد اتقنه لما دُيّر حوله من مؤامرة ، وذلك من خلال أحداث الكولونيل لورنس قبيل مغادرته لفرنسا بناءً على طلب من وزارة الخارجية الفرنسية . . . أدرك أن الحكومة الفرنسية غير راغبة في اشتراكه بمؤتمر الصلح مندوباً عن جلالة ملك الحجاز الذي حارب في صفوف الحلفاء ، وأن بريطانيا لا تشاركها هذا الرأي ، وإن كانت الشبهة تدور بها هي نفسها في تحقيق ما وعدت به العرب ، الأمر الذي حدا بلورنس أن يعيد الى الحكومة الفرنسية والى حكومته جميع الاوسمة التي كان يحملها احتجاجاً على اخراجه من فرنسا أولاً ثم على عدم تحقيق ما كان يمني به فيصل والملك الحسين من نتائج اشتراك العرب في الحرب مع الحلفاء ونيلهم حقوقهم كاملة .

واتجه فيصل الى الحكومة البريطانية يستوضحها عن صحة نوايا فرنسا فوصل اليه الرد مؤيداً ، وذلك الى فرنكفورت التي كان يحتلها الجيش البريطاني . وللحال قرر السفر الى باريس رغم ان برنامج زيارته لما ينته

بعد ، وكان من المقرر أن يكون الأمير ضيفاً أيضاً في منطقة الاحتلال الأمريكية على الجنرال برشنغ قائد القوات الأميركية في ألمانيا ، لكنه اعتذر مغيراً برنامج الزيارة ، واكتفى بتناول الغداء على مائدته . ولم ينظر الجنرال الى ذلك بعين الرضى سيما وهو عسكري كبير ولا يعرف ما يحاك من مؤامرات السياسة لاجباط مطالب العرب التي كانت يمثلها الأمير فيصل .

وطلب الأمير من الكولونيل ريمون ابلاغ قراره بالشخص لباريس حلاً للحكومة الفرنسية مضيقته ، فاستجاب الكولونيل لرغبة الأمير ، وأبلغه في اليوم الثاني نص البرقية الآتية : لقد حدد رئيس الجمهورية مقابلة الأمير في ٧ كانون الاول عند الساعة الخامسة ، واتخذت كافة الاسباب لوصوله بسرعة الى باريس حسب رغبته .

وتمت مقابلة الأمير ومعيته لرئيس الجمهورية بالميعاد المحدد . ولكن من المؤسف أن يكون كلنصو قد اتفق مع لويد جورج على التنازل لبريطانيا عن كون الموصل منطقة نفوذ اقتصادي فرنسي وفقاً لاتفاق سايكس - بيكو لقاء تأييد بريطانيا مطالب فرنسا في سورية ، قبيل ذلك التاريخ . فكان هذا الاتفاق ضربة قاصمة لآماني العرب الوطنية كما سيأتي ذكره .

وحجز اسمو الأمير في باريس جناح خاص في فندق الكوتنتنثال . وكان أول ما فكرت به في باريس هو التحري عن صديقي وزميلي في جمعية الفتاة السيد عوني عبد الهادي الذي لم يتمكن من مفادرة باريس قبل اعلان الحرب العامة ، وانقطع اتصاله بالوطن ، فذهبت تواء الى « البنسيون » الذي كنت اسأكنه فيه وهو يحمل رقم ٦ بشارع الاستراباد ،

خلف الباتيون . ولكنني علمت انه انتقل الى نزل صغير مجاور ، وأنه قاضي كثيراً أثناء الحرب حتى اضطر أن يكون مناظراً للأولاد الصغار في إحدى المدارس الابتدائية . ولكنه حافظ دوماً على مبادئه القويمة ولم يقبل أية اعانة تلقاء ترويضه دعاية فرنسا في حق الاشراف على سورية . فاستصحبته الى فندق الكونفنتال حيث اجتمعنا ومحمد رستم حيدر على الذكريات الماضية . ومما فهمناه منه ان فرنسا جادة في تحقيق رغبتها بأن تكون لها الكلمة العليا في سورية ولبنان وأن تكون المشرفة على شؤونهما بأي شكل كان ، وانها أوجدت في باريس ومصر والمهجر الاميركي أحزاباً وجمعيات سورية تعمل بإحياء منها وعلى نفقتها برئاسة شكري غانم للبنان ، والدكتور جورج سمحه لسوريا . وعلى الاثر قدمته لسمو الامير كأخ صادق بالفتاة ، فاستقبله استقبالاً حسناً وألحقه بمعيمته .

السفر الى لندن :

وسمى سمو الامير جهده لتحقيق الغاية التي أتى باريس من أجلها وهي الاشتراك بمؤتمر الصلح ، فألقى حياله معارضة شديدة من الحكومة الفرنسية ، ولذا عزم على السفر الى لندن لمفاوضة الحكومة البريطانية ومطالبتها بتحقيق الوعود التي قطعتها لوالده الملك حسين باسم العرب .

وفي ٩ كانون الاول ١٩١٨ غادرنا باريس الى بولون . وقابلنا في الميناء عند المساء الكولونيل لورنس ، ثم ركبنا الباخرة قاصدين البر البريطاني . وعند وصولنا الى لندن حللنا ضيوفاً على الحكومة البريطانية في فندق كارلتون أفخم فنادق لندن . وكان الكولونيل لورنس لا يفارق الأمير ، ويسهل كل ما يحتاج اليه . ولقد أحاطت الحكومة البريطانية

سمو الأمير بكل مظاهر الحفاوة والاحترام ، ولم تتأخر عن تهيئة مقابله
لملك الانكليز . وقد رافقه خلال المقابلة الكولونيل لورنس للترجمة ،
وكان يلبس اللباس العربي برغم ان البروتوكول البريطاني لا يجيز مثول
الضباط البريطانيين لدى الملك بغير زيهم العسكري . وكانت غاية لورنس
من ذلك مراعاة شعور الأمير لأنه كان يقابله دوماً بالزي العربي ، ولم
يكن له بد من مرافقته لأنه كان مكلفاً بالترجمة .

هذا ولما طلب الأمير الى الحكومة البريطانية تحقيق العهود المعطاة
للعرب بواسطة الملك حسين ، وفقاً للنصوص المحفوظة في وزارة الخارجية
البريطانية واعطاءه صوراً عن نصوص عهودها للملك حسين ليجري
البحث على أساسها ، أجابته بالمطالبة ، وتلكا الموظفين البريطانيون في
تحقيق مطلبه كثيراً .

وفي ١٣ كانون الاول ١٩١٨ وصل الرئيس ولسون الى برست ،
فاستقبل في باريس وفي لندن استقبال الفاتحين العظام . وقد رأيت لندن
تهب بقضها وقضيتها لاستقباله مرتدية أبهى حلة من الزينة .

ومن الانصاف ان نقول أن بريطانيا قد ساعدت سمو الأمير على
دخول مؤتمر السلم بتعزيد من أميركا ، ومنح للحجاز والعرب حق
الاشتراك فيه بممثلين عوضاً عن ممثل واحد ، كما كان يطلب الأمير ،
وذلك برغم مقاومة فرنسا الشديدة لذلك .

مساعي اليهود :

وفي غضون اقامتنا في لندن سعى اليهود كثيراً للاتصال بالأمير فيصل ،
وبثوا الدعاية الشديدة بأنهم على استعداد لمعاونة العرب سواء في المحافل

السياسة الأوروبية أو الأميركية ، ليحصل العرب على حقوقهم كاملة .
فقبل الأمير بمقابلة ثلاثة من زعمائهم ، وهم ويزمان البريطاني ،
وسوكولوف البولوني ، وهربرت صموئيل وزير البرق والبريد السابق
في انكلترا ، فقدموا له كتاباً يوقعه برضائه معترفاً بتأسيس وطن قومي
- ثقافي فقط في فلسطين - لقاء مساعدتهم العرب في المحافل السياسية .

وهنا ثارت ثائرة عوني عبد الهادي ، وهرع إلى "رد" الخطر ،
فدخلنا على الأمير واشتركنا بالمباحثات فذكر عوني بأنه قرأ في كتاب
صهوني أن اليهود يودون تشكيل دولة يهودية في فلسطين ، فأجابه هربرت
صموئيل بأن ليس ثمة من يكتب بل من يفكر بمثل هذا إلا أن يكون
خيالياً مجنوناً . وانتهى البحث بأن كتب الأمير على تلك الوثيقة بتوقيعه
وبخطه وبالعربية بأنه يقبل بما عرض عليه اذا ما وفى اليهود بوعدهم وتم
للعرب تحقيق استقلالهم من طوروس الى خليج البصرة ، وفقاً لمطالب
الملك حسين من الحكومة البريطانية قبل دخوله الحرب .

انكسرة لتراجع :

وكانت معاهدة سيكس - بيكو التي وقعتا الحكومة البريطانية مع
فرنسا في أيار عام ١٩١٦ تمنح فرنسا حق الاضطلاع بشؤون الساحل
السوري وحق الافضلية في تنسيق شؤون الحكومة العربية المستقلة التي
ستؤسس في القسم الجنوبي من ولاية حلب القديمة وسورية ودير الزور
والموصل ، كما ان لانكلترا حق الافضلية في شؤون العراق والبلقاء
وحق الاضطلاع بشؤون البصرة ومدينة حيفا ، أما في فلسطين فتشكل
حكومة أممية .

ولما رأت الحكومة البريطانية أن من المتعذر عليها مخالفة هذه

المعاهدة ، لم تشأ أن ترتبط مع الأمير بأي عهد من غير موافقة فرنسا وعن غير طريق مؤتمر الصلح الذي تقرر عقده في باريس في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ .

وكان الحلفاء إبان الحرب يندقون الوعود على الشعوب التي يودون استئثارها اليهم ، ويعدون المطالبين بالحرية والاستقلال فيها بمساعدتهم على تحقيق ذلك وبالسهر على حقوق بلادهم ، كل ذلك لاغرائها في ترك القتال ضدهم . وهذا ما حدث فعلا مع الملك حسين ، فاتفق سيمكس - بيكو وقع قبل العهود الموقعة مع الحسين وهي تتعارض معه وكان يجب أن تكون هي المعمول بها . ومن الغريب ان بعض الاتفاقات السرية بين الدول الكبيرة كانت خفية عن بقية حلفائها بدليل ان أميركا التي كانت تنادي دوماً باتباع السياسة الواضحة المبينة على العدالة والحرية ، فانها لم تطلع من الحلفاء على العهود السرية المختلفة التي اتفقوا عليها وأبرموها ولم يستلفت إليها نظر الرئيس ولسون .

العودة الى باريس :

وأشير على الأمير بالعودة الى باريس للاتصال بالحكومة الفرنسية بعد أن تقرر اشتراكه في مؤتمر الصلح . وكانت عودتنا إليها في ٦ كانون الثاني . ولقد نزل الأمير في إحدى « الفيلات » بشارع غابة بولونيا كما نزلت حاشيته في إحدى الدور القريبة منها في أحد الشوارع الثانوية لأن « الفيلا » المذكورة لم تكن كافية لسكنائنا جميعاً . بيد أن الأمير احتفظ الى جانبه رئيس مرافقيه نوري السعيد ومراقفه الخاص تحسين قدري . وكان همه الأكبر بعد الذي استيقن من موقف فرنسا وبريطانيا أن يسعى لنيل تعضيد الولايات المتحدة الأمريكية في الحصول على استقلال

العرب استناداً الى ما كان ينادي به الرئيس ولسون في مبادئه من ان يكون للحق والعدالة المقام الاول في شروط الصلح ، وأن تراعى رغبات جميع الشعوب الحقّة .

وجاء في خطاب ولسن لدن افتتاح مؤتمر السلم :

« ان ما تنفر منه العدالة ، هو أحلام الفتوحات والاستعمار ، وتبادل البلاد بين الدول ، كأن الشعوب ليست سوى أثاث ينقل . لقد تغير الزمن فلم يبق الدبلوماسيون قادرين على الاجتماع لفرض ارادتهم على زاوية مائدة وتبديل خريطة العالم ، فاذا كانت عليكم أن تعدلوا ثلث الخريطة ، فليكن تعديلها باسم الشعوب بشرط أن تعبوا بأمانة واخلاص عن أمانها وتحترموا حق الأمم صغيرة كانت أم كبيرة في حكم نفسها ، ويرشدكم لتحقيق هذا العمل العظيم العلم والتاريخ اللذان يبينان لكم السبيل » .

وقد اشترك في المؤتمر مع ممثلي الدول الكبرى مندوبو سبع وعشرين دولة أزرت الدول الكبرى في الحرب ، وهي لا تود إلا إلغاء سياسة العنف وتحقيق ما نادت به أمريكا بخصوص اقامة الحق مقام القوة وتأمين حرية الشعوب لتحكم نفسها بنفسها . ولذا لم يلق الامير صعوبة في تأمين العطف على قضية العرب .

ولكن من المؤلم أن دور هذه الدول في المؤتمر كان دور اصغاء للمناقشات ، لا لمناقشة الآراء ، ثم تلبية دعوة مجلس العشرة المؤلف من مندوبي الدول العظمى الخمس : أمريكا ، انكلترا ، فرنسا ، اليابان ، إيطاليا . وما لاحظنا أن الكولونيل « هوز » مساعد الرئيس ولسون ومندوبه الخاص أقوى شخصية في الوفد الاميركي حتى أن الرئيس

ولسن لم يتردد في أن يصرح بأن المستر هوز شخصه الثاني . والحق ان الكولونيل هوز كان سياسياً ممتازاً يتحلى بدمائة الخلق والكياسة ، متواضعاً للغاية ، وكان من أكبر العاملين على اعلان الرئيس ولسن مبادئه الاربعة عشر ، لاسيما بعد أن استيقن من اختلاف الحلفاء وعدم الانسجام الدبلوماسي بينهم . فكل مندوب يسعى ليجترأ أكبر قسط ممكن من المنافع الاستعمارية لحكومته ، متخذاً من الحق والعدالة ستاراً الى غاياته الطامعة .

وكان من حصيد ما تقدم أن الرئيس ولسن أدرك أن بريطانيا وفرنسا تخالفان وجهة نظره في تحقيق مبادئ العدالة والحق وتسيير سياسة العالم بعد الحرب على قواعدها . وانهما مازالتا تبقعان في سياستهما نهج الطمع والاستعمار . ولذا راح يخالفهما ويبذل غاية جهده في فرض ارادة حكومته نصرة للشعوب الضعيفة ومساعدتها على تقرير مصيرها . وقد تجلّى ذلك في الوقوف بوجه بريطانيا وفرنسا بما يتعلق بمستقبل البلدان العربية المسلحة عن تركيا ، إذ ثبت في الدفاع عن مبدأ وجوب تقرير المصير حتى اضطر حليفتيه الى مجاراته والنزول على حكمه في عدم ترك قضية مستقبل البلاد العربية بعيدة عن مباحثات مؤتمر السلم . وهكذا تقرر في ٣٠ كانون الثاني ١٩١٩ بأن لهذه البلاد حقها المشروع في تقرير مصيرها على أن تنتدب عليها جمعية الاثم . وقد أقر مجلس الحلفاء الاعلى عهد جمعية الاثم بعد شهر داخلاً قراره في المادة الثانية والعشرين من ميثاقها .

وكان سمو الأمير ينتهز كل فرصة ، رسمية كانت أو خاصة ، للاجتماع بالكولونيل هوز وتوطيد العلاقات الودية مع الوفد الامريكي . ولم يكن

يجد في ذلك مشقة لا امتاز به أفراد هذا الوفد من صراحة وحرية .
ولما كان قد تقرر أن يكون للحجاز والعرب مندوبان في مؤتمر السلام ،
فقد تم الاتفاق على أن يكون السيد محمد رستم المندوب الثاني مع الامير
بالنظر لدراسته الحقوقية والسياسية . وعين كل من نوري السعيد والدكتور
قدري وعوني عبد الهادي أعضاء مساعدين للوفد الحجازي ليعملوا في
لجان المؤتمر . وقد افتتح المؤتمر في ١٨ كانون الثاني ١٩١٩ في فرساي
بين مظاهر العظمة والابهة .

وكان يسود جوه فكرتان متباينتان : الفكرة الاميركية ، وهي
التي كان يرددها راسن وترمي الى خلق نظام عالمي جديد مبني على الحق
والعدل كما يسود السلام وينتفي الخصام . . . ثم فكرة رؤساء بقية الدول
الكبرى التي تهدف الى احتلاب أقصى ما يمكنها من المنافع الاستعمارية
متقيدة بما كانت أبرمته من المعاهدات السرية التي لم تقرها برلماناتها
وكانت قد قطعت العهد لولاسن بعدم اتباعها في أوائل عام ١٩١٧ .

وفي ٦ شباط بسط الامير مطالب العرب وهاجم بشدة تقسيم بلادهم
وفق معاهدات سرية وجعلها مناطق نفوذ للدول العظمى ، وطالب باستقلالها
ووحدها ، ثم ارسال لجنة لاستفتاء أهلها بعد أن اتفق على ذلك مع
الوفد الاميركي للتأكد من مطالب الأهليين ولدحض مدعيات الجمعيات
المرتبطة بفرنسا أمثال جمعيات شكري غانم وجورج سمحه وغيرها مما
فسح المجال لسماع أقوالها بالمؤتمر في ٣٠/٢/١٩١٩ وتكلم في المؤتمر
بالتاريخ نفسه هوارد بلس رئيس الجامعة الاميركية في بيروت وقال بأن
السوريين يودون الوحدة والاستقلال .

ولما كانت الحكومة الفرنسية تود أن يكون لها ما يبرر مطالبتها بتحقيق اتفاقية سيكس-بيكو في سورية ولبنان فانها ألحقت بالأمير السيد قدور بن غبريط ليقنعه بقبول تقديم فرنسا لسورية مساعدات ما مهما كانت بسيطة قد تحتاج سورية اليها ، لتبرير موقفها أمام ولسن بصورة خاصة . فقامت حاجزاً منيعاً في هذا السبيل لاتي كنت أعرف ما كان من نتيجة ذلك في تونس ومراكش . وكان الأخ جميل مردم بقي في فرنسا مدة الحرب وقد استطعت معرفة مقره آنذاك في مصح هاديء بضاحية باريس فاتصلت به حالاً ليكون ضيفاً على الأمير ، وسكننا معاً في منزلنا الخاص ، ولما كان شكري غائم على اتصال بجميل منذ عقد مؤتمر باريس العربي وكان قدّمه لفرنسا كصديق واتفق معها لتدعو جميل يتكلم في مؤتمر فرساي ، لذلك اتفقنا على ما يجب أن يقوله في المؤتمر فكان موقفه مشرفاً ولم تصل فرنسا عن طريقه الى ما كانت ترمي اليه من آمال ، وأصبح من معية الأمير .

وعند عودة سموه لسورية عاد في الباخرة التي تقل سموه ولم يكن منتظراً منه غير ذلك لأن الأمير ومحمد رستم وعوني عبد الهادي وفائز الفصين وأنا وأخي تحسين وجميل ، أي كل من كان مع الأمير ما عدا نوري باشا السعيد ، كنا من أعضاء جمعية الفتاة . أما نوري فكان من أركان جمعية العهد وهي المرتبطة معنا كما ذكرنا .

وفي ١٤ شباط عقدت جلسة علنية قبل فيها ميثاق عصبة الأمم . وعندما بحث هذا الميثاق اعترض السيد محمد رستم حيدر مندوب العرب الثاني في المؤتمر على كلمة الانتداب الغامضة طالباً تحديد معناها ، كما

تعرض لمعاهدة سيكس - بيكو وتقسيم بلادنا الى مناطق نفوذ مؤكداً ان هذا العمل ليس من المضمون تقدير نتائجه ، وأنه نتيجة للاتفاق السري المذكور الذي لم يؤخذ رأي أهالي البلاد بشأنه . ولكن مرافقته القوية ذهبت صرخة في واد إذ لم يجب عليها أحد .

ولما كانت الرئيس ولسن يتبع خطة مثالية جديدة في السياسة العالمية ، وكانت هذه الخطة تستلزم تحمل الولايات المتحدة مسؤولية عظيمة في العالم بينا الشعب الاميركي لم يقر بعد على الخروج على قاعدته ، قاعدة « موزو » التي تجعل أميركا لا تعنى بغير شؤونها ، من أجل هذا لم يجد الرئيس ولسن التأييد الكافي من الشعب الاميركي والكونغرس حتى أن روزفلت رئيس الولايات المتحدة السابق صرح إثر نشر الرئيس ولسن خطته ، ودعوته الحلفاء اتباعها في مؤتمر السلم : « يجب أن يفهم الرئيس ولسن وأعداؤنا وحلفاؤنا معاً بأن ليس لولسن الصلاحية بأن يتكلم باسم الشعب وكافة أقواله لا تعبر عن نيات الشعب الاميركي » ، منوهاً بذلك بأن الشعب الاميركي متمسك بعبد الرئيس موزو الانغزالي الذي نادى به سنة ١٨٣٣ فالشعب لا يقبل مداخلة أوروبا بشؤون أميركا كما انها تتعد عن المداخلة بشؤون غيرها ، الأمر الذي الذي اضطر ولسن ليفادر أوروبا الى أميركا ، ليصلح الجو فيها بقدر الامكان . ولكنه غير نهجه إثر عودته ، واضطر الى اقرار أشياء فاضحة لم يكن من المنطق أن يرضى بها بعد تلك الضجة التي أثارها في العالم بأن يكون للحق والعدل المقام الاول في مؤتمر الصلح .

وغاية ما تمكن الأمير من الحصول عليه تحقيقاً لمطالب العرب هي

الوعود الطيبة من الوفد الاميركي حتى اتى سمعت الرئيس ولسن يخاطب
الامير قائلاً : لا يخامرناك أي شك في أن حقوق العرب ستصان ، ولن
تروا في بلادكم أبداً عمالاً للاستعمار باسم المشورة أو خلافاً ، وإذا
أحوجتكم المشورة فستكون بناءً على رغبتكم وموافقتكم . وفي ١٩١٩/٢/٣٠
تقرر في المؤتمر فصل البلاد العربية عن تركيا والاعتراف باستقلالها
ووضعها تحت ارشاد احدى الاثم الراقية العريقة في الحكم . وفي ٢١
آذار قرر المؤتمر ارضاء لفصل ارسال لجنة يشترك فيها كل من مندوبي
فرنسا وانكلترا وأميركا لاستفتاء سكان البلاد العربية والتحقق من
رغباتهم مع ان هذه الرغبات كانت مفهومة ، وكان يمكن الاعتماد على
الامير الذي كان يحمل تفويض جميع الهيئات التي يحق لها التكلم باسم
الشعب . وبرغم ان قرار المؤتمر بارسال لجنة دولية لاستفتاء جاء
مغايراً لآمنية الامير الكبرى ، فقد كان في واقعه نصراً له .

العودة الى سورية :

وعلى اثر هذه الحوادث قرر الامير الرجعى الى سورية . ولكنه
قبيل مغادرة باريس اجتمع في ١٦ نيسان ١٩١٩ بكليانصو بوزارة الحربية
وقد فاتح الامير بأن الانكليز سينسحبون من المنطقة الشرقية ، وبأنه
يود أن تحل الجنود الفرنسية محل الجنود الانكليز المنسحبة ، فرفض
الامير ذلك معللاً رفضه بوجود قوة عربية كافية فيها ، فلم يقتنع كليانصو
بجواب الامير ، واستتلى بأن الامة الافرنسية تأبى إلا أن يرفع علمها
على سورية ليمثلها مع قوة عسكرية افرنسية ولو قليلة فيها .

ان اتفاق قبول انسحاب الخيوش البريطانية من سورية في ١٥/٩/

١٩١٩ قبل أن يتقرر مصيرها هو مبدأ المساعدة الفعلية الانكليزية لفرنسا باطلاق يدها فيها مقابل انها كانت تنازلت لبريطانيا عن الموصل بقبول الحاقها بالعراق بتاريخ ٢٧ كانون الاول ١٩١٨ . إذ لم يجد لويد جورج صعوبة باقناع كمنصو بذلك لأنه كان يجهل كل شيء عن الموصل وبتروله المترقب استثماره وكانت سورية تملأ تفكيره ومشاعره إذ ما برح الافرنسيون منذ الحروب الصليبية يحملون بوضع يدهم على سورية .

وهكذا غادر الامير فرنسا في ٢٣ نيسان ١٩١٩ ليحمل الى أهل البلاد نتيجة مساعيه وغاية ما تمكن من الحصول عليه ، ثم ليقول لهم : « اذا كنتم تودون الحصول على استقلالكم فما عليكم إلا تنظيم صفوفكم ، والتمسك بالاستقلال ، وتبليغ رغباتكم للجنة الاستفتاء الدولية » .

فاستقل القطار ومعيته قاصداً الى سورية عن طريق روما تلبية لرغبة إيطاليا ، وكان قد زار ملك البلجيك في بروكسل . وفي روما حل ضيفاً على الحكومة الإيطالية ، وقابل ومعيته ملك إيطاليا ، كما زار قداسة البابا . وفي ٢٧ نيسان ١٩١٩ غادر إيطاليا من ميناء تراتو عائداً الى بيروت على السفينة الحربية الفرنسية ادغار غينه . وبقي محمد رستم في باريس ممثلاً للحجاز في المؤتمر مع عوني عبد الهادي الذي أنابه الأمير عنه .

في بيروت :

وفي ٣٠/٤/١٩١٩ بعد الظهر وصل الامير الى بيروت ، فأطلقت المدافع من الميناء ترحيباً بسموه ، واستقل السيارة وعلى يساره الجنرال فين قائد الجيش البريطاني قاصداً دار المعتمد العربي . وقد أخذت السلطة

العسكرية البريطانية مسؤولية تأمين الأمن في بيروت بمناسبة مجيء الأمير ، واستقبلت بيروت الأمير استقبالا شعبيا رائعا .

وقد قام ضابطا ارتباط الجيش العربي لدى القيادة العليا الحليفة في بيروت جميل الاشبي ورقيق التيمي بتنظيم الاستقبال استقبالا برهن على تأييد الشعب لمطالب الأمير في مؤتمر السلم . وقد استعلنت هذه الحقيقة بكل وضوح إذ ان وفود البلاد السورية واللبنانية كانت تهتف له هتافات التأييد ، وتدعو الله بأن يحقق أهدافه .

وعند وصول الأمير الى دار المعتمد العربي ودّعه الجنرال فين ، وطلق يستقبل وفود المدن السورية ويستمع الى خطبهم الحماسية وقد أجاب الخطباء بقوله الذي ذهب مثلاً : « ان الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . . . لقد اعترف العالم باستقلالنا فعلينا أن نأخذه وأن نطلبه تاماً خالياً من كل شائبة ، وكل من يطلب معونة انكلترا أو أميركا أو فرنسا أو إيطاليا فهو ليس منا . نحن لا ننكر أننا محتاجون الى المعاونة الفنية وسنتفق عليها مع من نريد بحسب ما يوافقنا ، وهذا لا يكون إلا بعد أن نأخذ الاستقلال المطلق » .

وقد طلب اليه المجتمعون نشر بيان عن حقيقة الموقف والخطوة الواجب اتباعها ليطمئن أهل البلاد على مستقبلها ، فأذاع في اجتماع صحفي البيان الآتي :

يا أبناء سورية العزيزة :

ها قد عدت الى الوطن بعد أن فارقت خمسة أشهر . وقد أبلغت العالم المتمدن ما انتدبتوني اليه من بيان مطالبكم فتقرر مبدئياً استقلال

بلادكم ، وصحت النية على ارسال لجنة تحقيق دولية تحقق ما نقلت الى
الغربيين من رغائبكم . وستصل اللجنة في هذين الاسبوعين . وبهذا
ترون أن قد تم القسم الأعظم من المهمة الخارجية التي نعمل لأجلها
وذلك بحسن نيات الحكومات الأربع المعظمة وصدقها في أقوالها وتمسكها
بالمبادئ السامية التي جعلتها دستوراً لأعمالها وطبقاً لأمانى الأمة .

بقيت هناك المهمة الداخلية التي هي من خصائص هذه الأمة بأجمعها
وهي المسؤولية عنها ، ونجاحها موكول إليها ، فعلى الشعب أن يقوم بما
يقرره المؤتمر السوري العام الموقت الذي ينعقد عما قريب .

الأثم تود لكم النجاح ، وأنا أريد منكم أن تبهنوا لهذه البعثة
المحترمة التي ستشهد بالحق ، لكم أو عليكم ، بأنكم تستحقون الاستقلال
وانكم قادرون على ادارة شؤونكم بأنفسكم . سجلوا أمام العالم والتاريخ
أنكم أمة تفدي كل عزيز في سبيل أشرف غاية وهي الاستقلال الذي
أعانونكم عليه وأنا أحد أفرادكم .

أنا لا أشك أنكم يد واحدة في المطالبة بحقوقكم الصريح والسمي
للوصول اليه بكل ما في نفوسكم من قوة . تعملون وغايتكم متحدة ،
والصدق رائدكم في أقوالكم وأعمالكم جرياً على ما تقتضيه منكم محبتكم
لهذه التربة الطاهرة ، متمسكين بأهداب الحزم ، متخذين أسباب السكينة
والتؤدة والغيرة على هذا الوطن .

واني آمل أن تثبتوا للعالم أنكم أحفاد اولئك الاجداد الذين كانوا
سدنة الحرية ودعاة العدل . والتاريخ شاهد لا يماري في صحة القول .
وان ما قامت به الجاليات السورية المنتشرة في أقطار العالم من جلائل

الأعمال ليدخل السرور الى قواد كل من يحب هذه البلاد . فقد أسمعت صوتها بأنها لا ترى السعادة كل السعادة إلا في الاستقلال التام بدون قيد ولا شرط ، فإذا كانوا على تفرقهم لا يرضيهم إلا هذا فأنتم باجتماعكم أكثر استمساكاً بحقوق بلادكم . تستقلون في بلادكم استقلالكم في بيوتكم ، فينظر كل صقع من اصقاعكم في شؤونه بنفسه مع احترام تقاليده وعاداته . أما المعاونة التي نحتاج اليها فنبتاعها بأثمانها .

هذا ما أحب أن تجعلوه يا بني وطني نصب أعينكم ، وأن تكونوا المثال الحي ، وقدوة الابناء والأحفاد .

وقد نزل ضيفاً على قائد الجيوش البريطانية في سورية ولبنان (الجنرال فين) في حي السراسقة . وكان ذلك القصر المتسع يعج برجالات البلاد ورؤسائها الذين أتوا لاستقباله واظهار تأييدهم لمطالبه في مؤتمر السلام ، وهي مطالب الأمة .

في دمشق :

وفي ١٩١٩/٥/٣ غادر بيروت قاصداً دمشق . وقد استقبل على طول الطريق بأسمى مظاهر الترحيب والتأييد . ودخل دمشق دخول النزاة العظام ، ونهض لاستقباله معظم السكان من شيب وشبان ونساء وأطفال وكانت الورود والرياحين التي تلقى عليه من الكثرة بحيث أصبحت تعرقل سير موكبه .

ودعا الأمير وفود مستقبلية ورجالات البلاد وأهل الرأي فيها للاجتماع في بهو سراي دمشق الكبير بعد عاصري الخامس من أيار ١٩١٩ ثم ألقى في الاجتماع الخطبة الهامة الآتية :

« أتشرف بأن أضع كلمات على مسامعكم الكريمة . وهذه الكلمات ستكون تاريخية بالنسبة لحياة الأمة العربية الجديدة ومستقبلها . وأرجو العفو والعذر اذا سمعتم بعض أغلاط تقع مني في أثناء الحديث لكوني لست من رجال هذا الموقف الخطابي وأرجوكم أن تنظروا إلي بعين العذر وقد دفعني الى الكلام :

أولاً - ان أكثر هؤلاء الكرام الذين أتشرف بمخاطبتهم مجتمعون هنا من كافة أنحاء سوريا ، وقد أتوا الى بيروت للاقتني وأداء التحية باسم جميع المواطنين الذين ينوبون عنهم ، وحضروا الى هنا ليسمعوا مني ما حصل في الغرب في مؤتمر السلام بخصوص بلاد العرب عامة وسورية خاصة . ولا شك بأنني مجبر على إلقاء هذه الكلمات لأطمئن أهل البلاد على بلادهم وعلى استقلالهم مع اني في بعض الأحيان لا يمكنني أن أصرح بكل شيء لبعض الموانع السياسية التي تجبرني على السكوت عنها أمامكم . ولما كانت أكثر الذوات لا يعرفون ما هي الحركة الثورية التي قامت في الحجاز وما هو السبب والدافع اليها ، ولربما انهم قبل يومنا هذا كانت أفكار بعضهم ممن لا اطلاع لهم على السياسة العمومية داعية الى اتهام هذه الثورة بهم لا محل لذكرها ، وبقول ان من قام بهذه الحركة أتى بخيانة للوطن أو للجامعة العثمانية التي كنا نحن من أفرادها . ولكن على أثر انكسار الاتحاديين وتشتت شمل الحلف الجرمني ، علم المجموع أن من قام بالثورة هو رجل أو رجال عالمون بسير الحركة السياسية والعسكرية في العالم . وأن من قام بهذا ما قام إلا لحفظ قسم من جسم البلاد العثمانية وانقاذه مما سيقع به بعد الحرب . ولا شك أن المسؤول في الحركة أي الحركة الثورية العربية هو أولاً والذي ثم

الحجازيون مادة ، الذين قاموا بها فعلاً . أما السوريون فانهم مسؤولون عنها معنى لانهم قد شوقوا الحجازيين لهذه الحركة ، فنرى ولله الحمد أن الفخر وان كان أولاً للحجازيين فهو فخر للجميع ، لان هذه الثورة هي ثورة قومية لا يمكن أن نسندھا إلا الى الامة جمعاء . نعم ! ان والذي قام بالثورة في أثناء النزاع العظيم العالمي ، بعد ما رأى أن الأتراك انقادوا الى التيار الألماني وأوردوا الامة العثمانية موارد الهلاك ورأى أن دوام العرب في الحرب مع الأتراك المتحدين مع الألمان سيوقع البلاد التركية في ذات الموقع ، ورأى أن الامة العربية التي طالما تمت الخروج من نير الاستعباد والنهوض الى ما كانت عليه في سابق التاريخ طامحة بأنظارها الى الافلات من أشراك أعدائها . لهذا قام بالحركة بعد أن أتيت الى سورية وقابلت بعض الرجال الذين منهم كثيرون في مجلسنا هذا سواء من البدو أو من الحضر عقب مجيئي الى هنا ، ولا شك في انهم يذكرون ذلك .

ولما وصلت الى دمشق ورأيت ما رأيته من رجال الثورة رجعت الى الحجاز وأخبرت والذي كيف انهم قاموا بواجبهم ، وعليه قام . ولكن تقدير الباري جعل السوريين في موقف لا يمكنهم من مؤازرة الحجاز بما قام به لأسباب تعلمونها ، وهو ضغط الأتراك عليهم وما أتوه من الافعال التي سيسطرها التاريخ ويخلد ذكر من قتل ومن استشهد في تلك الاثناء من السوريين بأحرف ذهبية .

قام والذي ولم يفكر فيما يقع على الحجاز والحجازيين من القيام ضد الأتراك ولم يتيقن من النتيجة . إلا أن الباري سبحانه وتعالى يسر هذه الامور ، فجلا الأتراك عن سورية .

لا شك أنه قبل ذلك قام ببعض مذاكرات ومفاوضات بينه وبين
الأمم المحالفة أمم الحلفاء . واتكالا على الباري سبحانه وتعالى ثم على
العهد التي اخذها قام بالواجب الى أن انتهى الحرب وبدأ الصلح . ذهبت
عن والذي الى باريس عقب جلاء الاتراك وكانت نفذت الخطط العسكرية
في البلاد السورية المحتلة ، وجعلت البلاد السورية مقسمة الى ثلاث
مناطق ، وهذا لتنفيذ الخطط العسكرية ليس إلا . وأسست الحكومة
العربية العسكرية في داخلية سورية ، وهي ليست حكومة دائمة ، ولذلك
ذهبت الى المؤتمر الذي انعقد في باريس لآخذ لكل مستحق حقه .
وصلت باريس ودخلت المؤتمر وجمعية الأمم لبث رغائب الشعب على قدر
امكانياتنا واجتهادي ، وتمكنت من قول ما أريد . وعند ذهابي رأيت
أمم الغرب في حالة جهل عميق عن أحوال العرب . كانوا لا يعرفون
عن العرب إلا ما كانوا يعرفونه عنهم في حكايات الف ليلة وليلة ليس
إلا . كانوا يظنون العرب عبارة عن الأمم العربية السالفة ولا يفكرون
بوجود الأمم العربية الحاضرة ، ولا يعرفون شيئاً عن الافكار السياسية
العربية والنهضة التي حصلت فيها . يفكرون العرب هم عبارة عن
عرب البادية الذين يسكنون الصحراء ، وأما باقي سكان البلاد المعمورة
فهم يعدونهم غير عرب . ولا شك أن جهلهم هذا جعلني أصرف وقتاً
طويلاً لأفهم هذه الأمم الحقيقة وأثبت أن العرب أمة واحدة تقطن
في البلاد التي تحدها البحار من الشرق والجنوب والغرب وتحدها جبال
طوروس من الشمال .

قلت هذا المؤتمرين وأخبرتهم بمقاصد العرب ونواياهم . وبما أنهم

قاموا لانصاف المظلوم ، فبعد أن فهموا المقاصد والمطالب وما فعله العرب من المعاونة للحلفاء في هذه الحرب ، اعترفوا باستقلال العرب مبدئياً ، ولكونهم ليسوا عالمين الدرجة التي حازتها الأمة العربية اليوم في الرقي السياسي والادبي ، ولتأمين السلم في البلاد بأجمعها ، رأوا أن ينتدبوا هيئة دولية لترى الحقيقة بأبصارها وهما هي قادمة اليكم .

كانت مدافعتي عن بلاد العرب على قسمين : الاول ، ان البلاد العربية لا يمكن تجزئتها ، والقسم الثاني : بما أن البلاد العربية تختلف في درجة علم وتعليم سكانها في مختلف أقطارهم ليس إلا ، فالظروف ليست مساعدة لادارتهم كأمة واحدة ، لذلك رأيت الدفاع عن حقوقنا كما يلي :

ان سوريا « بمحدودها الطبيعية » والحجاز والعراق قطعات عربية ، ويطلب أهل كل قطعة منها الاستقلال . وقلت ان نجداً والبلاد المساوية للحجاز في حالتها الاجتماعية من الاقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس إلا ، وهذه يرأسها والذي . أما سورية فيجب أن تكون مستقلة ، وكذلك العراق يريد استقلاله ، ولا يريد معاونته أو حمايته ، وهما يقرران الارتباط الواجب قيامه بينهما .

نحن لا نرضى في سوريا أن نبيع استقلالنا بما نحتاج اليه من المعاونات في ابتداء تكوينتنا ، بل ان الأمة السورية هي أمة تريد أن تستقل وتأخذ ما تحتاجه من المعاونة بثمنه ، أي بدراهم معدودات .

دافعت هذا الدفاع ، وعلى هذه الاسس ، ولا حاجة الى ذكر غير ذلك هنا لأن اجتماعنا هذا خاص بسورية .

دافعت عن سورية بحدودها الطبيعية ، وقلت ان السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية ، ولا يريدون أن يشاركهم فيه شريك . وقد توفقتنا والحمد لله مع أن العرب أمة واحدة وكلنا يعلم ان المقاطعات العربية في نظر التاريخ والجغرافية والصلات القومية هي بلاد واحدة ويجب أن تكون جمارك ومصالح هذه المقاطعات الاقتصادية موحدة لا حاجز يحجز الروابط الاقتصادية والمناسبات الودية بينها .

كانت مدافعتي عن البلاد بهذه الصورة وكانت الأثم تنظر الى طلباتي نظر الارتياح والقبول . وان ما حصل من جدل ليس هو إلا من عدم معرفة تلك الأثم مقاصد العرب وطواياها ، وخوفاً من وقوع ما لا تحمد عقباه بما بذره الأتراك ، ولكون الأثم الغربية تنظر الى المجموع العثماني كوحدة مسؤولة ، ويظنون العرب مسؤولين عن أعمال الأتراك . وبعد أن وقفوا على حقيقة الأمر اذعنوا المطالب العربية . وها أنا بين ايديكم قد قدمت اليكم من مؤتمر السلم لابلغكم ماتم لي وستصل اليكم الهيئة الدولية ، فاعربوا لها عما في ضمائركم ، لأن الأثم لا تريد اليوم أن تحكم أمة اخرى إلا وفق رغباتها . فالموقف اليوم هو بيدكم .

الى أن قال : هل تسمح وفود الامة أن ادير الحكومة الموقته مع السياسة الخارجية والداخلية بعد اليوم أم لا ؟ فكان جواب الجميع تأييد الامير التام .

واشترك في التأييد جميع البطارقة ، ثم تابع الامير كلامه قائلاً : بعد أن نلت هذا الاعتماد سأناظر على أعماله حتى انعقاد المؤتمر العام

الذي سينعقد قريباً والذي سيسن القوانين التي توضع لإدارة شؤون سوريا كافة . وأنا أرى أن تكون مطالب الأقلية من الشعب مصانة بل مرجحة على رغائب الاكثية . وهذا للتغلب على ما يذر الاتراك من الشقاق بين العناصر ، وأن تقسم الى مناطق بموجب الحالة الجغرافية والسياسية التي اكتسبها السكان بالنسبة الى اختلاف مناطقهم . وقولي هذا قول شخصي لاآتي فرد من أفراد الامة . ولا فرق عندي بين أفرادها بل أرى الصالح والمتعلم مقدمين في نظري ، وليس لأحد منا أن يقول كنت كذا ، ناظراً لشأنه العائلي ، بل لينظر كل منا الى النفع العام الذي يجب أن يقدم على المصالح الخاصة ، والعمل يجب أن يكون بالعلم ، والعمل العام عائد للامة جمعاء ، ولا يمكن ادخال الشخصيات في العموميات . وأختم كلامي برجائكم رجاءً خاصاً بالاتحاد وجمع الكلمة ، ولا استقلال لكم إلا بالسكون والعمل والسلام عليكم .

ثم انصرف الامير الى تقوية جهاز الحكم في سورية ، وقد كان أفضل منه في العراق وفلسطين ولبنان ، فارتاح لذلك كل الناطقين بالضاد ، كما أن الحركة الوطنية برئاسته نشطت كثيراً ، وكانت الحرية العامة مكفولة ، فكثر عدد الصحف والاندية التي تعمل على بث الروح القومية ومقاومة كل دعاية أجنبية .

وكانت الهيئة الادارية للجمعية الفتاة تقوم بواجبها بكل أمانة واخلاص ، ويعمل أعضاؤها آناء الليل وأطراف النهار . وبعد تغيب رفيق التميمي في بيروت ، ورستم حيدر في باريس ، حل محلها سعيد حيدر ، وأحمد مريود . وأصبحت الهيئة الادارية مشكلة من ياسين الهاشمي وعرة دروزة وشكري القوتلي وتوفيق الناطور والدكتور أحمد قدري وأحمد مريود

وسعيد حيدر . وكانت هذه اللجنة مرجع تشكيلات الدعاية للقضية العربية . ويلاحظ أن رضا باشا الركابي لم يكن من أعضاء الهيئة الادارية بسبب تأثير المراكز الادارية الكبيرة التي كان شغلها على تفكيره وعدم انسجام آرائه مع آراء اخوانه من أعضائها وكنا نستعين بفيصل رئيسنا الأعلى لتنفيذ الخطط المرسومة . ولما كان لا يوجد فواصل جمركية بين سورية العربية ولبنان وفلسطين ، فكان قد تم الاتفاق بمعرفة القيادة الخليفة العليا على أن تدفع الادارة القائمة في لبنان (١٥٠) ألف جنيه والقائمة في فلسطين (١٥٠) ألف جنيه مصري اخرى الى الحكومة العربية لقاء ما تستورده سورية عن طريق تلك البلاد اذ ان سلطات الجمارك في الموانئ اللبنانية والفلسطينية تحصل الضرائب الجمركية وفقاً لما كان متبعاً في العهد العثماني . وبالنظر لكون الامير فيصل هو ممثل القيادة الخليفة في سورية ، فكانت هذه المبالغ تسلم لسموه وهو يسلمها الى الموظفين المختصين ، بعد أن تقتطع منها نفقات الامير وما تستلزمه الاعمال الوطنية التي ليست من اختصاص الحكومة كالدعاية الوطنية واستمالة الاشخاص المزعزعي الايمان الوطني ولا سيما في الساحل . وكنت انا المكلف من جمعية الفتاة بمراجعة الامير في ذلك ، فأتسلم اوامر صرف المبالغ المخصصة للغايات المذكورة ، واسلمها فوراً للهيئة الادارية فيقبضها خزنها ، كما ان ياسين الهاشمي ايضاً كان يضطلع احياناً بهذه المهمة وذلك بسبب الدالة التي كانت لنا عند الامير .

ولما كان حزب الاستقلال العربي قد تشكل ليكون المظهر الخارجي لجمعية الفتاة السرية فقد توسع كثيراً وكان يقوم بكل ما تود الفتاة نشره

من مبادئ وطنية وخطط للوصول الى الغاية الكبرى من تحقيق استقلال
ووحدة الوطن العربي .

وبالنظر للفائدة العظمى التي تجنيها الحركة الوطنية من وجود نواد
عربية تضم شمل الشباب وتبث فيهم الروح الوطنية فقد تأسس في كل
من دمشق وحلب ناد عربي كبير ، كما تأسست في بقية المدن نواد
مشابهة . وكان لولب النادي العربي في دمشق الشيخ عبد القادر المظفر
اليافي المولد ، وكان المظفر خطيباً كثير النشاط ، دأب الحركة ، منتسباً
لعلماء الدين ، الأمر الذي سهل عليه القيام بواجبه في النادي وترويج
الدعاية الوطنية التي كانت الظروف تستوجب اتباعها .

مناورات افرنسية :

وكانت الروح العربية الاستقلالية تشع من دمشق ، لتنتشر تأثيرها
السحري في فلسطين ولبنان والعراق ، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية
والبريطانية تحسب لذلك ألف حساب ، فرأت الحكومة الفرنسية أن
تواصل في دمشق مساعيها التي بدأتها في باريس عساها تصل الى تفاهم
مع الامير كما يضع حداً لمقاومة سياستها ويسهل لها تحقيق معاهدة
سيكس - بيكو . فأوحت الى بطل المعاهدة الافرنسي جورج بيكو
بتنفيذ ذلك . فجاء الى دمشق في ٢٠ مايس وبدأ محادثاته مع الامير ،
وكنت أنا المترجم في أكثر الاحيان ، كما كنت أتصرف بترجمة أقوال
الامير أحياناً كي لا يفهم منها غير ما يقصده فيسجله عليه . وكأني به
قد لاحظ ذلك ، فاعترض عليّ ، فرجعت الى الامير ، فأيد ما ترجمته
بدون أي تغيير . وبعد محادثات استمرت عدة أيام أبى الامير إلا أن يدور

البحث على أساس الناء معاهدة سيكس - بيكو . وبذلك تنشأ في الساحل السوري ولبنان ادارة وطنية تحمل محل الحكم العسكري الفرنسي الذي كان قائماً فيها وترتبط مع المنطقة الشرقية بوحدة واتحاد وفقاً لرغبات الأهليين . فأعلن المسيو بيكو أن ذلك متعذر ، محتجاً بأن انكلترا طرف ثان في المعاهدة المذكورة ، وألح الامير بضرورة تحقيق ذلك قبل وصول لجنة الاستفتاء الدولية . ولما كانت الموصل داخلة ضمن سورية ، وفلسطين منطقة دولية وفقاً للمعاهدة المذكورة ، فقد طلب الامير أن تتعهد فرنسا وتعمل معه على ادخال الموصل وفلسطين ضمن الدولة السورية فاعتذر جورج بيكو بأن انكلترا تقاوم ما يطلبه ولا يسع فرنسا أن تدخل بأي بحث يتعلق بالعراق عندما تطرق الامير لذلك . وبعد شهر تقريباً أي في ١٨ حزيران عاد المسيو بيكو فزار الامير ليلفقه استعدادده لنشر بيان يتفق مع مطالب الامير في الساحل بدون أن تتقيد فرنسا بتوقيع اتفاقية مع الامير بهذا الشأن .

وكانت لجنة الاستفتاء الاميركية قد وصلت الى لبنان في ١٠/٦/١٩١٦ وهي على وشك مغادرة فلسطين الى جنوبي لبنان . وقد لاحظنا أن غاية فرنسا من ذلك كانت تأمين حصولها على الانتداب في سورية استناداً لرغبة أهلها بعد أن تأمن عدم مقاومة الامير لذلك ، وعندها تتصرف كما تشاء تحت ستار الانتداب المخول لها من مؤتمر السلام . فرفض الامير ذلك أيضاً .

وقد بذل العاملون الوطنيون قصارى الجهد لتوحيد الصفوف والتقدم برأي جميع الى لجنة الاستفتاء الدولية بالمطالبة بالاستقلال التام على أن يصار الى الاستعانة بالفنيين الأجانب وفقاً للحاجة وبحرية كاملة كما جاورين

تدفع لهم الدولة اتعابهم ، ورفض أي استعانة أو مساعدة فرنسية . إلا أنه لما كان قرار مؤتمر الصلح يحتم الاستعانة بخبراء إحدى الدول العريقة وفقاً لرغبات الشعب ، فكان الأمير يرى أن تطلب المساعدة من أميركا أو انكلترا إذ أن بشار رفض أميركا المداخلة في شؤون العالم القديم بدأت تظهر للعيان ، وليقطع بالتالي الطريق على فرنسا بعد أن امتلأ قلبه خوفاً من تدخلاتها ، وبما انتهى إليه من سياستها التعسفية في شمال افريقية وعدم تمكين السكان من ادارة شؤونهم بأنفسهم ، وقد شاطرت الأمير هذا الرأي ، إلا أن الهيئة الادارية للفتاة لم تقبل بهذا الاجتهاد ، وقررت أن تكون المساعدة التي لاتمس بالاستقلال المطلق وفقاً على أميركا حتى إذا أثبت كانت بريطانيا .

وفي هذه الاثناء وردت على الأمير برقية من وفد الحجاز في مؤتمر السلام ورد فيها أن فرنسا تضع العراقيل لتحول دون لجنة الاستفتاء الدولية من السفر زاعمة أن سكان سورية وغيرها من البلاد العربية ليسوا من النضج الفكري والثقافي بحيث يمكنهم وعي مثل هذه الامور ، إلا أن حظوة الأمير لدى الرئيس ولسون جعلته ينكر على فرنسا زعمها ويصر على ارسال اللجنة .

وكانت لجنة الاستفتاء مؤلفة من الوفد البريطاني برئاسة السير هنري ماكماهون وعضوية الاستاذ هوجارت وعدد من الخبراء والسكرتيرين ، ومن اللجنة الفرنسية برئاسة هنري لونج ومن اللجنة الاميركية وهي مؤلفة من شارلز كراين وهنري كنغ مندوبين والبرت لايباير يساو وجورج مونتميري ، والكايتين وليم باي مستشارين والكايتين رودى أمين سر والمستر لورنس مور مدير أعمال .

ولما كان قرار ارسال لجنة دولية للاستفتاء والتحقيق لم يقابل بالارتياح من قبل الدوائر الفرنسية الرسمية والبرلمانية ، فقد اشترطت الحكومة الفرنسية أن تتفق الحكومات ذات الشأن على كل ماله علاقة بذلك الاستفتاء قبل ارسال اللجنة ، فأبى الرئيس ولسن أن يتقيد بطلبها هذا ، وبذل المندوبان العربيان في المؤتمر جهوداً صادقة كي لا تجاري الحكومة البريطانية الفرنسيين في عرقلة ارسال اللجنة ولحلها على ارسال وفدها . فأرسل عضو الوفد البريطاني في مؤتمر الصلح اللورد هاردينغ كتاباً إلى الوفد العربي في المؤتمر يقول فيه أن الوفد الانكليزي سيلحق بعد قليل بالوفد الاميركي الذي سافر الى الشرق للاضطلاع بمهمته بأمر الرئيس ولسن بدون أن يتقيد بسفر اللجنتين الفرنسية والانكليزية ، غير أن انكلترا عادت بعدئذ فلبت مطلب فرنسا ، ولم ترسل وفدها اذ أن وعد بلفور سيسبب جملة من المشاكل اذا هي اشتركت بالاستفتاء ، لاسيما وأن البلاد لم تكن تجهل عقبي ذلك الوعد المشؤوم من أخطار . ولا شك في أن انكلترا كانت حائرة بسبب الوعود الكثيرة التي قطعها على نفسها لاستكثار انصارها ابان الحرب اذ هي لم تدخر وسعاً في حشد كافة القوى الممكنة لمساعدتها ، ومن جعلها القوة الصهيونية العالمية ، التي مدت لها يد العون لبقاء تحقيق الحلم اليهودي في أرض الميعاد « فلسطين » . وكان من أثر سعي الصهيونية في اميركا ان جرت بها الى الحرب بجانب بريطانيا وحلفائها . وقد دخلت الولايات المتحدة في ١٢ نيسان (ابريل) ١٩١٧ الحرب بجانب انكلترا ، ولذا وفّت انكلترا بوعداتها لليهود فأصدرت وعد بلفور المشؤوم في ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ وهذا نصه :

عزيزي لورد روتشيلد :

يسرني أن أبعث اليكم باسم حكومة جلالة الملك ، هذا التصريح

المشوب بالعطف على الأمانى الصهيونية ، والذي عرض على الحكومة ووافقت عليه .

تعزّم الحكومة البريطانية إقامة وطن للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل كل ما لديها من جهد في سبيل تحقيق هذه الغاية ، هذا مع العلم بأن حكومة جلالة الملك لن تفعل شيئاً ينطوي على أي مساس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين ، ولا بحقوق اليهود الذين يعيشون في دولة أجنبية ، ونظم أحوالهم الشخصية . واكون لك شاكراً لو تكرمت بإبلاغ هذا التصريح الى اتحاد الهيئات الصهيونية .

ارثر جمس بلفور

وكان علينا أن نحسب حساب هذا البلاء الذي قد يكون أخطر من الاستعمار .

المؤتمر السوري :

وبما أن الحكومات الكبيرة والرأي العام العالمي يجعل لآراء المجالس النيابية المقام الأول فقد اتفقنا مع سمو الأمير على دعوة « مؤتمر سوري عام » يمثل سورية كلها ، الداخل والساحل (لبنان) ، وسورية الجنوبية (فلسطين) . ولما كان الوقت لا يتسع لإجراء الانتخابات ، ولاستحالة مثل ذلك في الساحل وفي فلسطين بسبب معارضة حكومتي الاحتلال فيها ، فقد تقرر أن تجري الانتخابات من قبل الناجحين الثانويين الذين انتخبوا آخر مرة نواباً عن البلاد في مجلس المبعوثان العثماني في استنبول . وقد مثلت خليل الرحمن في المؤتمر السوري اذ انني قضيت حداثتي في فلسطين مع والدي الذي كان مفتشاً عاماً للجيش فيها . فاجتمع نواب

سورية الداخلية ويبروت وطرابلس واللاذقية وكل مدن فلسطين ، في دمشق ، وافتتح الأمير في ٧ حزيران سنة ١٩١٩ المؤتمر في النادي العربي وخطب فيه خطبة جامعة أهم ما جاء فيها أن واجب أعضاء المؤتمر الأساسي هو تمثيل البلاد أمام اللجنة الاميركية وعرض مطالبها وأمانها عليها ثم سن القانون الأساسي مع ضرورة وضع نصوص صريحة فيه لحفظ حقوق الاقليات الدينية .

وفي ١٠ حزيران وصلت لجنة الاستفتاء الاميركية الى فلسطين ونزلت في ميناء يافا ، وبدأت عملها بنشر البيان الرسمي الآتي : « ان الشعب الاميركي ليس له مطامع سياسية في أوروبا والشرق الأدنى ، بل يفضل على قدر الامكان تجنب كل ماله علاقة بالمشاكل في خارج بلاده ، ويرغب أن يسود السلام العالم وبهذه الروح يدنو من مشاكل الشرق الأدنى .

لقد عين مجلس الاربعة في مؤتمر الصلح لجنة دولية لدرس الحالة في المملكة التركية لعلاقتها بالوصايات فغاية القسم الاميركي الموجود الآن هي الوقوف جهد المستطاع على أحوال السكان ورغباتهم ليكون الرئيس ولسن والشعب الاميركي على بينة من الحقائق في كل سياسة يدعى الى السير عليها فيما يتعلق بمشاكل الشرق الأدنى سواء كان ذلك في مؤتمر الصلح أو في جمعية اللائيم » .

وقدمت الحكومة البريطانية كل مساعدة للجنة الاميركية وألحقت بها سكرتير اللورد آللني العسكري الكولونيل ولسن . وقد قررنا في دمشق ان لا يدلي أهل فلسطين بأي مطلب أمام اللجنة بل يحيلون أمرهم الى وكلائهم في المؤتمر السوري بدمشق الذي يمثلهم أصدق تمثيل ،

ولا سيما فيما يتعلق بطلب المساعدة الفنية اذا ما احتاجتها البلاد . وقد حققوا هذه الخطوة المرسومة حرفياً .

وقد جامل الموظفون البريطانيون اللجنة ، وسهلوا مهمتها ، وابلغوها أن نسبة السكان المسلمين العرب في فلسطين هي ٤/٥ مجموع السكان . والجميع يطلبون الاستقلال والوحدة السورية ، رافضين كل الرفض الوصاية الفرنسية . أما المسيحيون وعددهم ١٠ بالمئة من مجموع السكان فقد طلب من كان يسكن منهم طبريا وحيفا والناصرة ما طلب مواطنوهم المسلمون . وأما البقية منهم ، فالروم طلبوا استقلال سورية ووحدتها ناجزين مع المساعدة البريطانية ، والوارنة طلبوا المساعدة الفرنسية ولكنهم أقلية ضئيلة لا يعبأ بها . وكان اليهود يؤلفون ١٠ بالمئة من السكان كما تأكدت اللجنة ، وقد طلبوا أن تكون فلسطين وطناً قومياً لهم والسماح لآبناء جنسهم في العالم بالهجرة الى فلسطين ، وأن تكون اللغة العبرانية رسمية والوصاية لبريطانيا دون سواها . وكان الظاهر من الحديث معهم أنهم يرمون الى تشكيل حكومة يهودية في فلسطين .

ولم يطل مكوث اللجنة في فلسطين أكثر من عشرة أيام فغادرتها قاصدة القسم الجنوبي من منطقة الاحتلال الغربية (لبنان الحالي) فزارت صور ومرجعيون والبترون حيث قضت يومين اثنين ، ثم قصدت الى بيروت . وبعد أن لبثت في دمشق تسعة أيام غادرتها الى بعلبك ، ومنها قفلت راجعة مرة ثانية الى منطقة الاحتلال الغربية حيث استكملت استفتاء الاهلين ، ومن هناك قصدت الى سورية الشمالية عن طريق طرابلس - حمص - حماه - حلب . وكانت مطالب الاهلين في منطقة الاحتلال الغربية منقسمة الى ثلاثة أقسام :

الاول : ضم البقاع ومدينة بيروت الى لبنان الاصلي أي القديم .
وطلب الكثير من السكان جعل لبنان لبناناً كبيراً مستقلاً تحت الوصاية
الفرنسية . وكانت معظم القائلين بهذا الموارنة الذين يسكنون جبل
لبنان القديم .

الثاني : يطلب لبنان الكبير أيضاً بدون أن يطلب الوصاية الفرنسية .

والثالث : يطلب لبنان الكبير مستقلاً استقلالاً ادارياً ، ضمن
الوحدة السورية ، بدون وصاية أو مساعدة . وكان معظم هؤلاء من
المسلمين ، وخاصة سكان المناطق الساحلية التي لم تكن جزءاً من لبنان
كصيدا وصور وطرابلس . هذا مع العلم بأن المنطقة الغربية كانت محتلة
من قبل الجيش الفرنسي ، وحاكمها فرنسي . وقد بذل الفرنسيون جهوداً
عظيمة ومبالغ جسيمة توصلوا الى غاياتهم ، فلم يوفقوا في المنطقة الشرقية
الغربية ، وان نالوا توفيقاً جزئياً في المنطقة الغربية على يد الموارنة
بنوع خاص . ولا يخفى أن بعثات التبشير الدينية الفرنسية كانت منتشرة
منذ مدة طويلة في جميع أنحاء جبل لبنان . ومن طبيعة الادارة الفرنسية
الضغط الشديد على الرأي ، ورغم ذلك كله لم يتمكن الفرنسيون من
أن ينالوا الاكثرية في منطقة احتلالهم . وقد طلب دروز لبنان المساعدة
البريطانية معلنين بصراحة : « اذا كان لبنان سيكون تحت الوصاية
الفرنسية فانهم يطلبون الانفصال عن لبنان » . وقد صوت في صيدا وصور
وطرابلس الروم الارثوذكس والبروتستانت ضد الوصاية الفرنسية .

وعلى الاثر غادرت اللجنة بيروت قاصدة دمشق حيث استقبلت استقبالا
حافلاً . وكان لسان حال الجميع يقول للجنة الاستفتاء : ان مستقبلنا

بين يديك ، واعتمادنا على مبادئ الرئيس ولسن فهو لنا السند الاول
في الحصول على حقنا .

وقد دعاها سمو الامير مرتين لتناول الطعام على مائدته . وأذكر
أنني كنت ذات مرة مع السكاكين ياي الذي كنت أأزيمه لمعرفة الافرنسية
نسير على مقربة من مدرسة المارستان لتسهيل مقابلة اللجنة للهيئات الدينية
الاسلامية ، فقررنا أمام دار سامي باشا مردم بك ، وكان بناته الصغيرات
يلعبن منشدات الاناشيد الوطنية في البهو الخارجي ، فاعتنمت الفرصة
ودعوته للدخول ، وترجمت له ما كن يقلنه وقد سألهن بالفرنسية عن
الداعي لما ينشدنه ، فأجبنه بأنهن لا يرغبن بديلاً بالاستقلال التام
لبلادهن ، ويرفضن أي مساعدة فرنسية ، فضحك وهو يقول : إن
هذا الوعي في سورية لمن دواعي فخرها ، أخشى ما أخشاه أن لا تتحقق
مطالبكم رغم الجهد الوطني الذي قُتِم به لتوحيد كلمتكم . فأمر كما لم يعد
بوسعها التدخل في شؤون بلاد خارجة عن حدودها . ولا أدري كيف
يسعها تقديم المساعدات لكم ، وحتى المساعدة الفنية . اني أقول لك
هذا كصديق مع ان واجبي لا يسمح لي بالافضاء بتصريح كهذا .
فكان لما قاله لي ولتأييد المستر كراين ذلك تلميحاً تأثير كبير في قرار
المؤتمر السوري العام . فقبل طلب المساعدة الفنية التي لا تمس الاستقلال
التام من أميركا وان لم تقبل فمن بريطانيا رغم قرار الفتاة السابق .
وفي ٣ تموز ١٩١٩ قابل اللجنة رئيس المؤتمر السوري وكان معه
أحد وعشرون عضواً من مناطق سورية المختلفة انتخبهم المؤتمر ليشتروا
معه في تلك المقابلة ، وسلموا اللجنة قرار المؤتمر . وهذا نصه :
« اننا نحن الموقعين أدناه بامضاءاتنا وأسمائنا ، أعضاء المؤتمر السوري

العام ، المنعقد في دمشق الشام ، والمؤلف من مندوبي جميع المناطق
الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية ، الحائزين على اعتمادات سكان مقاطعاتنا
وتفويضاتهم ، من مسلمين ومسيحيين وموسويين ، قد قررنا في جلستنا
المنعقدة في نهار الاربعاء المصادف لتاريخ ٢ تموز ١٩١٩ وضع هذه
اللائحة المبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا ، ورفعها الى الوفد
الاميركي المحترم من اللجنة الدولية :

١ - اننا نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية ،
التي تحدها شمالاً جبال طوروس ، وجنوباً رفح ، فالخط المسار من
جنوب الجوف الى جنوب العقبة الشامية والعقبة الحجازية ، وشرقاً نهر
الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي أبي كمال الى شرقي الجوف ، وغرباً
البحر المتوسط بدون حماية ولا وصاية .

٢ - اننا نطلب أن تكون حكومة البلاد السورية ملكية مدنية
نيابية ، تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة وتحفظ فيها
حقوق الاقليات ، على أن يكون ملك هذه البلاد الامير فيصل الذي
جاهد في سبيل تحرير هذه الامة جهاداً استحق به أن نضع تمام الثقة
بشخصه ، وأن نجاهر بالاعتماد التام على سموه .

٣ - حيث ان الشعب العربي الساكن في البلاد السورية شعب
لا يقل رقياً من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية ، وليس هو
في حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانيا في
مبدأ استقلالها ، فاننا نحتج على المادة (٢٢) الواردة في عهد جمعية الامم
والقاضية بادخال بلادنا في عداد الاثم المتوسطة التي تحتاج الى دولة منتدبة .

٤ — اذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الاحتجاج العادل لاعتبارات لا نعلم كونها فاننا بعدما أعلن الرئيس ولسن أن القصد من دخوله في الحرب هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار ، نعتبر مسألة الانتداب الواردة في عهد جمعية الأمم عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لا تمس باستقلالنا السياسي التام . وحيث اننا لا نريد أن تقع بلادنا في أخطار الاستعمار ، وحيث اننا نعتقد أن الشعب الاميركي هو أبعد الشعوب عن فكرة الاستعمار ، وأنه ليس له مطامع سياسية في بلادنا ، فاننا نطلب هذه المساعدة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الاميركية على أن لا تمس هذه المساعدة استقلال البلاد السياسي التام ووحدتها ، وعلى أن لا يزيد أمد هذه المساعدة عن عشرين عاماً .

٥ — اذا لم تتمكن الولايات المتحدة من قبول طلبنا هذه المساعدة منها ، فاننا نطلب أن تكون هذه المساعدة من دولة بريطانيا العظمى ، على أن لا تمس استقلال بلادنا السياسي التام ووحدتها ، وعلى أن لا يزيد أمدها عن المدة المذكورة في المادة الرابعة .

٦ — اننا لا نعترف بأي حق تدعيه الدولة الفرنسية في أي بقعة كانت من بلادنا السورية ، ونرفض أن يكون لها مساعدة ويد في بلادنا بأي حال من الاحوال .

٧ — اننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية ، أي فلسطين ، وطناً قومياً للاسرائيليين ، ونرفض منحهم الى أي قسم من بلادنا ، لانه ليس لهم فيها أدنى حق ، ولانهم خطر شديد جداً على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي .

أما سكان البلاد الاصليون من اخواننا الموسويين فلهم مالنا
وعليهم ما علينا .

٨ - اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سورية المعروف
بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التي من جعلتها لبنان عن القطر
السوري ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأي
حال كان .

٩ - اننا نطلب الاستقلال التام للقطر العراقي المحرر ونطلب عدم
ايجاد حواجز اقتصادية بين القطرين .

١٠ - ان القاعدة الاساسية من قواعد الرئيس ولسن التي تقضي
بالغاء المعاهدات السرية تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضي بتجزئة بلادنا
السورية أو كل وعد خصوصي يرمي الى تمكين الصهيونيين في القسم
الجنوبي من بلادنا ، ونطلب أن تلغى تلك المعاهدات والوعود بأي
حال كانت .

هذا وان المبادئ الشريفة التي صرح بها الرئيس ولسن لتجعلنا
واثقين كل الثقة في أن رغائبنا هذه الصادرة من أعماق القلوب ،
ستكون هي الحكم القطعي في تقرير مصيرنا ، وان الرئيس ولسن
والشعب الاميركي الحر سيكونون لنا عوناً على تحقيقها ، فيثبتون للملاء
صدق مبادئهم السامية وغايتهم الشريفة نحو البشرية بنوع عام ونحو شعبنا
العربي بنوع خاص . وان لنا الثقة الكبرى في أن مؤتمر السلام
يلاحظ أننا لم نثر على الدولة التركية التي كنا واياها شركاء في جميع
الحقوق التمثيلية والمدنية والسياسية إلا لأنها تحاملت على حقوقنا القومية

فيحقق لنا رغائبنا بتمامها ، فلا تكون حقوقنا قبل الحرب أقل منها
بعد الحرب ، بعد ما أرقناه في سبيل الحرية والاستقلال ، ونطلب السماح
لنا بارسال وفد يمثلنا في مؤتمر السلام للدفاع عن حقوقنا الثابتة تحقيقاً
لرغباتنا هذه والسلام .

وكان الامير والفتاة لم يريا بدأ من الاتفاق مع المؤتمر السوري على
كل ما جاء في هذا القرار . وقد صرف عزة دروزة جهوداً طيبة في
هذا السبيل . وقضت اللجنة في دمشق ستة أيام في مقابلة الوفود
والهيئات الرسمية ويمثلي جميع الطبقات ، وتلقت وهي في سورية ما يقرب
من ألفي عريضة تكاد تكون كلها مؤيدة لمطلب المؤتمر السوري ، وأعدت
اللجنة رحلة للوقوف على آراء السكان في الارياف وأطراف الصحراء ،
فكان مجموع المدة التي قضتها في المنطقة الشرقية العربية تسعة أيام .
وبعدها توجهت لبلبك للدرس ما جاء في بعض مطالب منطقة الاحتلال
الغربية بتوسيع لبنان وبضم البقاع اليه مع ان ادارته كانت تابعة لدمشق .
ولما كان أكثر من نصف سكان البقاع من غير الكاثوليك ، فانهم
لم يؤيدوا هذا المطلب ، لاسيما وان اتصال دمشق معهم كان وثيقاً .
وبعد أن مكثت اللجنة يوماً واحداً في بلبك ، أتمت استفتاء
المنطقة الغربية ، ثم غادرتها بعد سفرها من دمشق بعشرة أيام قاصدة
حمص عن طريق طرابلس ، فاطلعت على آراء الاهلين فيها وفي حماه
وحلب . ولبثت كذلك ثلاثة أيام في عاصمة شمال سورية . ولم يكن
أحد يشذ عما قيل للجنة الاستفتاء في دمشق ، إلا انهم تشددوا في

المطالبة باستقلال العراق وان لا يكون بينه وبين سورية حواجز ما ،
وكان الداعي لهذا أن حلب مركز من مراكز التجارة الهامة بين
سورية والبحر الابيض المتوسط وبين الموصل والعراق .

وحصل الاقتناع للجنة من وحدة رغبات الشعب التي كانت أقرب
ما يكون الى الاجماع ، ما عدا الساحل الذي كان تحت الضغط الفرنسي .
وخلاصة القول أن مطلب المؤتمر السوري كان مطلب الامة على سواء .
وبعد أن أتمت اللجنة مهمتها في حلب قصدت أضنة فلاستانة
وعادت الى باريس في العشر الثاني من ايلول ١٩١٩ لتقديم تقريرها .
وكان الشعب الاميركي قد خذل الرئيس ولسن ، فواصلت سفرها الى
واشنطن وقدمته الى وزارة الخارجية التي كتبت له حتى سنة ١٩٢٤ .

بعد الاستفتاء :

وقد عمد الامير بعد أن تم الاستفتاء الى الاستمرار في تنظيم شؤون
البلاد . وكان رجالات العرب يعودون اليها من تركيا ، فوصل احسان
الجابري ويوسف العظمة قبل وصول اللجنة الاميركية بعدة غير طويلة ،
فعين الاول رئيساً لبلدية حلب ثم أميناً واختص الامير يوسف العظمة
مرافقاً له ثم معتمداً عربياً في بيروت اذ كان ذا ثقافة عسكرية عالية ،
ومن ضباط أركان الحرب المرموقين في الجيش التركي . وبعد التأكد
من اخلاصهما للعروبة أدخلوا في جمعية الفتاة .

وكان ياسين الهاشمي رئيساً لمجلس الشورى العسكري « الحربي »
(وزارة الحربية) . وتعذر عليه العمل بالصرامة التي يستلزمها الموقف
لتأسيس جيش سوري قوي مدرب بعد الغاء الجيش الذي دخل سورية

مظفرا من الحجاز مع سمو الامير ، بسبب عودة الضباط السوريين الى سورية من تركيا ومطالبتهم بتشكيل جيش جديد . هذا وان الكثيرين ممن يرغبون في الوظائف من الشاميين بدأوا يتشكون من انهم أصبحوا غرباء في بلادهم . وعمل الافرنسيون كثيراً لدعم ونشر هذه النزعات . ولما كنا نود حكومة عربية ، ولم يدر بخلدنا الا كنفاء بسورية ، فقد عانينا وعانى الامير معنا كثيراً للوقوف بوجه هذه الموجة من الاستياء . على أن الفرنسيين راحوا يراقبون بدقة ما يجري في سورية واتجاهها السياسي خشية أن لا ينالوا منها مأرباً ، ولم يكن واضحاً تماماً بعد موقف أميركا ، وكانوا الى ذلك يخشون كثيراً من نتيجة الاستفتاء في سورية ، فقرروا توسيع لبنان وجعل وضعهم فيه ثابتاً . كما انهم قروا دعايتهم فيه واقنعوا مجلس ادارته بتقديم قرار في صالحهم يرفعونه الى مؤتمر الصلح . فأصدر مجلس ادارة جبل لبنان في ٢ مايس ١٩١٩ قراراً جاء فيه :

لما كان جبل لبنان مستقلاً من القديم بمحدوده التاريخية والجغرافية والقطع التي فصلت عنه انما سلخت منه عنوة واغتصاباً بأمر الدولة التركية ، ولما كانت الدولة العاصبة قد تقلص ظلها واضمحلت سيطرتها عن هذه البلاد ، ولما كان لبنان لا يتسع له العيش والرخاء ما لم تعد اليه القطع المفصولة عنه . ولما كانت دول الحلفاء قد أعلنت انها تساعد تحرير الشعوب المظلومة واعادة الاراضي المغصوبة الى بلادها الاصلية ، وكانت القطع المقتصبة من لبنان تعد قسماً منه ومعظم سكانها هم من اللبنانيين أصلاً ، فقد اجتمع هذا المجلس بصفته ممثلاً للشعب اللبناني وأصدر القرار الآتي :

أولاً — المناداة باستقلال لبنان السياسي والاداري بحدوده التاريخية والجغرافية واعتبار البلاد المغصوبة منه بلاداً لبنانية كما كانت قبل سلخها عنه .

ثانياً — جعل حكومة لبنان هذه ديموقراطية مؤسسة على الحرية والاخاء والمساواة مع حفظ حقوق الاقلية وحرية الاديان .

ثالثاً — ان الحكومة اللبنانية والحكومة الفرنسية متفقتان على تقرير العلائق الاقتصادية بين لبنان والحكومات المجاورة .

رابعاً — مباشرة درس وتنظيم القانون الاساسي بطرقه الاصولية .
خامساً — تقديم هذا القرار الى مؤتمر الصلح .

سادساً — اعلان هذا القرار في الجريدة الرسمية وغيرها .

وقد أبلغت فرنسا هذا القرار الى مؤتمر الصلح . وكان هذا القرار في ظاهره لا يتنافى مع الاستقلال التام ، إلا أن ما جاء في مادته الثالثة من الاتفاق مع فرنسا هو كل ما ترمي اليه فرنسا لئتم لها الحصول على الانتداب عليه وعندها يصبح الاستقلال اسماً كما رأينا ذلك بالفعل .

وبعد أن تم الاستفتاء وعلم الفرنسيون نتيجته في سورية ، واستوثقوا من الصعوبات التي ستجابههم للحصول على ما يرمون اليه ، راجعوا الحكومة الانكليزية مطالبين بتنفيذ معاهدة سيكس — بيكو ، ونظموا حملة صحفية في جرائدهم غايتها تطبيق المعاهدات المعقودة بين فرنسا وانكلترا . وقد أيدم كثير من الصحف الانكليزية حتى اضطر الانكليز لإرضاء للفرنسيين أن يبلغوا مؤتمر الصلح بأنهم لا يقبلون الانتداب على سورية .

ثورة الشيخ صالح العلي :

وكانت الدعاية الوطنية قد بلغت أشدها ، فقامت المظاهرات في كل مكان واشتد الشعور الوطني على حدود المنطقة الغربية .

وبدأت الاضطرابات بالظهور . وقد وقع أول اضطراب جدي قبل منتصف شهر مايس ١٩١٩ بسبب ضغط رجال السلطة الافرنسية في المرقب بجبل العلويين باللاذقية على السكان ارضاءً للمالئين لهم وعملوا على تسليم أراض تخص خصومهم لهؤلاء النفعيين المالئين . ولما كانت دعايتنا الوطنية على أشدها قاوم السكان برئاسة الزعيم الشيخ صالح العلي السلطة الافرنسية بقوة السلاح الذي كان متوفراً بعد انسحاب الجيش العثماني ولم يأل وطنيو دمشق جهداً في مساعدة مواطنهم . وانتصر رجال الشيخ صالح على الافرنسيين عدة مرات ولم يمكنوهم من دخول بلدة المرقب مما حدا بقائد الجيش الافرنسي الجنرال هملان أن يطلب من المارشال آللني قائد جيوش الحلفاء العام امداده بنجندات بريطانية تطبق على جبل العلويين من اتجاه حمص وحماه ، ولكن تدخل الامير فيصل حال دون تحقيق ذلك . واستمرت هذه الثورة أكثر من ثلاثة اشهر . وكان رسول وطني دمشق للشيخ صالح هو السيد محمود حمزه الذي كان يعرفه ، كما أن وجود رشيد طليع متصرفاً في حماه المتاخمة لجبال العلويين ساعد ثورة العلويين كثيراً لأنه سبق لرشيد طليع أن كان متصرفاً في اللاذقية وله اتصال بأهلها .

فاضطرب الافرنسيون لقبول نصيحة القيادة العليا البريطانية والتخلي عن الغطارسة والنكاية ، ونجحت الوساطة البريطانية بعد أن تعب الثوار

من الحرب مع الالوف من الجند الافرنسي وقلّت ذخيرتهم ، فقبل الشيخ صالح القاء السلاح شريطة التعويض على الثوار في خسائرهم ، وتعيين صديقه ابراهيم الكنج من زعماء العلويين قائمقاماً لبانياس . لكن روح العطرسة الفرنسية لم تتحمل هذا الحل فعاد الفرنسيون الى استعمال سياسة الشدة مع الشيخ صالح وأتباعه ، وساقوا عليه جنودهم الحاشدة بعد أن أصبح لهم الأمر وحدهم وبعد تنكرهم لوعودهم وإسقاطهم حكومة دمشق الوطنية . فهب الوطنيون في دمشق عندئذ لمساعدة اخوانهم خفية . وظلت المقاومة حتى صيف ١٩٢٢ حين اضطر للاستسلام لهم .

وقبل أوائل ايلول ١٩١٩ وعقب حوادث الشيخ صالح الأولى واشتداد الشعور الوطني لدى دروز لبنان بعد أن ظهر أن الكلمة الأولى في بلادهم ستكون لفرنسا ، هاجم نخبة من شباهم الوطني المسيو جورج بيكو والاميرال مورني وأتباعهما عندما كانوا في زيارة للبنان مارين ببعقلين في طريقهم الى بيت الدين . فلم يصب جورج بيكو ، إلا أن الاميرال جرح جرحاً خطيراً ، فتأثرت السلطة الفرنسية من هذا الحادث كثيراً ، لكنها كتمته لأن الفرنسيين يتبعجون دوماً بتعلق أهل جبل لبنان بهم ، ونكلت بسكان القرى التي ظنت بأن لها دخلاً بالحادث المذكور تنكياً فظيماً حتى انهم سيروا قوى كبيرة فتكت بالقرى الآمنة ، فهرب الشبان القادرون على حمل السلاح الى الخابى . التي يعرفونها في الجبال ، وبدأوا حرب العصابات ضد السلطة الفرنسية المحتلة التي لم تسلك مسلك الحكمة واللين ، فأمرت بارسال القوات المسلحة بالمدافع والقنابل اليدوية الملتهبة ، فأحاطوا بمزرعة الشوف بقصد الارهاب وجعلها عبرة لغيرها ، ورموها بمدافعهم وقذائفهم ، فأحرقوا المنازل

وقتلوا الكثير من النساء والاطفال والشيوخ ، ففر النساء والاطفال والشيوخ والمعجز على وجوههم ، ووصل منهم للشام أكثر من مئتين ، فضجت البلاد عندما رأت هذا المنظر المحزن وسمعت مارواه هؤلاء البؤساء . فكان كل هذا مما يحفز فيحصل للعمل على انهاء الوضع الشاذ الذي كانت البلاد تن تحت أعبائه ، فراجع القائد الأعلى المارشال آللني ، إلا أن انكلترا قررت اظهار حسن نواياها لفرنسا سيما بعد قبول كنصو التنازل عن الموصل وضمها للعراق .

فأرسلت القيادة العليا البريطانية في الشرق الكولونيل ماين هيرزاكن ومعه السكابتين الفرنسي كولوندر في ٩ ايلول ١٩١٩ لابلاغ الامير أن بريطانيا تعلن رفضها الانتداب على سورية ، وان الجنرال آللني عازم على اعادة الأمن الى نصابه اذا حدثت قلاقل أو اضطرابات ضمن منطقة قيادته . فأجابه الامير بأنه لا يوافق على تقسيم البلاد العربية المفصولة عن تركيا أبداً ، ولا يساعد على استعمارها ، وان سبب المظاهرات والاضطرابات التي يقوم بها الشعب هو خوفه من أن تهضم حقوقه وعدم اطمئنانه على مصيره . فكان جواب الكولونيل ان المارشال آللني سيعاقب كل محاولة مشروعة كانت أم غير مشروعة تخل بالأمن والنظام .

دعوة الامير الى لندن :

وبعد أن تأزمت الامور الى هذا الحد رأى رئيس الوزارة البريطانية المستر لويد جورج أنه لا يليق ببريطانيا أن لاتراعي شعور حليف قام بكل ماله من امكانيات المساهمة في النصر كفيصل . فأبرق اليه في

١٠ ايلول ١٩١٩ يستدعيه للحضور الى انكارتا لتدبير الوضع معه حسب الاتجاه الجديد قبل التوقيع على الاتفاق البريطاني الفرنسي المزمع عقده ، على أن لا يتأخر وصوله الى لندن عن يوم ١٦ ايلول . فأسرع الامير بالسفر الى حيفا بقطار خاص في ١٢ منه ، وأبحر حالاً على نسافة بريطانية قاصداً مرسيليا . وكان في معيته المقدم أركان حرب محمد اسماعيل والشاعر المعروف الشيخ فؤاد الخطيب سكرتيه للشؤون الخارجية وحداد باشا مدير الأمن العام والدكتور أحمد قدري طبيبه الخاص والخوري يوسف اسطفان الخطيب الماروني الذي التحق بوطني دمشق وأصبح خطيبهم المفوه وتوفيق الناطور وجميل الاشلي ومراققه العسكري تحسين قدري ثم لحق به الامير أمين أرسلان والامير فايز شهاب اللبناني والدكتور سامح الفاخوري ، ليكونوا مستشاري جلالة في رحلته الخطيرة هذه . وكان ظاهراً من انتخابهم الرغبة في وجود عدد مهم من رجالات لبنان الموثوق بهم معه .

ومن الطبيعي أنه كان يجب أن تسرع النسافة البريطانية بالسير وهي تقل الامير ، إلا أنها تباطأت في ١٥ ايلول في السفر ، وعرجت على مالطة بحجة احتياجها لبعض الاصلاحات والوقود ، وحللتنا ضيوفاً على المارشال بلومر حاكم الجزيرة . فاهتم الحاكم بالامير كثيراً وأعد لزيارته للجزيرة برنامجاً حافلاً بزيارات معالم الجزيرة وقصورها التاريخية التي ترجع الى عهد الحروب الصليبية ، ومشاهدة مسابقات الالعاب الرياضية ، رغم الغبار الذي كان (يعمي العيون) بسبب قلة المياه وعدم امكان رش الطرقات . فطأت الرحلة بذلك يومين قضيناها في مالطة ، الامر الذي جعل الامير يصل الى مرسيليا في ١٨ ايلول . وكان سبب هذا

التأخير المتعمد الوصول الى توقيع الاتفاق بين الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية على البدء بتطبيق اتفاقية سيكس - بيكو في سورية قبل وصول الامير . وبموجب ما تم الاتفاق عليه في ١٥ ايلول يجلو الجيش الانكليزي عن سورية كلها داخلها وساحلها ويحل محله الجيش الفرنسي ، ويستثنى من الاحتلال الفرنسي ما يسمى بالمدن الاربع الداخلية وهي محافظات دمشق وحمص وحماة وحلب والبلاد الكائنة في شرقها كحوران والبلقاء والدير ، وتدخل الاقضية الاربعة (البقاع ، بعلبك ، حاصبيا ، راشيا) التي كانت تابعة للمنطقة الشرقية في منطقة الاحتلال الافرنسي وفقاً لما جاء في اتفاقية سيكس - بيكو . وتم توقيع هذا الاتفاق في ١٥ ايلول وأبلغ الى المؤتمر كتدبير موقت الى أن يصدر المؤتمر قرار الانتدابات ولا يؤثر ذلك في القضايا الخاصة بالانتدابات . وفي ١٧ ايلول نشر في باريس بلاغ رسمي هذا نصه :

« تقرر في الاتفاق الذي عقد بشأن حلول الجنود الافرنسية محل الجنود البريطانية في سورية وكيليكية أن تترك من الآن المدن الاربع وهي دمشق وحمص وحماة وحلب وشرقيهن خارج منطقة الاحتلال العسكري الفعلي » .

ومعنى ذلك أن لا يبقى في المدن الاربع إلا القوى العسكرية العربية . وكان مشروطاً في الاتفاق أن يتم جلاء الجيش البريطاني ويحل محله الجيش الفرنسي في أول شهر تشرين الثاني . وهذا يعني جعل الأمير فيصل أمام الأمر الواقع اذ كان بحكم المؤكد أن أميركا لن تقبل انتداباً ما ، ولم يكن من المعروف الوقت الذي ستبرم فيه أميركا معاهدة

الصلح . فالتدبير الذي قيل انه موقت يصبح دائماً بحكم الواقع . وقد علم الامير بكل ما تقدم من مندوبي الحجاز في مؤتمر الصلح ، وذلك عند وصوله الى مرسيليا . فأصرع بالسفر الى لندن عن طريق باريس فوصلها في ١٩ ايلول ، وكان استقباله حافلاً كأن هذه المظاهر تخفف من وقع المصيبة التي بدأت بالظهور بعد تلك الآمال الذهبية بنيل العرب استقلالهم وتقوية روابط الوحدة التي كانت قائمة بينهم في العهد العثماني . وقابل الامير اللورد آللني بدون ابطاء ، ومضى معه لمقابلة رئيس الوزارة البريطانية . وكانت المقابلة كلها مجاملة والعمل على تطيب خاطر الامير ، لكنهم أفهموه بصراحة أن عليه أن يتفق وفرنسا ، ووعدوه بالمداخلة عن وجهة نظره لدى كمنصو .

وقد دعي الامير في لندن الى حفلة أقامها اللورد مير « أمين العاصمة » لتكريم المارشال آللني بعده لندياً ، كما دعي اليها أعضاء الوزارة ورئيسا مجلس اللوردات والعموم ، فاستقبله اللورد مير بمظاهر الحفاوة البالغة وقدمه على جميع الحاضرين حتى كأن الحفلة قد أقيمت على شرفه . ولما كان الامير يقول بأن تطبيق ماتم الاتفاق عليه أخيراً بين فرنسا وانكلترا يستلزم قيام المظاهرات وحدث الاضطرابات في البلاد ، فقد تحدث كثيراً في هذه القضية مع رجالات وزارة الخارجية البريطانية وطالب بتنفيذ اليهود المعطاة لآبيه الحسين نيابة عن انكلترا من قبل ماكاهون المندوب السامي البريطاني بالقاهرة ، وهي صريحة بخصوص تشكيل حكومة عربية مستقلة في سورية الداخلية بما فيها شرقي الاردن وولاية الموصل بدون أن يترك ذلك مجالاً لأي تأويل ، كما انه لا يوجد في اتفاق سيكس - بيكو ما يخالف ذلك إلا كون تلك المنطقة ، عدا

الأردن ، منطقة نفوذ اقتصادي فقط لفرنسا التي تقدم لها مآثرى انها
 بحاجة من الفنين ، ولا يحق لها احتلالها والتدخل بشؤونها ، إذ ان
 فيصل لم ينس ما كان قد قاله له ككنصو بأن فرنسا تود أن ترى عليها
 يرغرف على دمشق مع قوة عسكرية ولو قليلة تمسك فيها . ولهذا
 اهتم فيصل كثيراً ببدء ذي بدء بالغاء ما تم الاتفاق عليه في ١٥ ايلول
 ١٩١٩ بين فرنسا وبريطانيا حتى تبقى لقضية البلاد صبغتها الدولية ، ولا
 تكون يد فرنسا فيها طليقة . إلا أن كل ما يمكن من الوصول اليه
 هو أن اتفق مع بريطانيا على تشكيل لجنة عسكرية من أربعة ضباط :
 افرنسي وانكليزي وأميركي وعربي ، للنظر بالاختلافات التي قد تقع .
 وبما أن هذا لا يخل بجوهر اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ فقد وافق الانكليز
 عليه مبدئياً وكلفوا فيصل بمفاوضة ككنصو في باريس وتوسطوا لديه
 ليدعو الأمير لمقابلته . فغادرنا بريطانيا في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٩
 قاصدين باريس .

في باريس :

وفي اليوم الثاني من وصولنا الى باريس قابل الأمير ككنصو مقابلة
 ودية لم تنتج أي حل عملي حتى ولا تأليف اللجنة المذكورة . ولم تعد
 مراجعات الوفد العربي في مؤتمر الصلح للوفد الاميركي بطلب التدخل
 لعدم قبول الاتفاق البريطاني - الفرنسي الجديد المعقود في ١٥ ايلول ١٩١٩ .
 وبذلك تخلى البريطانيون عن العرب لقاء تنازل الفرنسيين لهم عن ولاية
 الموصل التي كانت داخلة في حدود سورية العربية بموجب اتفاق
 سيكس - بيكو ، وعن ثروتها البترولية العظيمة . وكان من الظاهر انه

لو لم يحصل هذا التخلي أو اذا لم تكن الدولة العربية التي من ضمنها الموصل تابعة لأخذ المعونة الاقتصادية من فرنسا ، لما قبل لويد جورج اعطاء فرنسا حرية العمل في سورية الداخلية .

وبعد أن تأكد الامير من عدم تمكنه من الاعتماد على بريطانيا لأجل تحقيق وعودها المعطاة الملك حسين بعقدها اتفاق ١٥ ايلول ١٩١٩ ونصح بريطانيا له بالانفاق مع كلنصو ، راح يبذل كل جهوده للوصول الى غايته عن هذا الطريق . وقد كلفت الحكومة الفرنسية قدور بن غبريط وزير التشريفات في البلاط الشريف المراكشي الموكل اليه اقناع من تود فرنسا اقناعه من رجالات العرب باتباع السياسة التي تود تحقيقها ، بأن يكون لسان حالها للتأثير على الامير واستمالته .

وكرت مجاملتهم له ، فكان يدعى الى الحفلات التمثيلية وحفلات الباليه الخصوصية ، ويجامله كلنصو كثيراً ويزوره . وفتح المسيو غو مدير الشؤون الشرقية في وزارة الخارجية الفرنسية والمسيو برتلو المدير العام لوزارة الخارجية المباحثات مع الامير للتوصل الى حل لقضية سورية يرضيه ويتمشى مع خططهم . فاستمرت هذه المحادثات مدة طويلة كنا خلالها نغير ونبدل في المسودات التي ترسلها لنا وزارة الخارجية بما يجعلها موافقة لخطتنا . ومن الطبيعي أن لا يوافق المفاوض الفرنسي على ذلك .

وفي هذه الاثناء عينت الحكومة الفرنسية الجنرال غورو وهو من كبار قوادها مندوباً سامياً لها في سورية وقائداً عاماً للجيش الفرنسي في الشرق . وقد صرح قبل سفره الى بيروت بأن مهمته هي ابدال

الجنود البريطانيين بالجنود الفرنسيين في تلك البلاد الى أن يقر مؤتمر السلام مصير هذه البلاد . ولكن هذا لم يبدد المخاوف التي اعترتنا بسبب اختيار قائد كبير مندوباً سامياً لفرنسا في سورية وإرفاقه بكثير من الضباط وقرار ارسال قوى فرنسية كثيرة لبلادنا . فاضطررنا لاستمالة الرأي العام الفرنسي ، علّ ذلك يفيد في الوصول الى رغبات أهل البلاد ، فصرّح الامير في اجتماع صحفي له في باريس في « انه يرغب في اتفاق ودي مع فرنسا ، والتعاون مع الجنرال غورو ، إلا أنه لا يتمكن من التسليم بتجزئة البلاد خلافاً لرغبات سكانها والوعود الرسمية التي وُعد بها وبأن لا يتم في بلاد العرب أي حل يخالف رغبات السكان ، وقد رفضت ما طلبه مني المستر لويد جورج بهذا الخصوص » . وكان الراغب في ذلك هو لويد جورج وليست فرنسا .

وبدأت المفاوضات مع الميسو غو والميسو برتلو ، تارة في وزارة الخارجية الفرنسية ، وأحياناً في مقر الامير . وكان رسم حيدر وعوني عبد الهادي يفاوضان تحت اشراف فيصل وفق توجهاته ، ثم يجمعنا ويبلغنا تفاصيل كل ما يحدث للاتفاق على الخطة الواجب اتباعها . وكان همنا الاوحد الحيلولة دون احتلال القوى الافرنسية لأي جزء من المنطقة السورية الشرقية لتحل محل قوى الجيش البريطاني المنسحب . ثم انتهت مباحثات الامير مع برتلو مدير عام وزارة الخارجية بهذا الخصوص بعقد الاتفاق الموقت العسكري الآتي :

١ — تأليف لجنة من افرنسي وعربي وانكليزي لتسوية المشاكل التي قد تحدث بين المناطق .

٢ — انسحاب الجنود العربية من البقاع التابع للمنطقة الشرقية

المستقلة « ولو انه بمقتضى معاهدة سيكس - بيكو ضمن المنطقة العربية » .

٣ - يشرف على أعمال الشرطة والدرك الموجودة حالياً بالبقاع هيئة مختلطة مؤلفة من ضباط افرنسيين وعرب يتفق عليها محلياً .

وأرسل الامير بواسطة وزارة الخارجية الافرنسية لنائبه بدمشق الامير زيد بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني ١٩١٩ برقية عن الاتفاق الذي تم للعمل بموجبه وهذا نصها :

اخبركم بكل سرور أن الحكومة الافرنسية قبلت بتأليف اللجنة التي طلبتها والتي ستكون مؤلفة من انكليزي وافرني وعربي لتسوية المشاكل التي قد تحدث بين المناطق ، وإبتغاء تطمين أهالي سوريا بأن الاتفاق هو عسكري محض وموقت فالجنود الافرنسية لا تحتل البقاع ولا محلا آخر من منطقتنا الحاضرة ، والجنود العربية سوف تنسحب من البقاع دليلاً على ثقتنا المتبادلة ويبقى الدرك العربي هنالك مكلفاً بحفظ النظام والأمن تحت أوامر القائمقام ، وعند اللزوم يؤتى بمفرزات درك من دمشق اذا كانت القوى الموجودة غير كافية .

وسيعهد الى هيئة مؤلفة من ثلاثة ضباط افرنسيين وثلاثة عرب معاً أن تلاحظ بالاتفاق حسن تنفيذ وظائف الشرطة والدرك في تلك الجهة وترفع تقريرها الى القائمقام .

المفاوضات جارية مع الحكومة الافرنسية باخلاص وثقة متبادلة ، فليطمئن الاهلون ، وليهدأ بالهم ، وقد بلغت الحكومة الافرنسية هذا الاتفاق الى الجنرال غورو .

« فيصل »

والظاهر ان هذا الاتفاق لم يرق للجنرال غورو الذي وصل الى

بيروت في ١٨ تشرين الثاني ، فأعدت السلطات الافرنسية له استقبالا حافلا حشدت له من أذنانها كل من تربى بالمدارس التبشيرية وكل مأجوريها ، وشرع غورو فوراً بالاستفادة من الظروف المواتية لفرنسا وعمل على تحقيق ما يهدفه ومساعدوه نصراً عسكرياً بأن يسرع باحلال الجنود الافرنسية المتدفقة على الساحل السوري محل الانكليزية المنسحبة من المنطقة الغربية (الساحل السوري) بما في ذلك البقاع التابع آنذاك لسورية الداخلية . لذلك أخر تسليم برقية فيصل المذكورة الى نائبه الامير زيد الى ما بعد اضطراره لذلك في آخر الاسبوع الاول من شهر كانون الاول ١٩١٩ اذ ان وزارة الخارجية أوسع أفقاً منه ويهمها ارضاء فيصل ، الى أن تحصل على الانتداب ثم تنصرف للعمل كما يحلو لها تحت ستاره .

وبعد ان أخر غورو تسليم برقية الامير اتصل بقيادة الجنرال آلنبي العامة وطلب اليها تسهيل احلال الجنود الافرنسية محل البريطانية المنسحبة من الاقضية الأربعة ، فأرسلت ضابطاً كبيراً مندوباً عنها لدمشق ، فقابل الأمير زيد مع الكولونيل كوس ضابط الارتباط الافرنسي بحضور مستشاره العسكري نوري السعيد والحاكم العسكري رضا الركابي ويوسف العظمة المعتمد العربي في بيروت بعد ان نحي جميل الالشي عن تلك الوظيفة . فسمى الضابطان الفرنسي والانكليزي لاقتناع حكومة دمشق بقبول هذا الاحتلال الذي ليس له الا صبغة عسكرية ، فلم تقبل وارتأت ان تستفيد من حنكة وخبرة نوري باشا العسكرية فكلفته بالعمل على حل هذه العقدة الشائكة بصلاحيه واسعه عله يتمكن من منع احتلال حاصبيا وراشيا والبقاع وبلبك ، فسافر حالاً الى بيروت ، وقابل الجنرال

غورو واستعمل كل ما أمكنه من لباقة وحجة لافناعه بعدم احتلال
القضية الاربعة المذكورة ، وتمكن من الاتفاق معه على احتلال رياق
فقط وارسال ضابط ارتباط افرنسي مع قوة افرنسية صغيرة رمزية لكل
من المدن الاخرى ، ولا شك بأنه كان لاتفاق فيصل مع وزارة
الخارجية في باريس دخل بهذا التساهل ، ونظراً للارتباك الذي ساد
البلاد آنذاك كان على السلطة الافرنسية ان تحجز قائم مقام بعلبك « الرئيس
الاداري من قبل حكومة دمشق فيها » عن وصول ضابط الارتباط
الافرنسي المتفق على اقامته فيها ، الا انه وصل اليها مباغتة ومعه عدد
من الجنود الافرنسيين ، فمنع الالهولون دخوله فساد لبيروت وأبلغ ذلك
لقيادته ، فأرسلت الجنرال دي لاموط على رأس قوة عسكرية كبيرة
يبلغ عددها نحو الف جندي من خيرة الجنود ومجهزة بالسلاح الثقيل
لدخولها عنوة ، فدخلتها في ١٩ كانون الاول بعد أن اشتبكت مع
الاهلين في قتال مرير في مشارق المدينة استمر يوماً كاملاً . وزاد
هذا الحادث الحالة ارتباكاً في دمشق مما اضطر الامير زيد الى شرح
الموقف الحرج لأخيه فيصل في باريس بكل وضوح ، إلا أنه لم يكن
افيصل أي باب يطرقه بعد أن تخلى عنه البريطانيون والاميركان إلا
الرئيس كمنصو ، فهد لذلك بمذاكرات طويلة مع غو و برتلو ثم أرسل
له بتاريخ ٢٢ كانون الاول ١٩١٩ الكتاب الآتي :

يا حضرة الرئيس

لا أزال تحت تأثير الاستقبال الجميل الذي تلتفتم به عليّ واني
أحسب من أعز واجباتي أن أشكركم على ذلك .

« وقد وافقت امثالاً لرغبة حضرتكم على تأخير سفري الى أن يعود المسيو برتلو ، أملاً أن نحل في هذه البرهة حدود لبنان ، واني سعيد جداً لتمكيني من أن أقدم في هذه المناسبة دليلاً جديداً على رغبتني القوية في الوصول الى اتفاق حقيقي .

« ولا شك أن العطف والاهتمام اللذين أظهرتموهما لي بمثابة جسارة على أن أعرض بكل اخلاص على سعادتكم ما يخامرني من القلق الذي لم تكن وضعية الجنرال غورو في البقاع إلا تزيد شدة ، ورغم ما من محاذرتي اضاءة وقتكم الثمين فاني لا أرى مندوحة من أن أنخص ل حضرتكم الموقف الحاضر كما هو :

« ان من مقتضى الاتفاق الذي عقدناه في الخامس والعشرين من الشهر المنصرم بأن لا تحتل الجنود الافرنسية البقاع وأن تنسحب منه الجنود العربية ولا يبقى محلها وخاصة في بعلبك وحاصبيا وراشيا إلا الدرك التابع لأوامر القاءقامين وستؤلف بعثة تفتيشية من ثلاثة ضباط عرب ومثلهم افرنسيون يرسلون معاً الى تلك النواحي لكي يلاحظوا بالاتفاق حسن تنفيذ وظائف الدرك والشرطة المسؤولين عن الأمن ، واذا وجد الضباط العرب والافرنسيون أن قوات الدرك غير كافية فتعزز بقطعات دركية أخرى يؤتى بها من دمشق .

« فهل التجاوز الذي وقع على الضابط الافرنسي وجاويشه يبرر الاخلال بهذا الاتفاق ويحيز القرار الذي اتخذه الجنرال غورو ؟ خصوصاً ان السلطات المحلية هي المسؤولة وحدها عن ارجاع الأمن وان جلب القوى من دمشق عند الضرورة منصوص عنه في هذا الاتفاق .

« لذلك فاني أرى من واجبي أن أصر على لزوم الاحتفاظ بهذا الاتفاق الذي هو أول اتفاق بيننا ليكون له وقع حسن في نفوس الاهلين ويسهل لي القيام بمهمتي ، ويزيد في الثقة المتبادلة بيننا ، لتنمية مناسباتنا في المستقبل .

« وقبل أن ننظر في فصل مسألة حدود لبنان التي نعمل على حلها فإن حضرتكم اذا أعطيتم أمراً بسحب الجنود التي احتلتها خلافاً لاتفاقنا تكونون قد أظهرتم دليلاً جديداً على اهتمامكم العالي بنجاح مذاكراتنا ، وخففتكم بذلك عني عبئاً ثقيلاً :

« وأرجو أن يجد طلبي هذا قبولاً حسناً لديكم وتفضلوا ...
وتمكن الامير بلباقته السياسية وكياسته من تخطي هذه المعضلة بسلام وحصل على ارسال أمر لغورو بسحب القوة الغازية من بعلبك ولم يبق فيها إلا ضابط الارتباط فقط .

واستمرت المحادثات ، فطلب المفاوضون الافرنسيون أن يكون لفرنسا مستشارون ذوو سلطة لوزارات الداخلية والحربية والمالية والمعارف والعدلية والاشغال العامة . وهذا يعني أن ادارة البلاد كلها ستكون في أيديهم فلم يقبل الامير بهذا الطلب ، ورجع الى المسيو كلنصو كي يخفف المفاوض الفرنسي من غلوائه ، وأصر الامير على أن يكون المستشارون موظفين لدى الحكومة السورية ، كما أن المفاوض الفرنسي طلب سلخ الاقضية الاربعة وهي البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا من سوريا وضماها الى لبنان وكذلك ضم القسم الخارج عن فلسطين من ولاية بيروت الى لبنان وهو مدينة بيروت وأقضية صيدا وصور ومرجعيون ومنصرفية

طرابلس . ومن الطبيعي ألا يقبل الأمير ذلك فوسط كلنصو في تحكيم مؤتمر الصلح في ذلك ، كما ان المفاوض الفرنسي لم يقبل استفتاء السكان في المناطق المذكورة .

وفي أثناء المباحثات كانت تصل للأمير أخبار مقلقة من سورية عن اضطراب جبل الأمن في كثير من نواحيها . وقد بدأت في الحولة علائم الاضطرابات في ١٢ تشرين الاول نتيجة تمدي بعض افراد قوى أمن المنطقة الغربية على الاهلين . فقاومهم العربان بالسلاح وأجبروهم على الفرار ، فعمدت السلطة الفرنسية الى استعمال الشدة وأرسلت لمكان الحادث سرية كاملة من الخيالة ومعها رشاشان وضربت قرية الحصاص بدون انذار ، وهي قرية محمود الفاعور أمير عرب الفضل النازلين في الجولان من أراضي القنيطرة ، فهاج الاهلون ورغبت الحكومة السورية أن تحل الحادث صلحاً ، واشترك الانكليز معهم في هذه الرغبة ، إلا أن الافرنسيين لم يستجيبوا عملياً لهذه الرغبة ، فساد الاضطراب قضاء مرجعيون المجاور لمكان الحادث ، وانتشرت العصابات تنازل القوى الفرنسية ، فأرسلت السلطة العسكرية الفرنسية الى هناك قوة عسكرية كبيرة تحت قيادة الجنرال دولاموت وضربت قرية « الخالصة » و « كفر كلا » وغيرها من القرى المجاورة للمنطقة الشرقية ، كما دخلوا تلك المنطقة وخربوا بعض القرى التابعة للقنيطرة بالمدافع ، وصبوا البترول على البيوت فأحرقوها ونهبوا كل ما وجدوه من غنم وبقر وأثاث . كما نهبوا في قرية الطيبة بيوت آل الاسعد .

واستمرت المعارك لغاية العشر الاول من كانون الثاني ١٩٢٠ وانتصر الثوار على المهاجمين الفرنسيين في عمرة الأمير محمود إذ خسر الفرنسيون

فيها سبعين قتيلا ومدفعين جبليين وعشرين رشاشاً وكثيراً من الاسرى
فاستلمتها الحكومة وسلمتها للسلطة الفرنسية في بيروت . كما انه وقع بعد
بدء حوادث الحولة بما يقرب من شهر اصطدام بين أهالي تل كلخ والقوى
الفرنسية بسبب رفع العلم الفرنسي على دار الحكومة في تل كلخ لأول
مرة . ولم تسلك السلطة العسكرية الفرنسية خطة المسالمة وهددتهم
بضرب منازلهم بالمدافع وحرقها . فحزم الاهلون أمرهم على الدفاع وشكلوا
لجنة من خالد الرستم وحسن ابراهيم الدندشي وعبد الله الكنج الدندشي
وأحمد البرازي لتضطلع بتلك المهمة ، وطلبوا انزال العلم الفرنسي من
تل كلخ وتشكيل حكومة وطنية من أهل البلاد فيها وعدم تجزئة الوطن
العربي ، فرفض الفرنسيون ذلك ، فاندلعت نيران الثورة وحاصر
الاهلون ، وفي مقدمتهم الدنادشة ، دار الحكومة في تل كلخ المسلحة تسليحاً
قوياً وقتلوا كثيرين من حاميتها فأمدتها بيروت بقوى كبيرة ، ولكنهم
لم يتمكنوا من التغلب على الوطنيين الذين كانوا يدافعون عن حمام بشرف
وعناد . إلا أن الامدادات الكثيرة المجهزة بالمدافع والرشاشات التي لم
يكن مع الوطنيين شيء منها اضطرت الثوار الذين نفدت معظم ذخيرتهم
الى مناوشة الفرنسيين بطريقة حرب العصابات ، ونزح زعمائهم الى
دمشق فاستقبلهم وطنيوها ، ودامت مناوشة الدنادشة للقوى الفرنسية الى
أن سقطت حكومة دمشق .

ومن الاخبار التي وردت مورد القلق على الامير ما وافاه من أن
السلطة العسكرية الانكليزية استدعت ياسين الهاشمي رئيس ديوان الشورى
الحربي في ٢٢ تشرين الثاني أي قبيل جلاء الجنود البريطانيين عن دمشق
في أواخر الشهر المذكور ، الى دار القائد العسكري الانكليزي ولدى

وصوله اعتقل في سيارة عسكرية مسلحة سارت به الى فلسطين الى بلدة الرملة . وما كاد هذا النبأ يتصل بالمسامع حتى احتجت دمشق كلها ، وقامت المظاهرات في شتى الانحاء ، وأقفلت الاسواق ، وصدرت الصحف مطوقة بالسواد ، وأبلغت الهيئات الوطنية السورية معتمدي الدول في دمشق احتجاجاً هذا نصه :

« ان الشعب السوري وعاصمة البلاد السورية يحتجان باقفال جميع أسواق المدينة وبالإشتراك في مظاهرة عمومية عظمية على أخذ ياسين باشا الهاشمي فجأة وبلا علم من رئيس الحكومة وخلافاً للأصول وارساله الى فلسطين . ويكرر ارادته في طلب وحدة البلاد السورية وتام استقلالها فترجو رفع هذا الاحتجاج الى حكومتكم واقبلوا فائق الاحترام . »

ويعزى سبب اعتقال الهاشمي الى الفرنسيين في بيروت ، إذ طلبوا اخراجه من دمشق لكونه وهو على رأس « مجلس الشورى الحربى » شرع يبذل غاية النشاط في سبيل تشكيل جيش سوري ، كما أقر وهيئة الفتاة الادارية طلب اقرار الخدمة العسكرية الاجبارية وساعد الثوار في المنطقة النورية . لذلك سعوا للإخلاص منه حتى لا يقاوم خططهم الاستعمارية . كما ان الانكليز شعروا بمساعدته للوطنيين ، فاجتهد فيصل بكل قواه سواء في لندن أو باريس لحل هذا الحادث المؤلم ، على أن اتفاق بريطانيا وفرنسا وجلاء الانكليز بمجنودهم عن سورية لتحل محلها الجنود الافرنسية ثم اعتقال الهاشمي وما لابس هذه الحوادث وتلاها ، جعل الافكار النيرة تؤمن بأن من العسير الصمود أمام جشع المستعمر إلا بالقوة ، لذلك اقترح الوطنيون المتحمسون ، وفي مقدمتهم رجال الفتاة والاحياء ، انشاء لجنة للدفاع الوطني الاهلي كي تساعد الحكومة

في مهمة الدفاع وجمع كلمة الامة . فماشت الحكومة الرأي العام ، وتأسست اللجنة الوطنية للدفاع ولها فروعها في المدن السورية . وكان أول اجتماع لهذه الغاية في منزل آل الحسيني ، ثم تلاه اجتماع آخر بالبلدية . ولما كنت قد لحظت أن جميع من في معية الامير يشجعونه على عقد اتفاق مع كلنصو ، كتبت الى هيئة ادارة الفتاة بدمشق بغية مقاومة هذه الفكرة ، والافادة من الشيخ كامل القصاب في اندفاعه وخبرته في أساليب التأثير على عقول الجماهير لنتمكن من الوصول لرفض الاتفاق ، فلي القصاب الرجاء ، وحضر في ٢٧ تشرين الثاني اجتماعاً بالقنوات بدار آل البارودي ، وخطب خطبة حماسية طالب فيها بالاستقلال التام كما طلب من الحاضرين توقيع ميثاق برفض كل اتفاق يحد من سيادة الامة ويقيد استقلالها . ولم يخرج الحاضرون إلا بعد توقيعه . وهكذا أصبحت للقصاب الكلمة الاولى في اللجنة الوطنية ، وتقرر تجنيد الف متطوع على نفقة الاهلين ومن حرّ ما لهم .

ولما تأزمت الحالة في البلاد وانتهت الى هذا الحد من الشدة ، ولم يتمكن رضا باشا الركابي من اقناع رجال جمعية الفتاة والوطنيين المندفعين بالرجوع عن قرار مقاومة القوة بالقوة وتقرير الخدمة العسكرية الاجبارية لتقوية الجيش وعن مساعدة الثورات الوطنية التحريرية في المنطقة الغربية (لبنان) ، فقد هدد بالاستقالة خوفاً من العقبي التي يفرضها البون العظيم بين قوى الطرفين ، وهو الرجل العسكري والاداري المتاد على درس النتائج قبل الاقدام على العمل . وكنت في مقدمة القائلين بالمقاومة وبتقرير الخدمة العسكرية الاجبارية مع ادراكي نتائجها حتى لا يكون لفرنسا حجة تنذر بها دولياً لاستمرارنا ، فبحثت الجمعية الاستقالة وقررت

المضي باصدار قانون الخدمة العسكرية الاجبارية والاستفادة من الحماس الوطني المتأجج وعدم ترك الثوار الوطنيين يذبحون ذبح النعاج لالذنب اقترفوه إلا تمسكهم بكرامتهم الوطنية ، وحقوقهم الانسانية ، فتركهم وشأنهم خطة يتعذر قبولها سيما بعد أن ظهرت نوايا الحلفاء بحق حلفائهم العرب ، وأيد الجمعية بذلك جميع الوطنيين ، وفي مقدمتهم أعضاء المؤتمر السوري . وقد زاد جلاء الانكليز عن دمشق في ٢٥ تشرين الثاني ١٩١٩ ضرام الحماس الوطني اشتعالاً ، فقرروا طلب تشكيل حكومة وطنية برلمانية . وقد استشار الامير زيد شقيقه فيصلاً في ذلك ، فأجابه بأن لا يصار الى تغيير جوهرى بنظام الحكم قبل أن يبت بمصير البلاد ، فألقى الامير زيد في ١ كانون الاول ١٩١٩ في المؤتمر السوري البيان الآتي :

حضرات أعضاء المؤتمر السوري المحترمين :

نحن نائب سمو الامير فيصل نشكر مؤتمركم الموقر ما أبداه من دلائل الوطنية الصادقة وما قام به من الاعمال النافعة ، التي برهنت عن حمية تذكر ، وهمة عالية ، انتصاراً لهذا الوطن المبارك ودفاعاً عن حق البلاد واستقلالها السياسي التام الذي حاربنا من أجله أربع سنوات متواليات في جانب الحلفاء مستندين على معونة الباري عز وجل وعلى شعور الامة الشريفة ، وانصاف العالم المتمدن الذي اعترف رسمياً بحق العرب في الحياة الحرة وأعجب ببسالتهم في الدفاع عن قضيتهم والقضاء على مبادئ الاستيلاء والاستعمار عملاً بمبدأ الحق وحرية الشعوب المظلومة . وقد سرنا ما تمتعوه من اعلان الحكومة الوطنية ، على قاعدة

الحكم الدستوري النيابي وهو الذي سيكون أساس حكومتنا في المستقبل ، غير اننا نرى أن بقاء التشكيلات الحاضرة المعلومة لديكم مع بعض التعديل في الفروع أدعى للاقتصاد ، وأحفظ للنظام وتوطيد دعائم الأمن في مثل هذه الاوقات الى أن يقرر مصير البلاد النهائي في مؤتمر الصلح . ونحن لا نشك في أن مؤتمر هذا الوطني الذي ضم نخبة المخلصين والمفكرين سيكون بأعضائه المحترمين في أنحاء هذا القطر مثالا لكل حركة شعبية يراد بها خير البلاد .

وقدّم الركابي استقالته للأمرير زيد في العاشر من كانون الاول ١٩١٩ بعد أن تعذر الاخذ برأيه ، فقبلها وعين مكانه عبد الحميد باشا القلطيقي . وبعد بضعة أيام عين مصطفى نعمة ، الذي قبل العمل وفق ما تقرر ، وكيلا للحاكم العسكري العام ، وأحدثت مديرية الداخلية العامة ، وعهد بها لتصرف حماد رشيد طليع الضليع مع الوطنيين ، وعين محله المفتش الملكي زكي قدرى كما عين يوسف العظمة رئيساً لديوان الشورى الحربي (وزارة الدفاع) بعد أن اعتقل ياسين الهاشمي ، فقويت بذلك فكرة الدفاع . ثم أقرت الخدمة العسكرية الاجبارية لمدة ستة أشهر من سن العشرين الى الاربعين بتاريخ ٢١ كانون الاول ١٩١٩ . إلا أنه تعذر تسليم الجيش بالسلاح الثقيل ولم تكن بطاريات المدفعية الست التي كان أرسلها الحسين استجابة لطلب فيصل ، وهي من مخلفات الجيش العثماني لتكفي ، سيما ولم يكن لها العتاد الكافي ، وكذلك سلاح الجيش العربي الشمالي لم يكن ليعتمد به كثيراً ، ورغم ذلك كان الهاشمي يقول بإمكان المقاومة آخذاً بعين الاعتبار القوى الافرنسية الموجودة في سوريا قبل اعتقاله وامكان جلب عتاد من تركيا . وكانت المفاوضات لعقد

المعاهدة السورية مستمرة في باريس . وتساهل الفرنسيون بعد مراجعة
فيصل لـ كـلـمـنـصـو . وكان مما قاله كـلـمـنـصـو لفـيـصـل : أرجوك بأن تسرع
بعقد المعاهدة لأن سواي لن يتساهل معك بقدر ما أفعل . أما التساهل
الذي عناء فكان قبول الفرنسيين بأن يدخل نص في المعاهدة يقول
بالاتفاق في المستقبل على الصورة التي يتمكن معها المستشارون الستة من
القيام بواجباتهم عوضاً عن التصريح ، فلم يقبل المفاوض السوري بذلك
أيضاً ، ورجع الأمير الى كـلـمـنـصـو فأوعز بوضع نص جديد يرضاه الأمير ،
وتم الاتفاق على المشروع الذي سمي بمشروع فيصل - كـلـمـنـصـو ، وقد
وافق عليه جميع المستشارين الذين كانوا بمعية الأمير بعد أن رأوا أن
من المتعذر أن تقبل فرنسا بأقل من ذلك . فقاومت هذا الاتجاه مقاومة
شديدة حتى ان الأمير أمين أرسلان ، وهو رجل طيب القلب ، طلب
إخراجي من معية الأمير واعادني لسورية ، على أن امنع من الاتصال
بأحد . فلم أجد أمامي إلا حسني البرازي الذي أمّ باريس للتوسع في
دراسة الحقوق لاقتناعه بأن كل اتفاق مع فرنسا سيما اذا كان يمنحها
حقوقاً عسكرية هو الاستعمار بنفسه مهما كانت النصوص ، وضربت
له مثلاً خطتها التعسفية في كافة مستعمراتها ، وما وصلت اليه حكومة
المغرب الأقصى وتونس بنتيجة توقيع اتفاق مع فرنسا ، ظاهره معسول
مقبول ، وفي خفاياه ما يستعاذ منه ، لأن تلك البلاد بعد توقيع الاتفاق
أصبحت في إدارتها كبقية المستعمرات ، لا حول ولا سلطة للتشكيلات
الوطنية القائمة فيها ، فلم يخيب حسني البرازي ظني ، وكان يرافقني
ويؤيدني كلما استجذت به . وقد رفعت ما وصلت اليه حال المفاوضات
الى جلالة الملك حسين في مكة ، والى أعضاء الهيئة المركزية لجمعية الفتاة
في دمشق ، أستخدمهم على تأييد وجهة نظري .

مشروع اتفاق فيصل - كلمنصو

وهذا هو نص المشروع الذي حمّله الامير الى سورية ووعد بعرضه على الشعب وأخذ رأيهم فيه :

« عطفاً على التصريح الافرنسي الانكليزي في ٩ نوفمبر سنة ١٩١٨ من جهة واستناداً على المبادئ العامة لتحرير الشعوب والمعاونة الودية المعلنّة من قبل مؤتمر الصلح من جهة أخرى ، تؤكّد حكومة الجمهورية الافرنسية اعترافها بحق الاهالي الناطقين باللغة العربية والقاطنين في الاراضي السورية من سائر المذاهب أن يتحدوا ليحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفّتهم أمة مستقلة .

يعترف صاحب السمو الملكي الامير فيصل بأن مصلحة الاهلين السوريين الكبرى نظراً لاختلال الكيان الاداري الناشئ عن الاضطهاد التركي والخسائر اللاحقة بالبلاد أثناء الحرب - تتطلب تحقيق وحدتهم وتنظيم كيان الامة الاداري بالالتجاء الى النصائح والمعاونة التي ستسجل في جمعية الامم عندما تتألف هذه الجمعية بصورة عملية ، فهو باسم الاهالي السوريين يطلب هذه المهمة من فرنسا .

١

تعهد الحكومة الافرنسية بأن تمنح معونتها لسورية ، وأن تضمن استقلالها ضد كل تجاوز ضمن الحدود التي سيقرها لها مؤتمر الصلح . وفي تعيين هذه الحدود ستبذل الحكومة الافرنسية جهدها لنيل جميع التعديلات الحقّة من الوجهة الجنسية واللغوية والجغرافية .

يتعهد صاحب السمو الملكي الامير فيصل بأن يطلب من حكومة الجمهورية الافرنسية ومن هذه الحكومة وحدها المستشارين والمديرين والموظفين الفنيين اللازمين لتنظيم الادارتين المدنية والعسكرية . وسيوضع هؤلاء المستشارون والفنيون تحت امره الحكومة السورية التي منها يتقبلون تعيينهم وقوام التنفيذ التي ستحدد باتفاق مشترك بين الحكومتين بموجب عقد ينص على مدة مهمتهم والضمانات المتعلقة بها .

ان حكومة الجمهورية وصاحب السمو الملكي الامير فيصل متفقان على تطبيق نظام دستوري في سورية ضامن لحقوق الاهلين السياسية ، ومثبت للحريات المكتسبة سابقاً ومطابق لآمانهم المتضمنة انشاء حكومة مسؤولة أمام البرلمان .

وتوصلا للتنظيم المالي الذي هو القاعدة الاساسية لادارة الدولة الجديدة يشترك المستشار المالي في اعداد ميزانية النفقات والواردات ويبلغ إجباريا جميع التعهدات والنفقات لمختلف الدوائر ويراقب حصة سورية من الديون العامة العثمانية ، ويكلف بالمسائل المتعلقة بتطبيق الشروط المالية في معاهدة الصلح مع تركيا في سورية .

أما مستشار الاشغال العامة فتكون الخطوط الحديدية تحت اشرافه . ويحترم النظام الخاص المتعلق بسكة حديد الحجاز . وكل تصرف يغير السير الحر الاقتصادي للخطوط الموصلة الى دمشق لمصلحة شخص ثالث يعد لاغياً وكأنه لم يكن .

وعقب انعقاد الاتفاق الحاضر تمنح الحكومة الافرنسية معونتها لاجل تنظيم الدرك والشرطة والجيش .

يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل للحكومة الافرنسية بحق
الاولوية التامة بالتعهدات والقروض اللازمة لخير البلاد ما لم يتقدم
وطنيون يطلبون هذه المشروعات لحسابهم على أن لا تكون أثمانهم معارة
الى رأسمالين أجانب .

٣

ستمثل الدولة السورية في باريس لدى الحكومة الافرنسية بمندوب
سياسي مكلف بملاحظة المسائل الخارجية التي تهتم الامة السورية .
وتعهد الدولة المذكورة أيضاً الى ممثلي فرنسا السياسيين وقناصلها في
الخارج بتمثيل مصالح سورية الخارجية .

٤

يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل باستقلال وسلامة لبنان
تحت الانتداب الافرنسي .
وستعين الحدود في مؤتمر الصلح ويؤخذ هذا الأمر بعين الاعتبار
لاتمام حقوق ومصالح وأمانى الأهليين .

٥

اللغة العربية معترف بها كلغة رسمية لادارة المدارس ، أما اللغة الافرنسية
فتدرس بصورة إجبارية وممتازة .

٦

تكون دمشق العاصمة ومحل إقامة رئيس الدولة . ويختار المفوض
السامي له مقرأ عادياً في حلب ليكون على مقربة من كيليكية وهي منطقة

الحدود وتمتد النقطة الطبيعية لجيوش الدفاع المتجمعة ، واذا احتاج الأمر الى دعوة هذه الجيوش للداخل فلا يكون ذلك إلا بطلب رئيس الدولة السورية وبالاتفاق مع المفوض السامي .

يبقى هذا الاتفاق الذي يعين المبادئ العامة مكتوماً بين الفريقين حتى توقيع الاتفاق النهائي ويوضع عند رجوع صاحب السمو الملكي الى فرنسا ويعرض في الوقت الموافق على مؤتمر الصلح .

نظم هذا الاتفاق في نسختين يوم ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ .

ولهذا الاتفاق ثلاثة ملاحق : الاول خاص بالاقليات في لبنان وقد تضمن « ان الاقليات تستقفى عند تحديد الحدود » .

والثاني عن حوران (جبل الدروز) ويتضمن أنه يطبق فيه نظام استقلال نوعي في داخل الدولة السورية .

والثالث عن بيروت واسكندرونة وقد تقرر أن تكونا مدينتين حرتين .

وبالنظر لاضطراب الحالة في سورية ودخول قوة كبيرة تزيد على ثلاثة آلاف جندي الى بعلبك ثم احتلالها لثلاث قرى تابعة لمحص أيضاً (وذلك بعد أن أخر الجنرال غورو نشر تعليمات الحكومة الفرنسية لعدم اثارة شعور الاهلين والأمير بنوع خاص وهي تتذاكر مع فيصل لتصل الى الغاية التي ترمي اليها) ، أرسل الامير زيد بتاريخ ٢ كانون الثاني ١٩٢٠ برقية الى الأمير يستحثه فيها على الرجوع لهدئة الحالة ، فقرر السفر لسورية وأقامت له وزارة الخارجية الفرنسية في ٥ كانون الثاني مأدبة غداء تقرر فيها النص الاخير لاتفاق فيصل - كلنصو ،

وحدد اليوم الثاني لمقابلة الامير كلكنصو وتوقيع الاتفاق . فاضطربت كثيراً لأنني كنت أعتقد بأن هذا يعني ضياع كل جهودنا وصيرورة بلادنا تدار كاحدى المستعمرات الفرنسية ولو اختلفت المظاهر .

ومن حسن الحظ أن وصل الدكتور ثابت نعمان ، طبيب الملك حسين ، الى باريس ، ومعه أمر تحريري من الملك يحظر عليه توقيع أي اتفاق يتنافى والعهود المعطاة له من الحكومة البريطانية قبل دخوله في الحرب ، وهذه العهود صريحة بأن يكون العرب مستقلين استقلالاً تاماً في المنطقة التي يتباحث بشأنها الامير فيصل مع الحكومة الفرنسية . كما أن اتفاقية سيكس - بيكو لا تجيز ما ورد باتفاق فيصل - كلكنصو الذي يجعل سورية تحت الحماية الفرنسية المقنعة بقناع الاستقلال والحرية .

وعندما غادر الامير مقره مع رسم حيدر لمقابلة كلكنصو للمرة الاخيرة قبل مغادرة باريس لحقت به الى السيارة راجياً سموه بأن لا يوقع الاتفاق وأن يخبر كلكنصو شفهاً بقبوله ، وأنه سيعرض نصوصه على الأمة السورية التي يأمل أنها ستقدر مزايا هذا الاتفاق وتوافق عليه . وأحمد الله على أنني نجحت في مسعاهي ولم يوقع الامير الاتفاق بل اكتفى وكلكنصو بوضع الاحرف الاولى من اسميهما عليه ، وكان ذلك حجر الزاوية في تمتعنا باستقلالنا بعد الحرب العامة الثانية إذ كانت حجة انكلترا وأميركا باخراج الفرنسيين من سورية هي بسبب ضربهم دمشق بالقنابل ثلاثة أيام منذ ٢٩ أيار ١٩٤٥ وعدم وجود أي مستند يمكن أن تمسك به فرنسا لتبرير بقاء قواتها في سورية ضد رغبة سكانها ، واستعمالها القوة الغاشمة والعنف واقدامها على ذلك العدوان الفاضح الذي بدأ يوم ٢٩ أيار ١٩٤٥

بدون سابق انذار وخرقاً ضحيته مئات القتلى من السكان الآمنين . وقد أصاب السيارة الصحية التي كنت أتجول بها لتأمين اسعاف المصابين سبع رصاصات ، إلا انه لم يصبني سوى خدش بسيط في قدمي لم يمنعني من الاستمرار بالقيام بالواجب .

فتمسك سورية باستقلالها وعدم تساهلها في الانصياع لمطالب الفرنسيين رغم ضربهم دمشق ثلاثة أيام متواليات بقنابل المدفعية والدبابات والطائرات وبالرشاشات ، حرك الضمير العالمي بعد أن خرج العالم من الحرب العالمية الثانية ولما ينس أهوالها بعد ، فتدخلت انكلترا بقواها العسكرية وبعضيد من أمريكا لتوقيف العدوان الفرنسي إذ كان لها القيادة العليا في الشرق الأدنى . وكانت قواها منتشرة في جميع أرجائه . ولا شك بأن ذلك يتفق مع مرامي السياسة البريطانية والأميركية سيما وفرنسا كانت منخفضة الجناح آنذاك . فانكلترا لم تكن ترغب في اخراج فرنسا لتحل محلها بل انها كانت ترغب رغبة صادقة في استقلال البلاد ليسمها تأمين مصالحها فيها من غير أن تمنعها فرنسا ، إذ لا يبقى لكل من فرنسا وانكلترا ميزة على الأخرى في سورية . إلا أن الفرنسيين استخلصوا مما وقع أن انكلترا تود اخراجهم لتحل محلهم ، فقطعوا لها عهداً بأن قواهم العسكرية ستتحلى عن سورية ولبنان مع قواها بأن واحد . فضاعت هنا حجة الفرنسيين وتم الجلاء عن البلاد . أما الأميركان فلما كانوا ينادون دوماً بحق تقرير المصير ونيل الشعوب حريتها واستقلالها فقد ضغطوا على فرنسا لتقبل بالأمر الواقع ، هذا مع العلم بأن ما حصل يتسق ومنافعهم أيضاً .

العودة من باريس :

وغادرنا باريس يوم ٦ كانون الثاني ١٩٢٠ . الى طولون ،
وخصصت البحرية الفرنسية السفينة « والدك روسو » لتقل سموه الى
بيروت ، فأبحرنا عليها في ٧ كانون الثاني ووصلنا بيروت في ١٣ منه .
وكان في استقبال سمو الامير الجنرال دولاموط نيابة عن الجنرال غورو ،
وحيته ثلة من الجنود الافرنسيين ، وكان استقبال السلطة العسكرية
الفرنسية للامير (مبرقماً) بجميع مظاهر الفخامة والصدقة . فزار
الامير في موكب كبير الى دار المعتمد العربي المجاور لمنزل السيد عمر
الداعوق . وفي المساء حلّ ضيفاً على عمر الداعوق . وقد زار الامير
الجنرال غورو ، ورد له الجنرال الزيارة . وأقامت السلطة الفرنسية
للأمير حفلة كبرى في حديقة « البارك » . ومن غرائب الصدف أن
تظهر رغبة غورو في التقدم على الامير أمام الجمهور مع أنه في مناسبة
كهنه في لندن ، قدموا الامير على جميع الحاضرين ، ومن بينهم رئيس
الوزارة ورئيسا مجلسي اللوردات والعموم ، فانظر كيف تختلف العقليتان
السكسونية والفرنسية .

وقابل الامير في دار المعتمد العربي وفود البلاد التي تهافتت لاستقباله
وتحيته والاطمئنان على نتيجة مساعيه في مؤتمر السلم ، فحادثهم أحاديث
تمّ عن رغبته الصادقة بتنفيذ اتفاقه مع كمنصو ، وانه قبل الاتفاق
بعد أن استوثق من أن مصلحة البلاد تستلزمه مع فرنسا . . .
وحمل الى الأمانة ما تمكن من الوصول اليه لتحقيق رغباتها ، وزاد بأنه
سيستشير الأمانة في نصوص الاتفاق قبل اقراره بصورة نهائية ، ثم يعود

لأوروبا لاستتمام مهمته في مؤتمر الصلح والعمل على تحقيق ما تصبو إليه البلاد من حرية واستقلال . فاستصوب رأي الأمير جميع الوجاه وذوي النفوذ المتوارث . إلا أن أعضاء جمعية الفتاة والعاملين معها من الشباب النير لم يرضوا بما وقع .

ومن بيروت قصد سموه الى دمشق حيث استقبلته المدينة بمظاهر المحبة وآيات الاحترام ، وكان يوماً مشهوداً يميز منه النظير . ولما كانت فكرة الاستقلال التام الناجز هي ما تصبو اليه كافة الطبقات ، فقد دافع الأمير عن وجهة نظره بلباقة مع كافة الذين قابلوه بمناسبة عودته وكانوا خلاصة رجالات البلاد السورية .

وقد زارني بعد عودتنا ببضعة أيام وفد من الصحفيين لاكتناه سبب مناهضتي لاتفاق فيصل - كمنصو ، ولم أجد أي صعوبة في اقناعهم بوجهة نظري . إلا أن بعضهم تمسك بأن الانتداب الذي سيحال الى فرنسا من قبل جمعية الاثم بعد تأسيسها مقيد بقيود دولية ويلزمها باعطاء الجمعية تقارير سنوية عن أعمالها . وهذا ضمان قوي لعدم وقوع مثل ما يحدث في تونس ومراكش ، في سورية ، فكان جوابي أن الانتداب ليس إلا الحماية مقنعة ، زور مبرقشاً في الظاهر لتقبله الاثم الضعيفة ، ولا يمكن التوفيق بينه وبين الاستقلال . فنشرت الصحف هذا التصريح الذي أحدث ضجة كبيرة ، لأن الكثيرين كانوا مأخوذين بما كان يتردد على الألسن من أن عصبة الاثم ستكون مؤسسة العدالة والانسانية التي انبثقت عن الحرب العظمى . وما أصدق الاستاذ ديبوي عضو المجمع العلمي الافرنسي واستاذ الحقوق الدولية إذ أدلى برأيه عن الانتداب فقال :

« حقاً ان الانتداب أخبث وأدهى ما جاءت به سياسة الحرب العظمى
إذ ما هو إلا الحماية مقنعة مستترة » . ولو أن العضو المجمعي أدلى بهذا
الرأي قبل أن أدلى به أنا لما أحدث ما قلته هاتيك الضجة التي غناها
أذناب المستعمر .

لقد جعلت المادة الثانية والعشرون من صك عصبة الأمم ، سوريا
والعراق في صنف (آ) من درجات الانتداب الثلاث . وهذا نصها :
« وصلت بعض الجماعات التي كانت سابقاً جزءاً من المملكة العثمانية
الى درجة من الرقي جعلتنا نعتبرها موقتاً أنما مستقلة ، بشرط أن
يرشدها في ادارة شؤونها نصائح ومعونة حكومة منتدبة الى الوقت الذي
تصبح فيه قادرة على قيادة نفسها . ويجب قبل كل شيء أن تراعى أمانى
تلك الجماعات في انتخاب الحكومة المنتدبة » .

وامرني ألا يكفي ما جاء في هذه المادة لمنح فرنسا حرية العمل
في سورية ؟ وهل روعيت أمانى السوريين عند تخويل فرنسا حق
الانتداب على سورية ؟ ألم يرفض السوريون الانتداب الافرنسي رفضاً
باتاً قبل تقريره في مؤتمر الصلح ؟ .

هذا ولقد أقام النادي العربي للأمر بعد وصوله لدمشق بنحو عشرة
أيام حفلة كبرى خطب فيها الكثيرون من الشباب وكانت كافة الخطب
تعارض فكرة الأمير بلباقة . وتهدف الى التمسك بالاستقلال بدون
حماية أو وصاية ، والمطالبة بالدفاع عن الاستقلال بكل غال ورخيص ،

ثم بتشكيل حكومة قوية تؤمن ذلك . فرد الامير على الخطباء بعد شكر النادي على حفاوته بخطاب ارتجالي قال فيه :

قبل أن أفتح كلامي ، أتي كتي في الموضوع الذي يهمني وهو إبداء الشكر للشبيبة التي دعيتي الآن لتحتفل بي وتكرمني لأعمال قمت بها بما يجب عليّ أو قصرت عنها ، وعلى كل حال ، فاذا وقع مني تقصير فأرجو أن يشمل بنظر الكمال ، واذا قمت بشيء من الاكمال ، فهو واجب لا شكر عليه ، لانها وظائف رجل يريد أن يخدم بلاده وأمته .

أنا أشكركم أيها الاخوان لاحتفائكم بشخصي وأقول اني أتيت الى هنا ، بدعوة من شباب هذا النادي الذين جاءوني وقالوا يريد أن نراك في نادينا ونحتفل بك في هذا النادي .

أسس هذا النادي يوم خروج العدو من هذه البلاد لترقية الشباب ، وترقية الفكرة المدنية ، وترقية العلم ، والفكرة الوطنية التي يسمى وراءها ، وليكون نادياً ينهض بالشبان والشبيبة فيلقنهم العلم فقط .

طالما أقيت في هذا النادي الخطب العلمية والادبية كما اقيت السياسية أيضاً ، وقد كنت أود ألا تلقى فيه غير الخطب التي أسس لأجلها ، ولكن الاحوال السياسية جعلت الشبان يهتمون في بعض الاحيان بأمر مستقبل بلادهم ، وهكذا يخرجون عن الغاية التي وجد النادي لأجلها ، لأن الظروف قضت علينا بأن نكرر الخطب السياسية .

كنت في العام الماضي أشاهد من موقعي هذا رقعة كتب عليها « ممنوع التكلم بالسياسة » ولكن وأنا واقف هذه السنة أيضاً في نفس الموقف لا أجد الرقعة ، ليس هذا خطأ الإمة أو الشبيبة ولكن

الاحوال السياسية قضت على النشء بترك الخطب العلمية ، فاهملوا دروسهم وكتبهم وأخذوا يتدخلون في الامور السياسية لاعتقادهم أن العلم أصبح في مثل هذه الايام في الدرجة الثانية بالنسبة لحاجة الموقف ولأن الدفاع عن الوطن فوق كل شيء .

وقد آليت على نفسي ألا أتكلم إلا في المواضيع العلمية ، ولكن الضرورة جعلتني أتمس لنفسي العذر وأتكلم الآن بالسياسة وهو نفس العذر الذي انتحلته لكم معشر الشباب .

اخواني :

تعلمون بأنه لا يبحث في نواد علمية كهذا النادي إلا في العلم واتي أصرح بأنه اذا لم يسر النادي على هذه الخطة ، فلا يرجى منه فائدة للوطن ، لأن الشاب اذا ترك العلم واشتغل بالسياسة يكون أهمل مستقبله .

هذا من جهة النادي وما يجب أن أقوله عنه ، أما السياسة ومجرى الاحوال في الغرب فأقول بصفة غير رسمية ، لأن النادي غير رسمي ولا يوجد مجلس نواب ، لاطمئن الامة على مستقبلها ، اني أتيت من الغرب لاأقف على رغائب الامة ، بعد انسحاب الاميركان من المعترك السياسي ، وكنت أود أن افاتح أرباب التفكير في مستقبل البلاد بالحالة في الغرب لاتي جئت لأمكث بضعة ايام ، ثم أرجع الى مايجب علي الاهتمام به هناك .

أنا لا أزال ذلك الرجل الذي تصورونه سواء أكان تصوركم حسناً أم سيئاً فأنا لا يهمني ذلك بمقدار ما يهمني العمل ومستقبل الامة ،

ولا يهمني أيضاً ما يقال عني مدحاً أو هجاء أو غير ذلك فالأمة كالأفراد
أحرار فيما يقولون . ولهذا لا أنظر الى ما قيل ولا الى ما يقال ولا الى
الأفكار المتباينة تصدر عن أفئدة مملوءة بالحساسة سواء كانت من أفراد
أو جماعات فالأمة بأجمعها ترغب أن تكون مستقلة ، وأنا أفخر اذا
رأيت شعباً يطلبون الاستقلال ويتحسسون بهذا الشعور العالي الذي
يضمن لنا المستقبل وما أسست هذا النادي إلا لأجله .

واني وإن كنت لا أحيط علماً بكل ما يحول في الأفكار المختلفة
فأنتي أفتخر بشيء واحد وهو أنني أحببت وطني ، وسعيت لوطني ، ولي
غاية واحدة وهي أن أرى بلادي مستقلة ، ولا تنحصر هذه البلاد في
بلدة واحدة بل أن كل بلاد العرب هي بلادي .

أنا والله لا تخيفني قوة الحكومة ولا قوة الجمعيات ، وإنما أخاف
التاريخ والمستقبل وأخاف أن يقال أن فلاناً عمل عملاً لا يليق بأبائه
وأجداده الذين كانوا يسعون للاستقلال ، وأرجو أن تعلم الأمة بأنني
في الغرب مثل ما أنا هنا لا أبدل كلامي سواء أمام السياسيين أم في
أحرج المواقف ، ومبدئي هو أن تكون بلادي مستقلة وأنا عامل بما
هداني الله اليه لاستقلال بلادي وأرجاع مجدنا الغابر ، والله يشهد بأنني
أسمى لذلك ولا أظن بأنه يوجد في البلاد رجل واحد يرضى باستعباد
الاجني ، بل أعتقد أن الرفيع والوضيع والشيخ والشاب والعالم والجاهل
يشعرون بشعور واحد وهو طلب الاستقلال التام للبلاد .

إخواني :

ربما لاحظتم أنني أتلثم في القول ، فأنا لست بخطيب ولم أعتد أن

أقول كثيراً لاني ألفت الصمت ، ومن عرفني قديماً يعرف ذلك عني ،
ولذلك أرتب ان تكون الامة صامتة مثلي تعمل كثيراً وتقول قليلا .
شكر أحد اخواني الخطباء لمحمود الفاعور صمته ، وكان محمود
الفاعور منزلاً في البادية صابراً صامتاً ، وعندما رأى الاعتداء عليه
قام وفعل بدون أن يقول ، الأمر الذي أرتب أن تكون الامة عليه .
لنا سنة ونصف ونحن نقول ، كفانا خطباً ، كفانا أقوالاً ، نحن
في أيام العمل لا في أيام القول ، ان الاقوال لا تأتي بفائدة ولكن
الافعال تفيد كثيراً ، غبت عن البلاد أربعة أشهر ولا أشك بأن
التاريخ يحفظ ما فعلته بالغرب سواء أكان جيداً أو رديئاً ، قليلاً أو
كثيراً ، ولا انزه نفسي عن الخطيئات لاني كنت أقول ما يلهمني ضميري ،
ولما عدت الى هنا رأيت الامة بأشد الحماس ، ولكنه حماس لا يتعدى
القول ، وحبذا لو قرن هذا الحماس بالعمل ، أنا أدعو الامة الى ذلك
إذ لا حياة لها إلا اذا فعلت كما أقول .

نحن بحاجة الى التعاون ، الى التعاضد الى التكاتف ، الى التعارف ،
الى العمل ، واني أود أن تكون الامة كما قال أخونا يوسف اسطفان .
قال أخونا الشهبندر « وكان الدكتور الشهبندر من خطباء
الحفلة » : اذا اعتمدت الامة على الحكومة يكون كذا ويكون
كذا وأقول بهذا الصدد أن الحكومة هي تمثل الامة ، وان حكومتنا
لأسباب عديدة هي حكومة مؤقتة ليس لها صفة قانونية أمام المجموع
وهي قائمة برأي من اعتمدته الامة وهو أنا ، فالحكومة هي شخصي
بهذه الحالة ، لذلك لا يمكن لشخص أو جماعة أو لجنة من الاحزاب أن

تقول بعدم ايفاء هذه الحكومة ، إذ لاحق لها بالتدخل في هذه الشؤون . وأود أن تعضد الامة والشبان الحكومة التي اعتمدها ، أقول هذا وأنا مقتنع بكوني سمعت منذ ابتداء الحرب الى ما فيه خير الامة وخلصها .

اتي روح الحركة والامة باعتمادها على الحكومة تعتمد علي الى أن تسنح لنا الفرص ويتسع لنا المجال فنؤلف المجالس التي تعتمد الامة عليها لذلك فأنا لا أسمح في ساعتنا هذه لشخص أو جماعة أن يقول بأن الحكومة هي كذا وكذا أو أن يطلب ابدال حاكم بحاكم لأنني أنا المسؤول حتى انعقاد مجلس الامة وعندئذ أتصل من المسؤولية وأضعها على الامة .

ان الحكومة اليوم هي حكومة عسكرية ، حكومة مؤقتة غير منتخبة من طرف الشعب ، ولبعض اسباب لا أقدر أن أشرحها أو أشرح التشنجات الى أن اقدم للامة هدية الاستقلال .

ان وجائي عظيمة كبيرة ، وأنا أفتخر اذا رأيت شباب الامة يعاضدوني في طلب الاستقلال ، في طلب الحياة الحرة .

أنا أعترض على اخواني عندما يقولون أفعل كذا ، يريدون أن يستثيروا عزائي ، ان عزائي قوية بعزائم شبان بلادي ، بافكار كل مفكر في بلادي ، لأن شخصي يمثل الامة ، وسيمثلها دائماً .

اكرر قولي واؤكد بأنه لا حياة لنا الا اذا فظمنا امورنا ، واعتمدنا على حكومتنا وعلى بعضنا وكل شخص منا له واجبه .

الدكتور شهنذر اظهر لي سماعته وقال انه من الشعب ، ويدخل

بيوت الشعب ، ويعرف افكار الشعب بحسب مهنته ، وعندى ان اول عمل يجب ان يعمل له الدكتور هو ترقية الفن المختص به فاذا عمل كل فرد منا بما يجب عليه السياسي والطبيب والجندي والصانع تنتظم حركة الامة بأجمعها . . .

أعود فأؤكد لكم يا اخواني بانى عامل على ما أنتم تطالبون به وهو الاستقلال التام ، الاستقلال الذي لا يجعل لامة من الائم حق السيطرة عليكم ، ولكنى فى الوقت نفسه أقول ان بينكم وبين الائم الغربية صلات تصلكم ، ولا تقدرُونَ أن تستغنوا عنها ، لأن وسائل النقل الحديثة جعلت أوروبا فى بطن سوريا واذا قلتم انكم تستغنون عنها عرفت انكم لا تريدون الحياة .

تقولون ان الائم الكبيرة ستفعل بنا كذا وكذا ، أجل انها لا تستعبد أمة غير مستعدة للاستعباد ، لان الائم الناهضة لا تستعبد أبداً .

تكلم الدكتور شهنذر عن الامة المصرية فقال انها كانت مستعبدة ولكنها اليوم عاشت وقويت وقامت تناضل أكبر حكومة وتطلب حريتها فهذا من نتائج الحرية السياسية ومتى عرفت الامة السورية وجائها تستقل ولا تستعبد .

نحن فى موقف حرج يجب ألا نحتقر فيه الائم لاننا باحتقارنا لاحدها نكون قد احتقرنا أنفسنا . أمامنا دول كبار وأمم عظام ، يجب علينا أن نحترم كل أمة وكل حكومة متى احترمت بلادنا واستقلالنا ومنافعنا .

لا نحب أن نعادي ، ولا أن نتجاوز على حقوق غيرنا ، كما اننا

لا يزيد أن يتجاوز احد على حقوقنا . أطلب من كل الأئمة والشبان أن يتكاتفوا ويؤيدوا حكومتي التي ستقدمهم الى الخير ، وأن يفعلوا كالفاعور في سكوته ، وأن لا يكثرؤا من الاقوال ، ولا يعادؤا أحداً ، لا بالسنتهم ، ولا بصحفهم ، ويعتمدؤا على حكومتهم .

هذه وصيتي اليكم ، والحكومة تنتظر منكم أن تؤازروها ، وأنا سأعمل واجبي وأشكل حكومة أعتمد عليها ويجب على الأئمة أن تعتمد عليها أيضاً ، وأرغب أن الاخوان جميعاً يعاضدؤن حكومتي التي أرجؤ أن أسمع من أخبارها في الغرب ما يسرنني لا تمكن من المطالبة بالاستقلال حتى آخر نقطة من دمي .

لقد علمت أنه يوجد خلاف بين بعض الطبقات والافراد فلهذا أطلب ازالة هذه الاختلافات وأن تكونؤا يداً واحدة .

نحن لا يزيد أن يكون بيننا من يفرقنا لاننا سنعيش محترمين واذا اقتضى الحال فاننا نقول لذلك الشخص اخرج من بلادنا فلسنا اخوانك . اه

وزار رضا باشا الركابي الأئمة فيصل في صباح ٢٣ كانون الثاني ١٩٢٠ عقب حفلة النادي العربي وشكا كثيراً من تردي الحالة في البلاد ، فطيب الأئمة خاطره وأجابه بأن الوطن لا يستغني عن خدمات كبار رجالاته المحنكين أمثاله ، وأنه سيظهر اثر ذلك بعد بضعة أيام . وقد قدم الركابي لفصل كتاباً مؤرخاً في ١٨ كانون الثاني شرح فيه أسباب استقالته وهذا نصه :

في صباح ١٠ كانون الاول ١٩١٩ استدعاني سمو أخيك (زيد) الى

داره فتشرفت بحضوره ، فسألني عما جرى فتكلمت بما عرفته فأجاب بأن عادل أرسلان ونوري السعيد أخبراه بما جرى في الليلة الماضية ثم سأله - أي الأمير زيد - عن رأيه فأجابه بأن هؤلاء الاشخاص جماعة الفتاة والاستقلاليين ، لا صفة لهم ولا يمثلون إلا أنفسهم ، لا يهمهم الوطن ، ولا دفاعه ، ولا تهمهم سوى غايات مكنونة في صدورهم ، وربما تكون ضد الامارة مبدئياً وأرى شدة المسؤولية في هذا الباب . وعليه فاني لا أستطيع أن أتبع سياسة الاشخاص غير المسؤولية تحت أي اسم كان ، الداعية الى الفرقة وإماتة الحركة الوطنية في الوقت الذي نحتاج فيه لجمع القوة ، والكلمة ، كما اني لا أقدر أن أرى حكومة غير مسؤولة ، تسيطر على حكومة مسؤولة ، تمثيلاً للدور الاتحادي البائد ، وأعتقد أن الحكومة التي تسير على رغائب الاشخاص أو الاحزاب غير المسؤولية ، فمصيرها ومصير الوطن معها الى الخراب ، وعليه فاما أن يعتمد عليّ ويعاضدني ، لا تمكن من قمع هذه الفوضى قبل استفحالها أكثر مما هي عليه وإما أن يظهر ارتياحه لسياسة المذكورين فأنسحب . فأجابني بأن أكون مطمئناً على حفظ حقوقي فشكرته وانسحبت لداري . وبعد مضي ساعة من عودتي شرف سموه ورفقته نوري السعيد رافضاً قبول انسحابي ، فأجبتهم لو لم أر تمايله لسياسة الاشخاص المعلومة وارتياحه لانسحابي لما انسحبت ، والآن أقرر ما قلته أولاً فإن رأي لزوماً لوجودي في الحكومة فليعتمد عليّ ويعاضدني وعندها أعود وإلا فلا عودة لي ، وفي النتيجة أمرني بأن اكون مأذوناً بينما تشرف البلاد بمودة سموكم وأوكل عبد الحميد باشا (القلطي) فوكلته من قبلي ثم بعد يومين عين سموه مصطفى نعمة لوكالة حبيب رغائب الاشخاص

المذكورة وبهذه الصورة تمت الرواية التمثيلية المائدة لشخص عبدكم ،
وعلى ذلك قاموا وشكلوا الحكومة الحاضرة وسموها الحكومة الدفاعية
ولست أعلم شكل الدفاع الذي أجروه والثمرات التي اقتطفوها .

سيدي المعظم :

انه كان من الواجب علي ان اتم كل شيء واثبت في مكاني ،
واقاوم كل مشاغبة وفوضى لحين تشريف سموكم ولكن خطة نوري
السميد وتمايل سمو اخيكم المعظم اليه والى سياسة الاشخاص المذكورة
وارتياحه لانسحابي أملاً بما هو ارجح وأنجح ، وحراجه الموقف
وعدم مساعدة الوقت اضطرني لأن انسحب لكي تشكل بعدي حكومة
تأتي بالخوارق لحفظ الوطن ، وتخط خطة أقوم وأعدل من خطتي
المدونة في مطاوي عريضتي . واذا أراد أن يستوضح سيدي أكثر من
ذلك فاني رهن الإشارة وأرجو الله أن يكمل بالتوفيق والنجاح أعماله
ويسعد الأمة على يده ويؤيده بنصر من عنده انه سميع مجيب .

١٨ كانون الثاني ١٩٢٠

الخادم

الركابي

ولما كانت الظروف توجب تشكيل حكومة قوية ومن رأي الامير
ألا تكون حزبية ، الأمر الذي جعله يمد بخطابه في النادي العربي
بتسليم الحكم لآيدٍ قادرة قوة ، فقد أنهى بتاريخ ٢٦ كانون الثاني
١٩٢٠ حكومة الحاكم العسكري وأسس حكومة مجلس مديرين برئاسة
أخيه الامير زيد الذي ابلى بلاء طيباً وأظهر رجولة نادرة في حرب
التحرير العربي ، وكان لموقفه من السلطة العسكرية العثمانية أحسن

الأثر حينما كنت وشكري القوتلي وفارس الخوري وشكري باشا الأيوبي الخ . . . مسجونين بخان الباشا بدمشق إذ هدد بأعدام خمسة ضباط من ضباط الفرقة التي شقتها وأسر معظم ضباطها في موقعة الطفيلة مقابل كل عربي يعدم انتقاماً . وبذلك كفل عدم اعدام المسجونين وإطلاق سراحهم . ورمى فيصل من تعيين أخيه جعله رمزاً محترماً للحكومة فقط وعين أمين التميمي الإداري الحنك معاوناً له ، ورضا باشا الركابي مديراً للحربية ، واسكندر عمون مديراً للعسكرية ، وساطع الحصري مديراً المعارف ، ورشيد طليع مديراً للداخلية ، وأحمد حلمي مديراً للمالية ، ويوسف العظمة لرئاسة أركان الحرب العامة ، وعرض عليّ مديرية الصحة فرفضت إذ لم تكن تخفى عليّ مرامي هذا العرض .

وقد تولد عن مساعي مستشار الأمير الخاص نسيب البكري ، مع تشكيل هذه الحكومة ، حزب جديد سمي الحزب الوطني السوري ضم الأعيان الأرستقراطيين وأصدقاءهم الذين يلتفون حولهم . وكانوا يتلهفون للعمل ليحافظوا على سلطتهم ويحوموا حول الأمير ، وكان من التفافنا حوله وعدم تركي المجال للبكري للتأثير عليه وصلابة أخلاقه ، كل أولئك كان سبباً في تسديد الطريق أمامهم . إلا أن الخلاف الذي ذكرته بين الفتاة والتشكيلات الوطنية الشعبية التي تعمل بوحيا ووحى الأمير ، قد فسح لهم المجال للظهور ، وكان في تعيين عبد الرحمن اليوسف رئيساً لمجلس الشورى ووالي الشام علاء الدين الدروبي رئيساً لمستشاري الإمارة عقب تشكيل الحكومة الجديدة أكبر ترضية لهم .

فقد اجتمع الأرستقراطيون وشيعتهم في دار بديع المؤيد ، ووضعوا الأسس التي تأسس بموجبها الحزب ، وهي وإن كانت لا تختلف عن

مبادئنا بالظاهر غير انها منظمة ومنمقة احسن تنسيق ، كيف لا وقد أشرف على تسطيرها كاتب الشام محمد كرد علي الذي انضم الى هيئة الحزب الادارية بسبب عدم تعاون الفتاة معه لمباشاته جمال باشا خوفاً من بطشه . . إلا ان الاشخاص القادرين فيه كانوا معروفين بمباشاة كل سلطة قائمة للحفاظ على نفوذهم وتأمين منافعهم . لذلك لم نرتح لهذا الوضع الجديد ، وظهر ذلك جلياً في مشروع اللجنة الوطنية وحزب الاستقلال بتناوأة الحزب الجديد بشدة . وبحسب القارىء لاأخذ فكرة عنه ذكر اسماء لجنته الاستشارية التي تسيره والرجوع لماضي اكثر اعضائها وعقليتهم ، فهم :

الشريف ناصر ، عبد الرحمن اليوسف ، فوزي البكري ، علاء الدين الدروبي ، راشد مردم ، علي العسلي ، عطاء الايوبي ، بديع المؤيد ، احمد الحسيني ، انور البكري ، شريف الكيلاني ، الشيخ تاج الحسيني ، نسيب حمزة ، زكي المهاني ، حسن السيوفي ، عمر العابد ، الشيخ عبد المحسن الاسطواني ، الدكتور شاكر القيم ، الشيخ عبد الجليل الدرا ، الشيخ عبد الحميد العطار ، الشيخ عبد القادر الخطيب ، الشيخ محمد المجتهد ، احمد ايش ، محمد العجلاني ، مسلم الحصني .

واذا كان يوجد بين اعضاء الحزب عدد من كرام الوطنيين المخلصين ادخلوا فيه ونيتهم حسنة ، إلا ان غاية العاملين الحقيقيين فيه غير خفية . وزعم الحزب انه يضم كافة طبقات الامة ويسعى افراده الي تأييد استقلال البلاد السورية التام بمحدودها الطبيعية والدفاع عن استقلالها ، والى تأسيس حكومة ملكية نيابية يرأسها الملك فيصل . وأظهروا

تأييدهم التام له بغية التقرب منه ، فينالوا الخطوة لديه ، ولا يعتمد
عليهم التعاون مع الاجنبي الغاصب اذا حبطت سياسته . واخذ فيصل
بهذا الحدث المبرقع ولم يضمن عليهم بعطفه وظن بأن الحزب الجديد قد
يكون عاملاً لتوازن القوى ولا نبقى وحدنا في ميدان العمل الوطني .

وفي ٢٨ كانون الثاني سافر الامير الى حلب بقطار خاص ورفقته
الشريف ناصر والشريف علي والشيخ فؤاد الخطيب ونوري السعيد
ومحمد اسماعيل قائد فرقة حلب الجديد والكولونيل تولا . وهذه أول
سفرة لم ارافقه فيها . وقصد من هذه السفرة الاتصال بالاهلين وبث
روح الطمأنينة في نفوسهم والوقوف على حالة ثورة تركيا المجاورة لحلب .
وقضى فيها يومين قابل خلالها رجالات الشمال ومختلف الطبقات الشعبية
ثم قفل راجعاً الى حماه فحمص ، فاجتمع برجالتهما ووصل الى دمشق
في أول شباط .

ولما كانت تكمل جهود فيصل بالنجاح يستلزم أن تنهج السلطة
الفرنسية في المنطقة الغربية ولبنان نهجاً حكيماً ليتمكن من التأثير على
رجال الثورات التي كانت قائمة فيها ، فقد سافر الى بيروت في ٣ شباط
ومعه اللواء نوري السعيد ، فاستقبله الافرنسيون استقبالاً حسناً .

ولما قابل الجنرال غورو أشار عليه باصدار عفو عام عن الثوار
كمقدمة لانشاء حكومة وطنية في بيروت وتفاهم الجنرال مع الاهلين .
فلم يقطع له غورو الوعد بما يجمله يعتقد بإمكان نجاح سياسة التفاهم مع
الفرنسيين ، سيما بعد أن سقطت وزارة كلنصو قبيل وصوله لبيروت ،
وحلت محلها وزارة ميليران إذ كان كلنصو يميل الى عدم قطع الصلة
مع الامير ، مراعيّاً اشتراكه في الحرب مع الحلفاء في وقت من أخرج

الاولقات التي مرت على فرنسا . وعاد الامير لدمشق في مساء ٦ منه ولم يعد ينادي بقرب عودته لباريس لمواصلة مذاكراته التي كان أجراها مع كمنصو . ورغم موقف السلطة الفرنسية من الامير فقد تمكن من تهدئة الحالة في البلاد ، ورأى أن خير واسطة لاستمرار الهدوء هو اقناع هيئة جمعية الفتاة الادارية بوجهة نظره . فطلب إلي أن يجتمع بأعضائها عندنا وكانت مؤلفة بعد اعتقال ياسين الهاشمي في الرملة من عزة دروزة وشكري القوتلي ورفيق التيمي وأحمد مريود وسعيد حيدر وتوفيق الناطور والدكتور أحمد قدري . فسعى لتقبل الهيئة درس مشروع فيصل - كمنصو فلم توافقه ، الأمر الذي جعله يقول : ان هذا هو غاية ما أمكن ويمكن الحصول عليه . ولا شك بأن بحث وضع سورية في مؤتمر السلم وعصبة الأمم يجعله في صالحنا أكثر مما هو ، واتي أعتقد بأن مساعي في هذا السبيل في أوروبا قد تكلل بالنجاح ، فأسرع أعضاء الهيئة وأجابوا بأنه خير للبلاد أن ترد عدوان فرنسا حتى وانكسرتا بالقوة بقدر المستطاع من أن تخضع لشروط الاتفاق الذي سيجعل سورية بحكم تونس ومراكش . وكان تنفيذ خطتنا بوجوب على الامير تغيير الخطة التي كان يقول بها الكثيرون من الوجهاء ، حتى ان الدكتور شهنندر الذي كان من أقوى الشخصيات الوطنية المندفعة أصبح يفكر بأنه ربما كانت لوجهة نظر فيصل ما يبررها . ويظهر أثر ذلك فيما كتبه في عدد تشرين الاول ١٩٣٣ من مجلة المقتطف وهو :

« ولكن دعاية شنيعة بثت على فيصل عند عودته من باريس ، فتراجع من غير انتظام لأنه كان حديث العهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة . ولو أنه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن آرائه بمثل الطريقة

المديرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين أنصاراً
يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه .

لم يسرع الأمير في تنفيذ مارجوناخ لخطورته ، بل استدعى أعضاء
الهيئة الادارية لجمعية الفتاة ، كل واحد على حدة ليتمكن من اقناعه
بأن مقاومتنا فرنسة بالقوة متعذرة بالظروف الحاضرة ، ولا تنتهي الى
نتيجة مرضية ، وكان يكلفه بأن يكتب رأيه وأسبابه الموجبة ليكون
مستنداً أمام التاريخ . على أن الأمير لم يتنكر للوطنيين ، واتفق مع
الحكومة على تعزيز وسائل الدفاع وأذاع رئيسها بلاغاً شديداً هذا نصه :
« ان الحكومة عازمة على وضع مادة استثنائية تقضي بطرد من يتهاون
بأمر التجنيد من الموظفين مع حبسه سنة » لأن البلاد كانت تعبة من
التجنيد طيلة الحرب العامة . و مر شهر شباط بدون فتن واضطرابات
تذكر ، واستفاد الفرنسيون من ذلك لمقاومة ثورة كيليكيا والسعي لقمعها .
ثم عادت الاضطرابات ، في كثير من مناطق الساحل سيما المجاورة لحدود
حكومة الشام الوطنية ، ولقرب حدودها الشمالية بسبب فقدان الاستقرار
ولعدم الاطمئنان على المستقبل .

وبعد أن يؤس الوطنيون من الوصول الى تحقيق أهداف البلاد
بواسطة مؤتمر السلم والمفاوضات مع بريطانيا وفرنسا ، وانسحاب أميركا
وهي رافعة لواء حرية الشعوب من مسرح السياسة الاوروبية ، قرروا
وضع مؤتمر السلم أمام الأمر الواقع ، وذلك باعلان استقلال سورية
العربية والمحتلة ، والمناداة بفيصل ملكاً دستورياً عليها . لذلك كلف
الامير بالعدول عن السفر الى اوربا ، والاكتفاء بمساعي مندوبيه فيها ،

ودعوة المؤتمر السوري الذي علق جلساته على أثر جلاء الجيش البريطاني
ليقول كلمته بتحقيق هذه المهمة الوطنية الكبرى .

وقد سهل قبول فيصل لهذه الفكرة تحبيذها من قبل الكولونيل
تولا الفرنسي الذي كان قد عين ليكون جمعية جلالته أسوة بما كان
عليه الكولونيل لورنس . والكولونيل تولا طيب القلب عاش كثيراً في
الجزائر ، ويتكلم اللغة العربية . وقد أنزلوه ضيفاً على عبد الرحمن
باشا اليوسف خلافاً لرأي فسلوا له الاتصال الدائم بالجهة المعارضة .
ولم يكن ذلك التحبيذ رأياً شخصياً لتولا ، بل كان ذلك بعد بحثه
الموضوع مع ممثل فرنسا الرسمي الذي كان يسمى ضابط ارتباط . ولم
يكتف الامير بذلك بل كلفهما باستشارة الجنرال غورو الذي لم يمانع
في ذلك . وعزي عدم ممانعته الى ان فرنسا لا تود لسوريا والامير إلا
كل خير ، أما السبب الحقيقي لذلك فهو ابعاد امكان تأييد انكلترا
للأمير بحجة ان اعلان استقلال سوريا يضع حداً للتمسك بالاتفاقات
السابقة . وقد استشار الامير رضا باشا الركابي المعروف باعتداله والذي
كان ينوي فيصل أن يعينه رئيساً لوزارته بعد اعلان استقلال البلاد ،
فرأى رضا باشا التريث لأنه بحسب ظروف عمله كحاكم عسكري كان
كثير الاتصال بضباط القسم السياسي البريطاني ، ولم يكن هؤلاء من
محبذي هذا العمل . إلا أن الركابي عندما علم بأن فرنسا لا تمانع في
ذلك أبد الفكرة التي كان من نتائجها تسميته رئيساً لوزارة سورية المستقلة .
ولما كانت إيطاليا تتوق الى أن يكون مركزها بعد خروج الحلفاء
منتصرين من الحرب الكبرى يشبه مركز انكلترا وفرنسا لتكفل لنفسها

من المنافع ما لا يقل عن حصّة الأسد التي حصلت عليها هاتان الدولتان ،
فإنها أي إيطاليا كانت راغبة رغبة أكيدة في استقلال سوريا لتضمن
لنفسها من المنافع أكثر ما يمكن والذي لم يكن بالامكان الحصول عليه
لو دخلت سورية ضمن البلاد المحتلة من قبل القوات العسكرية الفرنسية .
لذلك كان في سورية ممثل ذو مرتبة رفيعة يتظاهر بصداقة العرب
ويؤيد السياسة العربية في سورية ، فشجع كثيراً على اتخاذ هذه
الخطوة الجريئة .

أما الإنكليز فلم يكونوا راضين عن هذا الاجراء ، وكان هذا
ظاهراً في كل تصرفاتهم . إلا أن فوران الرأي العام في البلاد العربية
ضدهم لم يترك مجالاً لبحث الداعي لاتباعهم تلك الخطوة ، فتقرر في أواخر
شباط أن يعدل الأمير نهائياً عن السفر الى أوروبا ، وأن تتخذ
الاجراءات المندادة باستقلال سورية ووحدتها وملكية فيصل عليها .
فدعي المؤتمر السوري الى الاجتماع ليقول كلمته في ذلك ، فاجتمع بعد
ظهر ٦ آذار ثم حضر الأمير الى المؤتمر وتلا سكرتيره الخالص السيد
عوني عبد الهادي خطاب الأمير في حفلة الافتتاح وهذا نصه :

أيها السادة :

في الوقت الذي قرب فيه يوم حل المسألة التركية حلاً نهائياً في
مؤتمر الصلح رأيت أن أدعوكم مرة أخرى لتقرير مصير البلاد حسب
رغائب الاهالي الذين رأوا فيكم الكفاءة للنيابة عنهم في مثل هذا
الوقت العصيب .

فقد وعد مؤتمر السلم أن ينظر في رغبة الشعوب بل حتم على نفسه

بأن يقرر مستقبل كل أمة حسب ارادتها ورغائها تحقيقاً للمبادئ السامية التي خاض الحلفاء لأجلها غمار الحرب الكبرى .

الرئيس ولسن ذكر في خطابه في مؤتمر فرنون في ٤ تموز ١٩١٨ المادة الآتية :

كل مسألة أرضية كانت أم سياسية أم اقتصادية أم دولية يجب أن تحسم على موجب الاساسات المستندة الى حرية قبول الشعب ذي العلاقة رأساً بتلك المسألة ، لا على القواعد النفعية المادية أو المصالح التي يطلبها شعب أو أمة أخرى لأجل تأمين نفوذها الخارجي أو سيادتها . وقد ذكر جميع رؤساء الحكومات المتحالفة أقوالاً لا تقل في معاني استقلال الشعوب عن أقوال الرئيس ولسن في هذا الصدد ، وقد نشرت حليقتانا انكلترا وفرنسا منشوراً في ٨ تشرين الثاني الماضي أكدتا فيه استقلال بلاد العرب المنشود .

أيها السادة :

لما كانت هذه الحرب ، حرب حرية واستقلال ، حرباً جاهدت فيها الأمم ذبا عن كياناتها السياسية دخل فيها صاحب الجلالة والذي المعظم في صفوف الحلفاء بعد أن استوثق من العرب في الجزيرة وفي سورية وفي العراق فقاتلوا قتالاً شهد لهم فيه أعظم رجال أوروبا السياسيين والعسكريين وأثنوا على شجاعتهم وبسالتهن غاية الثناء ، ولا بد أن يحفظ التاريخ أعمالهم الجليلة في أبان الحرب التي استمات فيها الحجازي والسوري والعراقي واني واثق بان الامة العربية ستنال من المغنم ما ناله غيرها من حلفائنا الذين نالوا الظفر على الاعداء .

ان هذا الظفر لم يكن عسكرياً فقط بل هو سياسي قبل كل شيء لأنه ظفر الحق على القوة ، والحرية على الاستبداد ، فقد انتشرت اليوم فكرة الاستقلال بين الشعوب وانتعشت في أفئدتهم فلت نزول بعد الآن .

استحق العرب حريتهم واستقلالهم بفضل الدم الطاهر الذي سفكوه وبفضل ما قاسوه من انواع العذاب والقهر . فالامة العربية لا تقبل اليوم أن تستعبد كما اني أعتقد انه ليس هنالك أمة تريد استعبادنا ، فرحلاتي الرسمية العديدة الى اوروبا ، والاحاديث والكتابات التي جرت بيني وبين ساستها لم تبق في نفسي مجالاً للشبهة والتردد في نوايا حكوماتها الحسنة .

أيها السادة :

اننا لا نطلب من اوروبا أن تمنحنا ما ليس لنا به حق ، بل نطلب منها أن تصدق على حقنا الصريح الذي اعترفت به لنا كأمة حية تريد حياة حرة واستقلالاً تاماً وتود أن تعيش مع سائر الأمم المتعدنة على غاية من الولاء والمحبة الخالصة ، فسياستنا في المستقبل ، ستكون سياسة صلح وسلم مبنية على الثقة المتبادلة والمنافع المتقابلة ، وبكلمة واحدة سياسة تتفق مع مصالح الامة ، ومنفعة السلم العامة ، فالعرب لا يستنكفون من تبادل المنافع بينهم وبين الأمم المتعدنة ، ولا يرفضون صداقة من يريد صداقتهم ، شريطة ألا يس ذلك بكرامتهم ولا يخل باستقلالهم السياسي التام .

أيها السادة :

ان مهمتكم اليوم خطيرة ، ومهمتكم كبيرة ، فاوروبا تنظر اليها عن

كتب ، وستحكم لنا أو علينا بالنسبة الى الخطة السياسية التي سنسير عليها ، والاعمال التي سنقوم بها في المستقبل .

فدولتنا الجديدة التي قام أساسها على وطنية أبنائها الكرام هي في حاجة اليوم الى تقرير شكلها أولاً ووضع دستور لها يعين لكل منا ، أمرنا ومأمورنا ، حقوقه ووظائفه في حياتنا المستقبلية التي أرجو أن يكون ملؤها الجد والعمل والاقدام .

وقبل أن أختم كلامي في هذه الجلسة الخالدة اريد أن أذكركم باخوانكم العراقيين الذين جاهدوا معكم وأبلاؤا بلاء حسناً في سبيل الوطن وبالواجب الذي يتحتم علينا في أمر التضامن والتعاقد ، لنعيش حياة سعيدة قوية .

وأفروكم السلام العربي الخالص ، متمنياً لكم التوفيق والنجاح في مساعيكم الوطنية والسلام عليكم .

وفي اليوم التالي عقد المؤتمر جلسته الثانية ووضع قرار اعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية ، وأن يكون فيصل ابن الحسين ملكاً عليها ، كما قرر أن يكون علمها العلم العربي المربع الألوان مضافاً اليه نجمة بيضاء في مثلثه الأحمر . وبقي العلم العربي الذي كانت « الفتاة » أوحى به علماء لمملكة الحجاز . وهذا نص القرار التاريخي المذكور :

ان المؤتمر السوري العام الذي يمثل الامة السورية العربية في مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية (الفلسطينية) تمثيلاً تاماً

يضع في جلسته العامة المنعقدة يوم الاحد المصادف لتاريخ ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٣٨ وليل الاثنين التالي المصادف ٨ آذار ١٩٢٠ القرار التالي :

ان الامة العربية ذات الجهد القديم ، والمدنية الزاهرة ، لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ولم ترق دم شهدائها الاحرار ، ولم تثر على حكومة الاتراك إلا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها أمة ذات وجود مستقل وقومية خاصة ، لها الحق في أن تحكم نفسها بنفسها أسوة بالشعوب الاخرى التي لا تزيد عنها مدنية ورقياً ، وقد اشتركت في الحرب العامة مع الحلفاء استناداً على ما جهروا به من الوعود الخاصة والعامة في مجالسهم الرسمية وعلى لسان سياستهم وحكوماتهم وما قطعوه من عهود خاصة مع جلالة الملك حسين بشأن استقلال البلاد العربية ، وما جهر به الدكتور ولسن من المبادئ السامية القائلة بحرية الشعوب الكبيرة والصغيرة واستقلالها على مبدأ المساواة بالحقوق وانكار سياسة الفتح والاستعمار ، والفناء المعاهدات السرية المخفية بحقوق الأمم واعطاء الشعوب المحررة حق تعيين مصيرها التي وافق عليها الحلفاء رسمياً كما جاء في تصريحات المسيو بريان رئيس وزراء فرنسا بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩١٥ أمام مجلس النواب ، والورد غراي وزير خارجية بريطانيا العظمى أمام لجنة الشؤون الخارجية وتصریح الحلفاء في جوابهم على مذكرة الدول الوسطى التي رفعها المسيو بريان بواسطة السفير الاميركي في باريس وجواب الحلفاء على مذكرة الرئيس ولسن في ٣٠ كانون الثاني ١٩١٧ وتصریح المسيو ريبو رئيس وزراء فرنسا بتاريخ ٢٢ أيار ١٩١٧ أمام مجلس النواب وبيان مجلس النواب الافرنسي ليلة ٤ - ٥ حزيران ١٩١٧ وبيان مجلس

الشيوخ في ٦ منه وما جاء في خطاب المستر لويد جورج في غلاسكو بتاريخ ٢٩ حزيران ١٩١٧ .

وقد كان ما قام به جلالة الملك حسين المعظم من الاعمال العظيمة ، في جانب الحلفاء ، هو الباعث الاكبر لتحرير الامة العربية وانقاذها من ربقة الحكم التركي فخلد لجلالته في التاريخ العربي أجمل الآثار وأفضلها ، وقد أبلى أنجمله الامراء الكرام مع الامة العربية في جانب الحلفاء البلاء الحسن مدة ثلاث سنوات حاربوا خلالها الحرب النظامية التي شهد لهم بها أقطاب السياسة وقواد الجند من الحلفاء أنفسهم وسائر العالم المتمدن وضحووا العدد الكبير من أبنائهم الذين التحقوا بالحركة العربية من أنحاء سوريا والحجاز والعراق فضلا عما قام به السوريون خاصة في بلادهم من الاعمال التي سهلت انتصار الحلفاء ، على ما أصابهم من الاضطهاد والتغريب والقتل والنفي والتعذيب ، تلك الاعمال التي كان لها الاثر الاكبر في انكسار الترك وجلائهم عن سوريا وانتصار قضية الحلفاء انتصاراً باهراً حقق آمال العرب بوجه عام والسوريين بوجه خاص ، فرفعوا الاعلام العربية وأسسوا الحكومات الوطنية في أنحاء البلاد قبل أن يدخل الحلفاء هذه الديار ، ولما قضت التدابير العسكرية بجعل البلاد السورية ثلاث مناطق اعلن الحلفاء رسمياً أن لا مطمع لهم في البلاد وانهم لم يقصدوا من مواصلتهم تلك الحروب في الشرق سوى تحرير الشعوب من سلطة الترك تحريراً نهائياً ، وأكدوا أن تقسيم المناطق لم يكن إلا تدبيراً عسكرياً مؤقتاً لا تأثير له في مصير البلاد واستقلالها ووحدتها ثم انهم قرروا بعد ذلك رسمياً الفقرة الاولى من المادة الثانية والعشرين من معاهدة الصلح مع ألمانيا فاعترفوا فيها باستقلالها تأييداً

لا وعدوا به من اعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها ، وأرسلوا اللجنة
الاميركية للوقوف على رغائب الشعب ، فتجلت لها هذه الرغبة في طلب
الاستقلال التام والوحدة السورية التامة .

لقد مضى عام ونصف عام والبلاد لا تزال رازحة تحت الاحتلال والتقسيم
والحكم العسكري الذي ألحق بها أضراراً عظيمة وأوقف سير أعمالها
ومصالحها الاقتصادية ، والادارية ، وأوقع الريبة في نفوس أبنائها من
أمر مصيرها ، فاندفع الشعب في أكثر أنحاء البلاد وقام بشورات أهلية
منتفضاً على الحكم العسكري الغريب ومطالباً باستقلال بلاده ووحدةها .

فنحن أعضاء هذا المؤتمر ، بصفتنا الممثلين للأمة السورية ، في
جميع أنحاء القطر السوري تمثيلاً صحيحاً نتكلم بلسانها ونجهر بآرائها
رأينا وجوب الخروج من هذا الموقف الحرج واستناداً على حقنا الطبيعي
الشرعي في الحياة الحرة وعلى دماء شهدائنا المراقبة ، وجهادنا المديد ،
في هذا السبيل المقدس ، وعلى العهود والوعود والمبادئ السامية السالفة
الذكر ، وعلى ما شاهدناه كل يوم من عزم الأمة الثابت الأكيد
على المطالبة بحقوقها ووحدةها ، والوصول الى ذلك بكل الوسائل ، فأعلننا
بإجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بمحدودها الطبيعية ومنها فلسطين
استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الاساس النيابي ، على أن تراعى آماني
البنانيين الوطنية في كيفية ادارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة
قبل الحرب بشرط أن يكون بمنزلة كل تأثير أجنبي ، ورفض مزاعم
الصهيونية في جعل فلسطين وطن شجرة لهم ، وقد اخترنا سمو الأمير
فيصل ابن جلالة الملك حسين الذي واصل جهاده في سبيل تحرير البلاد ،
وجعل الأمة ترى فيه رجلها العظيم ملكاً دستورياً على سورية بقلب

صاحب الجلالة الملك فيصل الاول ، وأعلننا انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث ، على أن يقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس في كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام الى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابي على أن تدار هذه البلاد على طريقة اللامركزية .

ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربي من حكم الترك ، وكانت الأسباب المستند إليها استقلال القطر السوري هي ذات الأسباب المستند إليها في اعلان استقلال القطر العراقي ، وبما ان بين القطرين صلات وروابط تاريخية ولغوية واقتصادية وجنسية وكل واحد من القطرين لا يستغني عن الآخر ، فنحن نطلب استقلال القطر العراقي ، استقلالاً تاماً على أن يكون بين القطرين اتحاد سياسي اقتصادي .

هذا واننا باسم الأمة السورية التي أنابتنا عنها ، نحفظ بصدقة الحلفاء الكرام محترمين مصالحهم ومصالح جميع الدول كل الاحترام ، وان لنا الثقة التامة بأن يتلقى الحلفاء الكرام وسائر الدول المحترمة عملنا هذا المستند الى الحق الشرعي والطبيعي في الحياة بما نتحققه فيهم من نبالة القصد وشرف الغاية ، فيعترفوا بهذا الاستقلال ويجلوا جنودهم عن المنطقتين العربية والجنوبية ، فيقوم الجند الوطني ، والادارة الوطنية بحفظ النظام والادارة فيها مع المحافظة على الصداقة المتبادلة حتى تتمكن الأمة السورية العربية من الوصول الى غاية الرقي وتكون عضواً عاملاً في العالم المتحدن .

وعلى الحكومات السورية التي تتألف استناداً على هذا الاساس تنفيذ هذا القرار .

وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم ٨ آذار زار الأمير وفد انتخبه المؤتمر وأبلغه القرار الذي ذكرناه آنفاً . فشكر لزارته والمؤتمر ثقتهم به . وقد اجتمع أعضاء المؤتمر وأعضاء بلدية دمشق ووجهاؤها في الساعة الثانية والنصف في دار البلدية لمبايعة الأمير .

وفي الساعة الثالثة وصل الأمير فاستقبله الحاضرون بالحفاوة والترحيب . فجلس على مقعد خاص أعد خصيصاً لهذا الاحتفال ، وكان على يمينه أخوه الأمير زيد ورجال معيته . وعلى يساره هيئة الحكومة وكبار ضباط الجيش . وحضر هذه الحفلة مندوبو فرنسا وإيطاليا وبقية الدول . وقد لوحظ عدم اشتراك أي ممثل بريطاني بهذا الاحتفال . وقد نهض رئيس المؤتمر السوري هاشم الاتاسي وقدم سكرتير المؤتمر عزة دروزه ليتلو قراره الذي ذكرناه آنفاً فتلاه من على شرفة البلدية ثم تقدم رئيس البلدية غاب الزاقي وهو يحمل بيده علم سورية الجديد ونشره فهتف الحاضرون واستلمه منه مرافق الأمير فخري البارودي ورفعته على السارية ، وقد بلغ هتاف الجماهير الفقيرة التي كانت تملأ ساحة الشهداء (المرجة) عنان السماء ورفعت في الساحة لوحة كبيرة مكتوب عليها « ليحيا جلالة الملك فيصل » وأطلقت المدافع مئة طلقة وطلقة .

وبعد أن تمت هذه المراسم نهض الملك وقال :

« أشكر الأمة نياتها الحسنة نحوي ، وعلى ما أبدته من حسن الاعتماد ، واشهد الله أنني ماقت إلا بما يجب عليّ ، وأتني أن أوفى لأقوم بكل ما يكفل استقلال البلاد وحريتها ، ولاعتني بشؤون الشعب السوري ورفقيه ، وأشهدكم على قولي هذا والله خير الشاهدين » .

وبعد ذلك بدأت البيعة من قبل الامير زيد وتلاه بطريرك الروم
ورجال الدين والحكومة وأعضاء المؤتمر ووجهاء البلاد .

ويلاحظ عدم اشتراك ممثل بريطانيا في هذا الاحتفال رغم أنه يتبادر
الى الذهن بأن بريطانيا سيما الجنرال آللبي الذي كان لغاية ذلك التاريخ
قائداً لجيوش الحلفاء في الشرق الأدنى سيكون أول المتظاهرين بهيئة
الامير وبأيديه بما يكون فيه صالح البلاد التي عهد اليه تحمل المسؤولية
فيها . لكن وجهة نظر انكلترا التي لم ينتبه لها أحد في سورية في
عمرة اعطاء مثل هذا القرار الذي كان يترقبه جميع الاهلين بفارغ
الصبر ، ان وجهة نظر انكلترا هذه هي أن اعلان الاستقلال هذا يخرج
الامير من كونه قائداً من قواد الحلفاء يحتل جزءاً كبيراً من بلاد
كانت تابعة لتركيا التي لم يكن قد عقد الصلح معها وحارب مع الحلفاء
في أحلك ظروف الحرب العظمى . وهذا الاعلان يجعله ملكاً على سورية
بدون موافقة رسمية من أي دولة من دول الحلفاء وبدون أخذ رأي
مؤتمر الصلح في ذلك . وهذا الوضع الجديد يسهل لفرنسا انتحال
الحجج ليصبح لها حرية الاعمال العسكرية في المملكة الناشئة . لذلك
رأينا فرنسا تشجع الامير على ما تم بدون أن توافق رسمياً على ذلك .
ومن المؤلم أن تثبت الحوادث ما كانت ترمي اليه فرنسا .

وبعد أن تمت البيعة كلف الملك فيصل رضا الركابي بتشكيل الوزارة
تنفيذاً لوعده . وفي اليوم الثاني أي في ٩ آذار رفع رضا الركابي للملك
قائمة بأعضاء وزارته وهي تتألف من شيوخ معتدلين هم :
رضا الصلح (من صيدا) وزيراً للداخلية .

علاء الدين الدروبي	رئيساً لمجلس الشورى
أمير اللواء عبد الحميد القلعةجي	حاكم حلب العسكري ووكيلاً لوزير الحربية
فارس الخوري	وكيلاً لوزير المالية
ساطع الحصري	وزيراً للمعارف
السيد جلال الدين	وكيلاً لوزير العدلية (الاذقية)
يوسف الحكيم	وكيلاً لوزير التجارة والزراعة
سعيد الحسيني	وزيراً للخارجية (من فلسطين) .

فوافق الملك على تشكيل الوزارة الجديدة وجاء في كتاب الموافقة بعد سرد أسماء الوزراء : « نأمل أن تصرفوا الجهد في المحافظة على الحقوق وتوطيد الأمن والراحة في البلاد وتوثيق عرى العلاقات الودية بين حكومتنا والحكومات المتحابة وأخصها حكومات الخلفاء توصلاً لتحقيق أماني الشعب السوري وآماله في وحدته ، وأن تبذلوا غاية الوسع في بث روح الوثام بين جميع طبقات الأمة السورية على اختلاف مذاهبها ونزعاتها . واتنا نسأل الله أن يقرن أعمالكم بتوفيقه ويتولاكم بعنايته » .

وانصرفت الوزارة الجديدة الى تدبير شؤون الدولة على الأسس التي يتطلبها العهد الجديد . وسمي رئيس بلدية حلب احسان الجابري الذي كان موظفاً في البلاط العثماني في استانبول رئيساً لأمناء الملك . فعمل على تطبيق النظم المعتادة في السرايات الملكية على الملك فيصل ، ووضعت المراقيل في حرية مقابلته بعد أن كان يتصل بمختلف طبقات الشعب ، تنفيذاً للقاعدة الدستورية التي تجعل السلطة الفعلية في يد الحكومة ، فأحدث ذلك كثيراً من القيل والقال .

وبعد مرور اسبوعين على تشكيل الوزارة تقدم الركابي من المؤتمر السوري ببيان الوزارة وتلاه علاء الدين الدروبي بالنيابة عنه :

أيها السادة المحترمون :

هيئة الوزارة سعيدة جداً بكونها أول وزارة وطنية دستورية في تاريخ سورية ظهرت أمام أول مجلس ممثل للأمة تقرأ بيانها وتبسط خطتها فهي لذلك تقف بتحية هذا المجلس الوطني الجليل الذي سيكون له الذكر الخالد في الأمة جيلاً بعد جيل لأنه كان العرب الصادق عن رغائبها والمؤيد لحقوقها والمؤسس لحكومتها الجديدة في تاريخها المجيد .

تعلمون أيها السادة أنه عندما نشبت الحرب العامة واقتحمتها دول الارض الواحدة تلو الأخرى قامت الأمة العربية بزعامه رئيسها وأميرها جلالة الملك حسين المعظم وانضمت الى جانب الحلفاء تقاتل معهم جنباً الى جنب وترخص الضحايا الغالية في الدفاع عن القضية المشتركة أملاً بنيل استقلالها والتخلص من الاستعباد الذي أناخ عليها مدة طويلة ، ضاعت فيه مدينتها القديمة وتقوضت دعائم عزها الاثيل ، وكان قيامها وانضمامها للحلفاء في أيامهم الحرجة عندما كانت كفة انتصارهم غير راجحة ضربة شديدة على الآمال الواسعة التي توقعها ألمانيا والمتفقون معها من التحاق الدولة العثمانية بهم وذلك لما للأمة العربية من المقام التاريخي والاجتماعي ، وجنى الحلفاء من جراء ذلك فوائد عظيمة اشتد بها أزرهم وقتاً في سواعد خصومهم وانتهت الحرب باندحار الألمان والمتفقين معهم وانتصار مبادئ الحق على القوة وتحورت الأمة العربية بفضل ما قام به جلالة الملك حسين المعظم وأنجاله البواسل من الأعمال العظيمة التي

قلدوا بها أعناق أممهم اطواقاً من الشكر والفخر ، فهو إذن المؤسس
الاول لتاريخ العرب الجديد الذي فتحت به هذه الأمة عصرها الذهبي
الثاني فنحن نرفع لسدته الملوكانية فروض التبجيل والشكران ونسجل
لجلالته في تاريخنا فصول الاجلال والامتنان .

كما أن نجله النابغ صاحب الجلالة الملك فيصل ملك سورية المعظم
الذي اقام الدعوى السورية وأخذ على نفسه الدفاع عنها الى الدرجة
الآخيرة ، وواصل الجهاد في تحرير هذا القطر ، هو المؤسس الأول
للمملكة السورية ، وصاحب الفضل الأكبر في استخلاصها وانشائها على
قواعد الحرية والتجدد ، فاجتمعت عليه قلوب أبناءها ، وانعقدت آمالهم
واتفقت كلمتهم على أنه ملك هذا القطر الذي لا يدافع ، وسيده الذي
لا ينازع ، فترفع لسدته الملوكية عهد الطاعة ، ونهى عرش سورية
بالوطني الباسل والملك العادل . ولا ننسى أن نذكر بلسان الشكر
والتبجيل دول الحلفاء العظيمة التي ثبتت أقدامها الراسخة في مآزق الروع
فأيدت مبادئ الحق ودكت صروح الباطل ونادت بعهد جديد وعصر
مجيد ، هو عهد حرمة الحقوق وحرية الشعوب وانكار سياسة الفتح
والاستعمار ، وإبطال المعاهدات السرية المجحفة بحقوق الأمم واعطاء
الشعوب المحررة حق تقرير مصيرها ، وقد نلنا بفضل معونتهم مالا
تنسا هذه الأمة .

على هذه المبادئ النبيلة والاساسات الراسخة انتخبت الأمة السورية
أعضاء مجلسكم الموقر لأجل تعيين مصيرها على شكل يوافق امانها ويؤيد
حقوقها التي منحها إياها الطبيعة ودعمها مفاداتها وضحاياها الجسيمة في

الحرب العامة وأقر بها الحلفاء في وعودهم وعهودهم واعترفوا باشتراكهم معها بالفخر في هذا النصر ، فانفتحت كلتكم على اعلان استقلال سورية بحدودها المعروفة ضمن المناطق الثلاث التي قضى الاحتلال العسكري الموقت بقسمتها إليها وعلى المناداة برجل الأمة ومحررها فيصل بن الحسين ملكاً عليها ، وعلى انشاء حكومة دستورية مسؤولة أمام مجلس الأمة ونشرت بذلك قراراتكم التاريخية الناطق بالحزم والحق في اثنامن عشر من شهر جمادى الآخرة والثامن من شهر آذار الحاضر ، فكان ذلك مبدأ حياتنا الجديدة الحرة وقد قابلت الأمة بأجمعها عملكم المجيد بالاستحسان والابتهاج وأقامت المهرجانات والأفراح في جميع أنحاء البلاد لثناء عملها هذا دليلاً آخر يثبت بالفعل اجماع الشعب على تأييده هذه الغاية وتفانيه في سبيل تحقيق أمانيه القومية الشريفة ، فنحن نظري عملكم هذا ونقدم لكم شكراً وثناء يسجل لكم في تاريخ الأمة .

واستناداً على هذا القرار الذي خرجت به رغائب الأمة من القول الى الفعل وظهر فيه الحزم وصدق العزيمة ، عهد إلينا جلالة مولانا الملك المعظم بإدارة المملكة على المبادئ المدنية الدستورية التي اختارها مجلسكم الموقر فباشرونا العمل وتسلمنا ازمة الامور مستعينين بالله ومعتمدين على مؤازرة الأمة ، وموطنين النفس على ان نبذل أقصى الجهد في سبيل المحافظة على الاستقلال التام ضمن الوحدة السورية لتتمكن امتنا من الوصول الى المقام الذي يليق بها بين الأمم الراقية من المدنية والعمران على نسبة نجابة ابنائها وتاريخها المجيد .

ولنا وطيد الأمل بحسن نيات الحلفاء العظام ان يقابلوا حياتنا

الجديدة بالسرور والارتياح ويعاضدوننا في إزالة جميع العراقيل التي تحول دون رقينا ونجاحنا خصوصاً الدولتين العظيمتين بريطانيا وفرنسا اللتين عرفنا بمحبتتهما للعرب ، وشملتهم معونتهما الثمينة في حرب حريتهم ، وكنا اول من وافق على القواعد الصحيحة والغايات النبيلة التي على موجبها جاءت الامة الاميركية الشريفة لنجدتهم من عبر الاطالتيك ، ولدينا من وعدهما ما يضمن لنا استمرار ولائهما وبقاء محبتتهما المفيدة لنا في ايام السلم كما كانت في ايام الحرب ، فلا يكون منهما اليوم إلا ما يأتلف مع مبادئهما الشريفة ، ويسهل لنا طريق الفلاح والعمران .

وفوق ذلك فهما تعلمان علم اليقين اننا لا نرغب إلا الحياة المطمئنة الهادئة في ظل سلم عام ولا يمكن ان يستقر ذلك في سورية مع تجزئتها وحرمانها من الحكم الذاتي ، وتتفان اننا نصون مصالح جميع الأمم في بلادنا وخصوصاً مصالح هاتين الخليفتين العظيمتين بحيث نفيد ونستفيد ، وعملنا هذا منطبق على الغاية الشريفة التي خاضوا وخضنا معهم لاجلها غمار هذه الحرب الضروس وشهد لنا بالفضل فيها اعظم رجالهم مرات عديدة وهو مؤيد ومحقق لوعودهم بحق هذه الامة .

فسياستنا الخارجية اذن هي سياسة السلم والولاء مع جميع الدول وخصوصاً مع دول الحلفاء الذين آزرونا وسيؤازروننا في السلم ايضاً وصيانة حقوق رعاياهم والاستفادة مما نحتاج إليه من مدينتهم مما يساعد على رقينا ولا يمس استقلالنا .

اما ادارتنا الداخلية فتبقى على الاسس الحاضرة الى ان يصدر القانون الاساسي الذي يضمن لسكان كل مقاطعة من ابناء الوطن حسن

السعي في سبيل عمران بلادهم وتنمية ثروتهم وترقية حالهم وسنبذل الجهد
 في توطيد الأمن العام واقامة قسطاس العدل بين الناس على شكل يوصل
 أصحاب الحقوق الى حقوقهم بالسرعة المرغوبة وتقوية الجيش لأجل
 حفظ الأمن والنظام والدفاع عن الاستقلال التام . ونحن نرى بملء السرور
 ان هذه الخطة منطبقة على رغائب الأمة التي تلي دعوة الجندية بالحمية
 والرغبة للقيام بخدمة الوطن المقدس ، وسنعنى بصورة مخصوصة بنشر المعارف
 وجعل المدارس في حالة يمكنها أن تخرج للبلاد رجالاً مشبعين بحب
 الوطن وسلامة الفكر وقوة البنية ومثانة الاخلاق وسنهتم باغناء خزائن
 علومنا بترجمة كتب العلوم والفنون الحديثة والاستفادة من المعارف
 الغربية وسنسمى لتحسين حالة البلاد الاقتصادية وانماء زراعتها وتجارتها
 وصناعاتها والاستفادة من خزائنها الارضية ايكتر الانتاج وتزاد الثروة
 العامة فتخفف عنا بذلك وبمراعاة قاعدة الاقتصاد وطأة الغلاء الثقيلة التي
 شملت العالم وأصبحت شغل كبارهم وساستهم الشاغل . ولما كانت هذه
 الاعمال لا تقوم إلا بالمال والحكومة لا يمكنها ايفاء هذه الوظائف بدون
 أن يكون لديها المقدار الكافي منه وكانت الواردات الحاضرة لا تقابل
 النفقات المبرمة التي يقتضيها تطورنا الجديد وانفاذ خططنا المذكورة فانا
 سنسعى لايجاد التوازن بين الواردات والنفقات ، وسنفرغ قصارى الجهد
 في سبيل انفاق أموال الخزينة في وجوها النافعة بحيث لا يصرف مال
 جزافاً وبدون عمل يقابله . ونحتاج في ذلك الى حمية الأمة واسراعها
 في تأدية التكاليف والى سخاء نحن إليه الآن أحوج منا الى أي
 شيء كان .

وسيكون عملنا الآن بالقوانين والانظمة المدنية العثمانية وما جرى

تعديله أو رفعه منها بعد عهدهم الى أن يتيسر لنا تبديلها وتعديلها بصورة تدريجية على شكل يوافق حالة البلاد وأخلاقها ورقبها ويلائم المدنية الحاضرة ويصون حقوق الافراد والجماعات ويساعد على رقينا الحقيقي .

والحكومة ترجو من المجلس الموقر أن يسرع في وضع القانون الاساسي وقانون انتخاب نواب الامة لتباشر اجراء الانتخاب وجمع المجلس التشريعي بأقرب ما يمكن . وفي الختام نأمل من الامة وممثليها الكرام أن يعاضدونا في مهمتنا الوطنية ونحييكم باحترام .

وتكلم بعض النواب على الاثر مؤيدين الوزارة فوافق المجلس على الثقة بها بالاجماع .

ويلاحظ من تشكيل هذه الوزارة أن الملك قد أبد فكرة رئيس وزارته باتباع سياسة الاعتدال ومماشاة فرنسا وبريطانيا للوصول الى الغايات التي تهدف إليها البلاد . ولم يعد فيصل المسؤول الاول عن سياستها بل أصبح ذلك منوطاً بوزارة مسؤولة أمام المؤتمر الوطني السوري الذي يمثل الامة . وخرجت سورية نظرياً عن سلطة الاحتلال رغم أن الساحل السوري ولبنان تحتله القوات الفرنسية وتحتل سورية الجنوبية (فلسطين) القوى البريطانية .

واجتهدت وزارة الشيوخ المعتدلين هذه في مسألة فرنسا وانكلترا وحرصت على إحلال الهدوء في البلاد ، متوخية من وراء ذلك عدم مقاومة السلطات المحتلة لجزئي سورية اللذين أدخلهما المؤتمر في الحكومة السورية الناشئة . فأبرقت الى لندن وباريس راجية الاعتراف بما تم ، وأعقبت برسالة مذكورة ايضاحية في ١٢ منه الى كل من دول الحلفاء

تبلغها فيها قرار المؤتمر السوري واعلان الاستقلال مؤكدة عزمها على انشاء صلات ودية تضمن المصالح المتبادلة بيننا وبين الحلفاء سيما مع بلادهم الكريمة التي كانت عوناً ثميناً في تحقيق أمانينا الوطنية .

وسلك الملك فيصل مسلك حكومته فأرسل رسالة خاصة الى الرئيس ولسن ذكر في مقدمتها كفاح العرب المرير أثناء الحرب لنصرة الحلفاء ، ومبادئه المتضمنة حق الشعوب في تقرير مصيرها وتمتعها باستقلالها ثم قال فيها :

انقسمت سورية عقب الهدنة الى اربع مناطق ادارية وذلك وفقاً لمعاهدة سرية لا نعلم من حقيقتها شيئاً ، فحنق الشعب عندما رأى ما آت اليه حالة بلاده ، ولم يسكن جأشه إلا بعد التأكيدات العديدة بأن هذه التقسيمات وقتية لا بد أن تضمحل مع الحكم العسكري ، ولم يطل هذا الأمر حتى ذاع خبر عقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا يؤول الى فرط عقد البلاد وتقسيمها ، فكان لهذا النبأ وقع سيء في النفوس ، حتى ان الشعب عيل صبراً ورجع بعضه الى امتشاق الحسام للذود عن وحدة سورية التي أصبح أمرها مبهماً ، وبما ان القسم الشمالي من سورية ، يتأخم بلاداً لا تزال تتأجج فيها نيران الثورات ، اوجسنا خيفة من أن يتسرب ذلك الاضطراب الى سورية بأكملها .

ولم نر دواء اتلافي الامر ، أنجع من جمع المؤتمر السوري المنتخب من الشعب واعلان استقلال سورية والمناداة في ملكاً عليها ، مما أدى الى ارجاع الامن الى نصابه في البلاد ، وكل هذا يتفق مع وعود الحلفاء ونصرياتهم ، وبما اننا لا نطلب إلا حقاً منحتنا إياه الطبيعة ، وزكته

دماؤنا في الحروب أيده تاريخنا ، فاننا نتوقع ان يقابل الحلفاء حكومتنا الجديدة بارتياح .

ان تقسيم سورية الحاضرة هو حجر عثرة في سبيل رقيها الاقتصادي والسياسي ، ولا يمكن ان يحيم السلام فوق ربوعها إلا بعد ان تؤمن وحدتها ويضمن استقلالها .

وبينا كانت هذه المساعي قائمة في سورية والمخابرات جارية ، أعلن رئيس الوزارة البريطانية لويد جورج في ١٨ آذار في مجلس العموم ان الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية ابلغتا فيصل بأنهما لا تعترفان بما تم في دمشق ، وأنه دعا فيصل للحضور الى اوروبا لحل هذه القضية في مؤتمر الصلح .

وكان اللورد كيرزن وزير الخارجية البريطانية قد أرسل برقية لفيصل جواباً على برقية الحكومة السورية لانكلترا عما تم فيها تنفيذاً لقرار المؤتمر السوري « مؤكداً عدم اعتراف حكومته بما جاء في قرار المؤتمر ، وخاصة عن فلسطين والعراق ، وان مصلحة الملك في الاسراع بالقدوم لاوروبا لعرض قضيته على مؤتمر » .

وكان مقررأ ان يجتمع مجلس الحلفاء الاعلى في اواسط نيسان للبت في قضية الانتدابات فرد عليه فيصل بهذه البرقية :

« ان المؤتمر السوري الذي اجتمع في السابع من هذا الشهر ، في دمشق ، هو نفس المؤتمر الذي عقد فيها اجتماعات عديدة على مرأى ومسمع من السلطة البريطانية التي كانت في يدها قيادة سورية في ذلك الحين . لقد اجتمع هذا المؤتمر لابداء آرائه للجنة الاميركية التي جاءت

لاخذ آراء الاهالي ، وفقاً لقرار مؤتمر الصلح ، وطال اجتماعه بعد
 ذلك ثلاثة أشهر ، وفي نهاية السنة الماضية عقد اجتماعاً آخر ، وبحث
 في مسائل داخلية متنوعة ، ولم تقابل اجتماعاته الاخيرة بأدنى احتجاج
 من السلطات البريطانية أو الفرنسية ، وهو مؤلف من هيئة نظامية
 أعضاؤها مندوبون منتخبون انتخاباً قانونياً ، فعقد اجتماعه الأخير ،
 الذي اعلن فيه استقلال البلاد والمناداة بي ملكاً عليها ، لا يمكن أن
 يعتبر انه تصرف خلافاً لآراء الحكومتين الانكليزية والافرنسية ، مادام
 بيانه مؤسساً على مالهاتين الحكومتين وسواهما من الحلفاء من التصريحات
 والوعود ، يضاف الى ذلك ان المؤتمر وضع أمامه ، بالوسيلة التي اتخذها
 تسكين الشعب والحفاظ على الأمن من الافكار المريبة التي بدأت بالانتشار
 في الشرق ، وأعلن بأوضح اسلوب اخلاصه لدول الحلفاء ، وعلى الأخص
 للحكومتين (انكلترا وفرنسا) ، فالشعب وأنا في أوله ، أظهر لبلادكم
 تعلقه المخلص يوم كان للعرب مجال ، وحارب في صفوفكم ، وكان له
 السرور أنه ساهم في الظفر الذي تم في الشرق ، ولا يمكن أن
 يتصرف اليوم خلافاً لمصالح بريطانيا العظمى وحلفائها ، بل بالعكس
 من ذلك يدافع دفاع المتحمس ، عن هذه المصالح ، ويكون مستعداً
 على الدوام لوضع كل موارده في خدمة الحلفاء ، وقد أظهرت الحرب
 الاخيرة برهاناً ساطعاً على حسن نياتنا ، ولكن يجب ألا يغرب عن
 البال ، انه اثر الوعود التي قطعت لنا أخذت على عاتق ادخال الشعب
 العربي في الحرب العالمية ، وتعرضت لمسؤولية عظمى تجاه الشعب ، فهذا
 الشعب يطلب مني الآن انجاز الوعود التي وعدته بها ، مما يضطرني أن أرجوكم
 إيجاد حالة تمكّني من انجاز الوعد .

ان لي مزيد الامل في هذه الظروف ، انكم تبلغوني جواباً على هذه البرقية الاعتراف مبدئياً ، باستقلال سورية التام ووحدةها ، الأمر الذي يسمح لي بالذهاب الى اوروبا ، لاقدم الشكر لحكومة جلالة ملك بريطانيا على ذلك ، ولتنوير المجلس الأعلى عن موقف سورية الحقيقي .

وبعد أن وصلت الامور الى هذا الحد أرسل الملك الى لندن وباريس نوري السعيد الذي امتاز بكونه قائداً اشترك في الحرب مع الحلفاء ، وله اباقة سياسية ، بعد أن زوّده بكتابين أحدهما للورد كيرزن والثاني لميلان ، مبرراً بهما الخطوة التي سلكها في سورية ، ساعياً الى إقناعهما بأنه وحكومته لا يرغبان إلا باستمرار الصداقة التي كانت شعاره مع الحلفاء إبّان الحرب .

أما رد فرنسا فكان البلاغ الذي أذاعه قلم المطبوعات الفرنسي في بيروت وقد جاء فيه : « تواترت الاشاعات بأن اجتماع المؤتمر السوري والتصريحات التي صارت المجاهرة بها كانت نتيجة اتفاق بين الحكومتين الفرنسية والعربية . ومن البديهي أن هذه الاشاعات ساقطة من نفسها ولا نصيب لها من الصحة لأن مثل هذه القرارات هي من شأن مؤتمر السلام ، والحكومة الفرنسية أبعد من أن يكون لها علاقة بما تم » .

فأرسل سكرتير الامير للجنرال غورو برقية شرح فيها بأن ماتم لا يتنافى والصداقة المتبادلة بين البلدين وان سورية تعتمد على الصداقة الافرنسية ورجاء تبليغ ذلك لحكومته .

وبعد أن بت بأمر الانتداب على سورية والعراق في ٢٦ نيسان بمؤتمر سان ريمو أرسل رئيس الوزارة الفرنسية المسيو ميلان الى الملك فيصل في ١٣ ايار ١٩٢٠ البلاغ الآتي :

« ان الحكومة الفرنسية مشيرة من جهة الى بلاغاتها السابقة ومن جهة أخرى الى المبادئ العمومية لتحرير الشعوب والمعاونة الودية التي أعلنها مؤتمر الصلح تؤكد اعترافها بأن للاهالي الناطقين بالعربية من جميع المذاهب والساكنين في القطر السوري الحق في أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم بصفتهم شعوباً مستقلة ، وترى من واجباتها أن تقبل المهمة التي عهد بها إليها مؤتمر الصلح لاعطاء هؤلاء الاهالي مشورتها ومساعدتها لتحقيق أمانهم المشروعة وجعلهم ينتظمون أمماً . وهذه المساعدة لا بد منها بعد استبعاد طويل والخروج من حرب تركت البلاد خراباً وتستضمن استقلالهم من كل اعتداء ضمن الحدود التي يعينها مؤتمر الصلح ناظرة نظر الاعتبار الى الادارات الذاتية اللازمة » .

ورد فيصل على برقية ميلران بريقة أبان فيها استياء السوريين من تقسيمهم الى شعوب عديدة ، إذ انهم شعب واحد وينزع نزاعاً واحداً ورجا الاعتراف بذلك وباستقلالهم .

وقبل وصول تبليغ ميلران بثلاثة أيام أرسل قائد جيوش الحلفاء اللورد آللني للملك بريقة من مصر هذا نصها :
يا صاحب السمو :

أمرتي حكومة جلالتك أن أقدم لكم الرسالة الآتية :
بنتيجة المقررات التي اتخذها الحلفاء أخيراً في سان ريمو ، قد تم الاعتراف بسورية والعراق دولتين مستقلتين ، على شرط أن تتناولهما مساعدة دولة منتدبة الى أن يحين الزمن الذي تستطيعان فيه الوقوف وحدهما . وبناء على هذه المقررات ، قد أودعت مهمة الانتداب لسورية الى

فرنسا ، كما ان مهمة الانتداب للعراق أوكلت الى انكلترا مع انتدابها
لفلسطين ، وان حكومة جلالاته تشعر شعوراً قوياً بأن الوقت قد أوفى
للوصول الى خطة تأتلف بها مطالب الشعب السوري مع هذه المقررات .

وقد ذكرتم سموكم في كتابكم رقم ١٠٣ المؤرخ في ٢٨ آذار ١٩٢٠
المرسل الى وزير الخارجية البريطانية ، رضاءكم بالسفر الى اوربا ،
على شرط الاعتراف باستقلال الشعب السوري ، وحكومة جلالاته مستعدة
بناء على القرارات التي اتخذت أخيراً للاعتراف بسموكم مبدئياً ، رئيس
دولة مستقلة ، إلا انها تعتقد اعتقاداً قوياً بأن قضية ملكيتكم انما ينحصر
حق البت فيها رسمياً بمؤتمر الصلح وحده ، ولذلك تلح على سموكم بأن
تأتوا الى اوربا ، بدون ابطاء وتيسطوا قضيتكم أمام رجالها ، وسيعقد
المؤتمر دورته القادمة في باريس في آخر شهر ايار ، وتأمل أن يجد
سموكم السبيل لحضور المؤتمر خلال اجتماعاته هذه .

واني بالالاحاح على سموكم باجابة دعوة حكومة جلالاته بالسفر الى
باريس بلا انتظار ، أرغب في أن أؤكد لكم بأن الباعث الوحيد لخطة
حكومة جلالاته في هذا السبيل ، هو رغبتها في اعطاء آمال سموكم
وأمانيه الاعتبار التام ، مع منحكم الفرصة اللازمة لبسط قضيتكم بكل
تفاصيلها .

ويظهر من بلاغ الحكومة الفرنسية المنتدبة على سورية أنها تعتبر
سكان سورية شعباً واحداً وأنها ستعمل على أن يصبح السوريون
أئماً وهذا ما لا يخطر على بال أحد من الوطنيين السوريين إذ كان هدفهم
الوحدة العربية .

أما نتائج سفر نوري السعيد لما كان يمكن أن يكون لها تأثير يذكر في قرارات مؤتمر الحلفاء المنعقد في سانت ريمو والذي أقر الانتدابات على البلاد العربية في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ وقد أصرت انكلترا على فيصل بالاسراع بالسفر لأوروبا قبل البت نهائياً بمستقبل البلاد ليشارك في مذاكرات تقرير مصيرها إذ قد يتوصل لاقرار ماتم في دمشق تنفيذاً لقرار المؤتمر السوري في سورية الداخلية ، التي كانت تعتبر محتلة من قبل الجيش العربي الحليف . فقرارات المؤتمر السوري الذي أدخل فيها استقلال فلسطين والعراق أيضاً كانت عاملاً على زيادة التقريب بين لندن وباريس والاسراع في اقرار الانتدابات ، وقد بذل السعيد غاية جهده للتأثير على الرأي العام في كل من انكلترا وفرنسا عله يحرك الضمير العالمي لانصاف العرب بعد أن خذلته الحكومتان الكبيرتان المنتصرتان في الحرب ، فأذيع في لندن في ٥ نيسان ١٩٢٠ مايلي :

وصل الى هنا نوري السعيد وسلم كتابين خطيين بخط يد الملك الى وزارتي الخارجية بفرنسا وانكلترا ، وقد كرر فيهما تأكيداته بصداقته لفرنسا وانكلترا ، وطلب معونتهما باعترافهما باستقلال بلاده ، وقال عن العراق : إن الوسائل التي اتخذها المؤتمر العراقي بدمشق إنما اتخذت للقضاء على دسائس الترك وأعمال التحريض بين السكان في الموصل ، ولا يميل السكان في العراق وسوريا الى الترك .

وقال أيضاً : ان جميع السكان يتوقعون بالطبع تحقيق أمانهم بمساعدة الحلفاء .

ولما كان لوعود ولسن رئيس الولايات الاميركية تأثير كبير في

الخطوة التي سلكها فيصل وتمسك بها السوريون فقد أرسل الملك لولسن أيضاً رسالة يذكره فيها بالوعود الطيبة التي وعده بها وبأن رغائب الاهلين وحریتهم ستكون مضمونة . وذكر الملك ما قام به العرب في الحرب العظمى من أعمال عظيمة بعد أن وعدتهم بريطانيا بتحقيق أمانهم القومية وتوسع في ذكر الاضرار الناجمة عن تقسيم سورية . وأعلمه أيضاً أن الشعب اضطر الى اعلان استقلاله وملكية فيصل بفكرة ضمان مستقبله . وقد استتب الأمن والنظام في البلاد نتيجة لذلك ورجا الرئيس ولسن أن يتفضل ويستعمل نفوذه لتأييد قضية سورية الحقة .

ومن المؤسف أن ولسن كان قد أصيب اصابة خفيفة منذ ابتداء ايلول ١٩١٩ بالفالج النصفي بعد أن بذل كل ما يمكن بذله من جهود ، وتساهل تساهلاً لم يكن مأمولاً منه مع لويد جورج وكننصو ، مخالفاً بذلك مبادئه التي أذاعها على العالم ، ليتمكن من عقد معاهدة الصلح في مؤتمر فرساي . وبعقدها تشكلت جمعية الأمم . لكن حكومة الرئيس ولسن التي كانت العامل الاساسي في تشكيل جمعية الأمم ، لم تشترك بها لأن الكونغرس الاميركي رفض في تشرين الثاني ١٩١٩ التوقيع عليها . وبذلك خرجت أميركا من مسرح السياسة الدولية الاوروبية . بيد أن هذا كله لم يقطع أمل سورية في أميركا وهي لا ترى أمامها غيرها تعلن باخلاص ضرورة منح الشعوب المغلوبة على أمرها حقها . وبعد انغزال أميركا من مسرح السياسة الاوروبية أسرع لويد جورج وصرح بأن الضمانات التي قطعتها انكلترا وأميركا لفرنسا قد سقطت عن كاهل بريطانيا أيضاً بعد أن رفضت أميركا توقيع معاهدة الصلح . فبرز ذلك فرنسا هزأً عنيفاً ، وطفق العداء ينتشر فيها ضد

لويد جورج وسياسته . وما كاد يمضي على توقيع معاهدة فرساي بضعة أشهر حتى سقطت وزارة كلمنصو ، وذلك في كانون الثاني ١٩٢٠ ، فلم يعد للويد جورج وسياسته أصدقاء في فرنسا ، وأصبح شديد الكراهية فيها .

لهذا كله لم يتلق الملك فيصل من الرئيس ولسن أي جواب رسمي . كما أن بريطانيا التي كان يُنظر إليها في المحافل السياسية الغربية كصديقة للعرب ، وفيصل بنوع خاص ، لم تعد في وضع تملك فيه التأثير على مجرى السياسة الفرنسية ، بل لم يعد لمؤتمر فرساي نفسه هاتيك الأهمية وذلك النفوذ اللذان كانا له عندما كانت أميركا أحد أعضائه .

وهذا الوضع الدقيق المخرج أيقظ أفكار الوطنيين في الحكومة الناشئة وجعلهم يستوثقون من سوء نية حلفاء فيصل في الحرب ، فأخذوا يطالبون الحكومة بأن لا تأخذ الأمور بسياسة اللين بل تعد نفسها حكومة دفاع وطني ، واجهها الأول اعداد المعدات لدفع العوادي عن الوطن ، وكان لاعتراض فرنسا على رفع العلم السوري الجديد على دار الاعتماد العربي في بيروت ، وعلى الدعاء لفيصل في مساجد الساحل السوري ، تأثير وأي تأثير على الوطنيين ، فألهب جذوة الحماس في الصدور ، وأقيمت المظاهرات احتجاجاً على ذلك ، مطالبين بتجديد كافة امكانيات البلاد دفاعاً عن الوطن . وقد اعترضوا كذلك على تساهل الحكومة السورية تلقاء فرنسا في نقل الذخائر الحربية الى أضنة بطريق السكة الحديدية التي تمر في سورية ، لأن ذلك يساعد الفرنسيين على اخراج المحتلين من الثورة التركية الناشئة في شمال الحدود السورية لاجراج المحتلين من الاراضي التركية ، فيتفرغ الفرنسيون عندئذ لتحقيق مآربهم العدوانية

في بلادنا . وحدث أن سحبت فرنسا جزءاً من قواها الموجودة في الشرق الأوسط في تلك الآونة لاستخدامها في ألمانيا بمناسبة اعتزامها احتلال الرور ، فكانت حاجة القيادة الفرنسية ماسة لنقل العتاد والجنود في منطقة احتلالها في سورية وكيليكية . فوجه أعضاء عديدون في المؤتمر السوري أسئلة للحكومة عن كل ما تقدم وهاجموها بشدة ، فأجابت الحكومة المجلس في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ بما يهدي ثائرة الخواطر مؤكدة أنها توفرت على منع الكثير مما كان يشتكى منه ، إذ سحب الاعتراض الفرنسي على رفع العلم السوري على دار الاعتماد في بيروت رغم مزاعم فرنسا بأن تغيير الأوضاع في البلاد المحتلة منوط بمؤتمر الصلح ، وأن ليس هنالك حشود من القوى الإضافية على حدودنا ، وغاية ما أشيع عن ذلك لا يتعدى بعض تنقلات عسكرية اقتضاها الوضع العسكري ، بل إن فرنسا خفضت من قواها بدلاً من زيادتها . فكان من هذا الجواب المترن أن الوزارة لم تضطر إلى تقديم استقالتها . ولما كان رئيس الوزارة معروفاً بالاعتدال ولا يُقر استعمال القوة في مقاومة دولة عظيمة كفرنسا تملك جميع لوازم الحرب ومعداتنا ، وقد خرجت ظافرة من الحرب العظمى ، وكان الوطنيون يخالفونه تماماً في هذه السياسة ، ويهدفون إلى المقاومة حتى النهاية نصرته للحق وانتصاراً على الظلم ، وكنت على هذا الرأي مع الشيخ كامل القصاب ، فقد راجع الوطنيون الملك فيصل يرجون منه تأييد فكرتهم وتشكيل حكومة ضمها الأول الدفاع .

وحدث في هذه الأثناء أي في ٢٤ آذار أن قرر مؤتمر سان ريمو منح فرنسا الانتداب على سورية ، وانكلترا الانتداب على فلسطين

والعراق . فهاج الوطنيون متخذين من ذلك أكبر حجة تبرر موقفهم . وقد انحاز إليهم الملك فيصل وندب كبير أمنائه ليقنع الركابي بتقديم استقالته ، فقدمها في ٣ مايس متذرعاً بأسباب صحية . ومن سوء حظ سورية أن أميركا التي أوفدت لجنة الاستفتاء لبلادنا ، لم تعد عضواً في مؤتمر الصلح ، كما أن استقالة كلنصو وتحول الرأي العام في فرنسا ضد انكلترا لم يكن في صالح قضيتنا . وكان من نتائج ذلك أن خلا الجو لفرنسا فتمكنت من حرية العمل العسكري في سورية الداخلية رغم أن معاهدة سيكس - بيكو لا تجيز لها ذلك . هذا وإن إعلان قرار المؤتمر السوري استقلال سورية بحدودها الطبيعية يوم ٨ آذار على أن يكون بينها وبين العراق اتحاد سياسي واقتصادي ، وإعلان رجالات العراق الموجودين في سورية في نفس اليوم استقلال العراق من على شرفة البلدية نفسها التي أعلن منها استقلال سورية ، لم يخل من التأثير على انكلترا التي كانت ترمي إلى نيل الانتداب على فلسطين والعراق اللذين كانت جنودها تحتلها .

وإذا أمعنا النظر في تحدي سورية لفرنسا وانكلترا معاً بهذا العمل رأينا أنه وإن لم يكن عملاً سياسياً مترناً ، إلا أنه لم يكن بإمكان فيصل والوطنيين العاملين معه أن يسلخوا غير هذا السبيل لأن غاية الثورة العربية إنما كانت استقلال البلاد العربية التابعة للدولة العثمانية في آسيا ، ولم تكن استقلال سورية الداخلية فحسب . وقد استمر جهاد العرب تحت راية الحسين أكثر من سنتين ، وغاية الجميع استقلال البلاد العربية . وكان جيش فيصل الذي حارب في الأراضي السورية يضم الحجازي

والعراقي والفلسطيني والسوري واللبناني مسلمين ومسيحيين ، ولم يكن
السوريون أكثرية فيه ، وكانت غاية الجميع العمل لاستقلال بلادهم تحت
راية العروبة .

وبعد أن حررت جيوش فيصل سورية وطاردت الجيش العثماني المنهزم
حتى الحدود السورية الشمالية ، تشكلت في منطقة احتلال هذا الجيش حكومة
غايتها تحقيق استقلال العرب . وبعد أن قضت الظروف بإعلان استقلال
العرب ، وبإلحاحى استقلال سورية الداخلية عملياً ، لم يكن باستطاعة فيصل
ومن حوله اهمال استقلال بقية الاقطار العربية ، إذ كان في عداد هيئة
ادارة « الفتاة » أعضاء بارزون عراقيون ، مثل ياسين الهاشمي ، وفلسطينيون
كعزة دروزة ورفيق التميمي ، كما أن ممثلي الحجاز في مؤتمر الصلح
رستم حيدر وعوني عبد الهادي سكرتير الملك الخاص لم يكونا سوريين .
ومن بين أخصاء الملك نعد نوري السعيد وجعفر العسكري وعلي جودة
وجميل المدغمي ومولود مخلص الذين انتصر جيش فيصل على أكتافهم ،
وكانوا عراقيين يشدون أزره في سورية باخلاص من غير أن ينسوا
وطنهم الاول ، وكان سكرتير الجماعة العراقية الملكي توفيق السويدي نجل
يوسف السويدي صديق العائلة الهاشمية ومن أعضاء « الفتاة » القدامى
هو الذي أعلن القرار باستقلال العراق من على شرفة البلدية . فمن
البدهي اذن أن يراعى شعور هؤلاء وعدم اهمال قضية بلادهم ، وهي
جزء من الوطن العربي ، سيما والعرب معروفون بالوفاء والتضحية في
سبيل هذا الوفاء . كما ان ذلك كان من جملة مبادئ جمعية « الفتاة »
الاساسية التي تسعى إليها بكل قواها .

وبعد اعلان استقلال العراق وظهور نوايا الخلفاء السيئة نحو العرب
جلية واضحة ، قرر رجال العراق في سورية إضرام نار الثورة في
العراق ، فأوعزوا الى كل ضابط عراقي مقدم بالاستقالة من الجيش
والسفر الى دير الزور على مقربة من الحدود العراقية ليؤلفوا جيشاً من
العصابات ويستعدوا للثورة .

وكان رمضان السلاش قد أخرج الانكليز منها في ١١ كانون الاول
١٩١٩ وعين فيصل مولود مخلص حاكماً لها . وقد سافر الى الدير
بعد اعلان الاستقلال بقليل جميل المدفعي وعلي جودة وتحسين علي
الرؤس الحركة . ولم يكد ينهي شهر آذار حتى بدأت العصابات تشن
هجماتها وتبلى بلاءها في العراق . وكان من بادرة أعمالها تخريب خط
سكة الحديد بين سامراء وشرقات ، كما ان قوى جميل المدفعي هاجمت
تلعفر وقتلت فيها الميجر باولو والسكاين استوارت ونسفت دار الحكومة
بالديناميت بمن فيها ، فسيرت اليه القيادة البريطانية من الموصل قوى كبيرة
فانسحب الى الدير وكان ذلك ايذاناً باندلاع ثورة العراق .

وبعد استقالة وزارة الركابي التي لم تعيش طويلاً كلف الملك فيصل
بالاتفاق مع الوطنيين باستثناء الشيخ كامل القصاب الذي استمر في
تأييد الركابي رغم انه لم يكن من أنصار الدفاع ، والشيخ من مترجمي
القاتلين به ويود تشكيل حكومة تندفع بدون ترو في تحقيق الاستقلال
والوحدة العربية ، كلف رئيس المؤتمر السوري هاشم الاناسي بتشكيل وزارة
دفاع وطني كرد على برقية الحكومة الفرنسية التي تبلغ فيها فيصل
قرار مؤتمر سان ريمو بمنح فرنسا الانتداب على سورية ، وطلب من

هاشم الاتاسي تشكيل حكومة قوية تضطلع بواجب الدفاع والمحافظة على
الامن الداخلي والطمأنينة ، فقدم الاتاسي أسماء أعضاء وزارته التي
كان متفقاً عليها في اليوم نفسه ، فتألفت الوزارة في ٣ أيار ١٩٢٠ من :

هاشم الاتاسي	لرئاسة
ساطع الحصري	للمعارف
رضا الصلح	لرئاسة مجلس الشورى
الدكتور عبد الرحمن الشهبندر	للخارجية (محل سعيد الحسيني المريض)
يوسف العظمة	للحربية
فارس الخوري	للعالية
جلال الدين	للعديلة
يوسف الحكيم	للتجارة والزراعة
علاء الدين الدروبي	للاخيلية

وقدمت الوزارة بيانها المؤتمر السوري بعد تشكيلها بخمسة أيام قائلة :
ان أساس خطتنا هو :

١ - تأييد الاستقلال التام الناجز المتضمن في جملة ما يتضمنه حق
التمثيل الخارجي .

٢ - المطالبة بوحدة سورية بحدودها الطبيعية ، مع رد طلب الصبوينين
بجعل القسم الجنوبي منها وهو فلسطين وطناً قومياً لليهود .

٣ - رفض كل مداخلة أجنبية تمس سلطاننا القومي .

ثم قالت : « بلغكم أن المؤتمر في سان ريمو اتخذ بعض قرارات
ابتدائية تتعلق بنا . وهذه القرارات قد تضمنت الاعتراف مبدئياً باعتبار

سورية دولة مستقلة ، فنحن نسجل هذا الاعتراف مع السرور ونسخره أساساً للحقوق الأخرى التي سنطالب بها .

وخطب بعض النواب مشيراً الى خطورة الموقف ، كما ناقش آخرون البيان ، واشترط غيرهم أن تعلن الوزارة كونها دفاعية لمنحها الثقة فقال الشهبندر « ان الوزارة دفاعية قامت لأجل الدفاع وستدافع الى النهاية » فنالت ثقة المؤتمر الإجماعية .

وعقب اختيار الشهبندر لوزارة الخارجية عين جميل مردم ، وهو من أعضاء « الفتاة » القدماء ، مستشاراً للوزارة لتأمين انسجام العمل فيها . وكان من الطبيعي أن تهتم الوزارة قبل كل شيء بأمر الدفاع ، فوسع قانون التجنيد ، وجعلت مدة الخدمة الفعلية الإلزامية ستة أشهر في قانون التجنيد الذي سن حينما كان فيصل في أوروبا في سفرته الثانية ، وطرح على الاكثاب قرض وطني بنصف مليون دينار سوري (وكانت قيمته ليرة ذهبية فرنسية) وهذا القرض كان بضمان أملاك الدولة وبفائدة قدرها ٦ بالمائة ليصرف في وجوه الدفاع الوطني .

ولما كانت غاية الحكومة السورية الأولى هي استقلال سورية ، فقد دفع ذلك بعض الضباط السوريين الى الاستقالة من الجيش والانضمام الى الثوار المناضلين في جبل عامل وجبال العلويين والجزيرة العليا وأنطاكية ، الأمر الذي فرّق القوي العسكرية الفرنسية وسهّل على الأتراك الانتصار على الفرنسيين في جنوب كيليكيا .

ولما كانت ثورة الأتراك شديدة ومنظمة ومسلحة بأسلحة حديثة فإنها تمكنت من محاصرة مدينتي كلس وعنتاب اللتين جمع فيهما الفرنسيون

الكثيرين من الأرمن الذين شقتوا في الحرب ، فأهاج ذلك القيادة الفرنسية ، وطلبت من فيصل تسهيل نقل الجنود والعتاد الفرنسية عن طريق سكة حديد حلب ، فرأت الوزارة أن تستفيد من الفرصة السانحة فطلبت إتمام ذلك دفع حصة سورية من إيرادات الجمارك وفقاً لاتفاق حيفا وهي ١٥٠ ألف جنيه مصري عن حيفا ومثلها عن بيروت وطرابلس تدفع شهرياً ، والاعتراف باستقلال سورية استقلالاً تاماً ، فرفض غورو ذلك وأجاب بأنه لا يمكن من أن يوافق على شيء ينافي ما جاء في بيان الحكومة الفرنسية الأخير سيما وإن الكولونيل تولا كان قد فهم من محادثاته مع رئيس الوزارة السورية السابق رضا الركابي بأن الرئيس يميل إلى مساعدة فرنسا في شمال سورية ، وأن الملك لم يعترض على ذلك . وهذا ما نشره الركابي بخط يده بهذا الخصوص :

« ولم تمض على حفلة البيعة أسابيع حتى بدأ الترك بالمعدوان على حدود سورية فقرر الجنرال غورو أن يوجه إلى الشمال قوة من الجيش الافرنسي المرابط في الساحل بطريق الخط الحديدي (بيروت ، رياق ، حلب ، قطمة) وأوعز إلى تمثيله في دمشق بأن يطلبوا من الحكومة السورية السماح للجيش الافرنسي بالمرور في سورية ، فاستدعاني جلالتهم ، إذ كنت رئيساً للوزارة ، وسألني رأيي فعرضت عليه الموافقة ، على أن نضم نحن أيضاً ، قسماً من جيشنا إلى القوة الافرنسية ، لأن الدفاع عن سورية يقع في الدرجة الأولى ، على عاتق السوريين ، ولولا أن عدوان الترك وقع في وقت كانت فيه قوة السوريين غير كافية ، لما سمحنا الافرنسيين بالدفاع عن بلادنا ، ولكن فرنسا أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن بلادنا كلفة لنا أو منتدبة ، فوجب علينا والحالة هذه ،

أن نشكر لها صنيعها ونشاركها في الدفاع ، بضم قسم من جيشنا الى جيشها ، وربما أدى هذا الأمر في المستقبل الى حفظ صلات المودة وروابط الصداقة بيننا ، فأظهر سروره لرأي وارتياحه لفكري ، ولكنه أراد في الوقت نفسه أن يستشير بعض رجال السياسة ، فلما استشارهم أشاروا عليه بعكس ما رأيت ، وأصروا عليه وتمصبوا لرأيهم ، فاعتمد على أمانتهم وصدقهم ورفض ما طلبه الافرنسيون ، فاضطر الجنرال الى نقل الجيش بحراً ، الى شمالي اسكندرونة ، ونقله من هناك برأ الى منطقة الحرب فاتقضى الوقت بدون فائدة ، فاضطرت فرنسا الى حل الخلاف بينها وبين تركيا سلباً على أساس التفاهم ، فأرسلت معتمدها فرانكلان بويون الى أنقرة ليتفق مع الأتراك على حسن الجوار ، فأملوا إرادتهم على فرنسا ، فخسرت سورية بعض بلدان المنطقة الشمالية وتبدل شكل الإدارة في لواء اسكندرون .

ان ثقة جلالاته برأي الذين استشارهم وإيمانه بصدقهم واعتماده على حسن نيتهم ، كل ذلك أدى الى توتر العلاقات السياسية بينه وبين الافرنسيين . فازدادت العقبات في سبيل تحقيق أمانتنا ووصلنا الى الوضع الحاضر الذي نحن فيه .

وقد أدى هذا الرفض الى زيادة التوتر وزيادة الجفاء وقرب موعد الساعة الحاسمة ، وكان ذريعة جديدة أضافها غورو الى الذرائع الاخرى التي توسل بها لضرب ضربته الكبرى .

إلا أن موقف الوزارة لم يكن مطلقاً . واقعد مافر وزير الحربية الى الشمال واتصل بالقواد الترك تأميناً لتعاون سورية مع الأتراك في

مقاومة الاحتلال الفرنسي ، فوعد اولو الأمر بالجواب بعد استطلاع رأي حكومة مصطفى كمال رئيس مجلس الامة الكبير . وكان هذا من الاسباب التي دعت الفرنسيين لعقد الهدنة مع الاتراك في ٣٠ آذار ١٩٢٠ إذ انهم وقد تعذر عليهم امكان احتلال سورية وكيليكية ، رجحوا التخلي عن الاخيرة رغم ثروتها العظيمة التي كانت محط أنظارهم لأنهم يزعمون بأن لهم في لبنان ذكريات قديمة ويرون في الكثير من الموارد مؤازرين يعتمد عليهم ولا يصح اهمالهم واهمال تراث فرنسا الاديبي في لبنان .

ناهيك عن ان التخلي عن سورية يجعل وجودهم في لبنان متعذراً سيما وقد ملكوا حرية العمل في سورية الداخلية . وكانوا الى ذلك يرغبون في مقاومة السياسة البريطانية في الشرق الأدنى وتركيا بعد أن احتلت بريطانيا المضائق ودفعت بجيوش صنيعتها اليونان الى احتلال ازميز . وعقب هذه الهدنة سحبت الجيوش الفرنسية من تركيا وترك الكثير من العتاد كمعونة لها وحشدت فرنسا هذه الجيوش على حدود سوريا الداخلية انتظاراً لما يبتته . وقد بلغ عدد الجيش الفرنسي لدى بدء الحركات العسكرية لاحتلال سورية ، ما يقرب من المئة الف جندي .

وعاد من أوروبا في هذه البرهة ، أي قبل أواخر شهر أيار ، نوري السعيد ، وهو مقتنع بأن أكبر خدمة يمكن أن تسدى لسورية هي سفر الملك لأوروبا تثبيتاً للوضع القائم في سوريا وعدم فسح المجال ليصبح الانتداب استعماراً مقنعاً ، ولكن الهياج في البلاد كان قد بلغ

أشده والاصوات تشق الحناجر دفعا حتى الموت . لذلك رأت الحكومة ارسال وفد وزاري الى أوروبا للدفاع عن حقوق البلاد عوضاً عن تلبية دعوة بريطانيا المتكررة لفصل للسفر الى أوروبا . وصادف ذلك حلول شهر الصوم المبارك ، فأقام بهذه المناسبة جلالة الملك مأدبة افطار كبرى في ٢٥ أيار دعا إليها رجالات البلاد ومفكرها من مختلف النزعات وخطب فيها آخر خطاب له فقال :

« أريد بهذه المناسبة ، أن أقول بعض كلمات أعلم أنها تهيم الأمة كثيراً ، إن هذه الكلمات منتظرة من الحكومة لا مني ، لأنني غير مسؤول ، ولكنني أستسمح رئيس الوزارة فأقول :

إن الأمة اليوم في شوق عظيم الى معرفة حالها ومصيرها ، لقد أبلغونا القرار الذي وضع في سان ريمو ، بشأن مستقبل البلاد بصورة مجملة ، فيئس البعض من جراء ذلك وظن أنه قضي على مستقبلنا وأن كل سعي نبذله لا يأتي بفائدة وقال القسم الأعظم من سكان البلاد : لقد قضي علينا ونحن لا نريد أن نستعبد فلنمت شرفاء .

هاتان هما الفكرتان السائدتان اليوم وكتاتهما غير مطابقين للحقيقة ، لأنه لم يقض علينا بالفناء لنئأس ، ولا قضي علينا بالاستعمار لكي نقول يجب أن نموت شرفاء .

بماذا قضي علينا ؟ من المعلوم أنه اتخذ قرار يعترف باستقلال سورية على ما يقال وجعلها تحت الانتداب ، ولكن ما هو هذا الانتداب ، وما هي كلفته وهل هو يقضي علينا أم لا ؟ فهذا ما لا يزال مجهولاً .
لقد اتخذت الأمة قراراً من قبل أعلنت فيه استقلالها وقالت انه

يجب على الائتم أن تعترف به ، فكما اننا اتخذنا قراراً يوافق مصلحتنا
فقد اتخذوا هم أيضاً قراراً لأنفسهم يلائم مصلحتهم ، وكل من الفريقين
يدعي الحق لنفسه ، ولكن ما بينهما من الود لا يجعل أحدهما يعتدي على
حقوق الآخر ، وإن كان كل منهما ينظر الى مصلحته قبل مصلحة سواه .

الامة السورية أعلنت استقلالها وفقاً لمصالحها ، أما الدول فمع اعترافها
بهذا الاستقلال فقد اشترطت له شروطاً تلائم مصالحها أيضاً ، وعندما
أعلننا استقلالنا قلنا باحترام مصالح الجميع لنكون في تآلف مع الشعوب
التي حاربنا معها ، ثم ان الدول وضعت شرطها وقالت لنا تعالوا نؤلف
بين مصالحنا ومصلحكم .

فيظهر من هذا انه لا خير علينا حتى الآن ، وان أبواب المذاكرات
ما زالت مفتوحة لكلا الفريقين ، ويجب أن يعلم انه ينظر إلينا اليوم
كأمة مستقلة .

ان كلمة الانتداب لا حد لها ولا معنى صريح وقد رفضتها الامة
رفضاً باتاً ، ولا يقبلها أحد يريد الحياة ، فهي كلمة مطاطة تفسر طوراً
بأشد أنواع الاستعمار وتارة بأخف ضروب المعاونة الودية التي لا تمس
الاستقلال ومع ذلك فقبولها عار على كل أمة تريد الحياة .

أرجو من الامة أن تعرف أن رئيسها أو حاكمها أو ملكها الذي
انتخبته هو على هذا المبدأ لا يرضى أن يقال ان المملكة التي هو رئيسها
تحت قيود مملكة أخرى ، فالامة التي عاشت قروناً عديدة ومدنت العالم
لا يمكن أن تقيد بهذه القيود ، وأريد ألا يكون رفض الامة للانتداب
اعتماداً على القول فقط .

تذكرون جميعكم اني كنت أقول دائماً ولا سيما بعد رجوعي من
اوروبا أن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى . أنتم تطلبون مني الاستقلال وأنا
أطلب منكم الوسائل . تذكرون اننا لما كنا تحت سلطة الاحتلال وكانت
الحكومة بدون قوة اجرائية والامة بحاجة الى القوة أي الى الجند
أردت أن أظهر الامة ضرورة التجنيد فتطوعت جندياً بسيطاً ولم يكن
في الامكان حينئذ وضع قانون للتجنيد بسبب الاحتلال ، فلما جلا الجيش
البريطاني عن البلاد رأت الحكومة ضرورة التجنيد لحفظ النظام أولاً
وللمدافعة عن البلاد ثانياً فوضعت قانون التجنيد ورأينا الفرق بين الجند
عند كان متطوعاً وبقي أكثر من سنة دون أن تتمكن من تنظيم قطعة
للعرض فضلاً عن الدفاع ، على أنه لم يمر شهران على وضع القانون حتى
رأينا أن لنا جيشاً ولو قليلاً ، ونظاماً ولو في حالة الطفولة . ولكن
الحكومة ترى أن هذا الجيش لا يكفي لحاجة البلاد داخلياً وخارجاً
ولا سيما أن هذا القانون استثنى قسماً عظيماً من الخدمة .

ان الائم تنظر اليها من وجهتين : الاولى نظرة صديق يريد منا
أن نظهر بمظهر منظم عظيم ، ونحشى وقوع حادث مكدر ، يعكر علينا
ويفسح مجالاً لظهارنا بمظهر الهمجية ، والثانية نظرة فريق ربما يطمع فينا ،
فالحكومة مجبرة على إيجاد القوة ، التي تفرح صديقها ، وتدعم كيانها ،
وتحافظ على نظامها لاسيما وان المناطق السورية المحتلة هي في حالة فوضى
أخشى أن تسري اليها ، وتسيء سمعتنا في الخارج ، فيجب أن تسهر
الحكومة على حفظ النظام في الداخل وعلى إيجاد قوة تجعلنا محترمين
من أصدقائنا وأعدائنا وان كنت لا أعرف أن لنا عدواً .

ان الامة تريد الاستقلال وترى أن كل وزارة وحكومة لا تعلن
انها دفاعية لا تصلح لها ، فالامة التي تطلب هذا يجب أن تقدم الوسائل
اللازمة له من المال والرجال .

يجب ألا يتسرب اليأس الى نفس أحدنا ، وعلى المفكرين والعقلاء
وأرباب الصحف أن يحولوا دون ذلك ، فنحن سنعبش ولن يمس استقلالنا
بسوء ، ولا شك ان هذه الامة التي بذلت عشرات الالوف من الضحايا
في غاليسيا والقفقاس ويران والروماني خدمة لمصالح غيرها لا تتأخر
عن بذل اضعاف ذلك دفاعاً عن كيانها وحريتها ولو كانت خارجه من
حرب طويلة مهلكة .

ولما كان من غير المستطاع ايجاد جيش بلا مال فقد أصدرت الحكومة
قرضاً مضموناً ، يمكنها من ايجاد قوة تضمن حياتها المقبلة ، فأرجو
من الامة أن تقبل عليه ، وتثبت للعالم المتعدين أنها لا تحتاج من الخارج
حتى ولا المال ، فلديها كل شيء عند الزوم .

لقد اعتادت الحكومات أن تصدر قروضاً عند وقوع الأزمات ،
وعندئذ يكون اقبال الاثم على القروض مقياساً لحياتها ، فأريد أن
يصادف هذا القرض اقبالا عظيماً ولا سيما انه مضمون برهائن تعود
بفائدة عظيمة على حاملي اسناده ، فأستنهض الهمم الى الاقبال على القرض
والجندية ولا شك في أنه لا يتأخر عن ذلك إلا من كان عدواً للوطن .

ان جميع الحاضرين هنا هم أعين هذه الامة ، التي ترى صالحها ،
واتجاهها ، فليهم أن يسعوا لارشادها الى هاتين الغايتين الشريفتين :
المال والجندية ، فيكونوا بذلك خير مساعد لحكومتهم وأمتهم .

هذا ما أرجوه من الامة وأوصيها بالانصراف الى الجد والرزانة في جميع حركاتها وسكناتها ، أما الذين يقولون بالاستماتة في سبيل الحياة الحرة والموت الشريف فاني اندس في فكرتهم وأعد نفسي فرداً من أفرادهم واذا دنت الهلكة أكن أول من يموت ولكني اطعنهم على انه لم يحكم علينا بالاعدام ، فهذا الحكم لم يصدر ولن يصدر ، وعلينا أن نستعد ونتروى وألا تكون حركاتنا تابعة للخيالات بل للماديات والمحسوسات .

ان مسألة سوريا ، من أعظم مشاكل العالم التي يصعب حلها فلا يحكم فيها نهائياً بمجرد قول جريدة أو خطبة شخص مسؤول أو غير مسؤول ، فالحكومة التي رئيسها امامي اسأله انا والامة عن نتيجة الحالة وهي تنتظر اليوم نتائج الامور .

اريد من الامة ان تثبت الى النهاية وان تنتظر النتيجة برابطة جاش ، وتعتمد حكومتها بالجنود والمال ، وتبذل جهدها والتوفيق منه تعالى وارجو ان نكون في العام القادم حول هذه المائدة وقد نسينا هذه الايام العصيبة .

ومن أجمل المصادفات إذ ذاك ان أحرار جبل لبنان ومجلس ادارته تألموا من ازدراء حاكم الجبل القومندان « لابرو » وغيره من الموظفين الفرنسيين لكل ما هو وطني ، فقرروا الاتصال بالملك فيصل ، وأخذ موافقته على أن يكون الجبل مستقلاً ، وأن يكون بينه وبين سورية اتحاد اقتصادي ، وان يسافر اعضاء مجلس ادارته المنتخبين من الأهليين لأوروبا للمطالبة بذلك على ان تسهل حكومة دمشق سفرهم وتقوم بنفقاتهم ، فتسقط بذلك اكبر حجة لفرنسا في تبريرها احتلال جبل لبنان والساحل

السوري . وكانت لمساعي كل من الأُميرالاي سعيد البستاني قائد درك
جبل لبنان الذي استقال من منصبه لعدم تمكنه من تحمل غطرسة
الفرنسيين ، ورياض الصلح وعارف النعماني وأمين ارسلان تأثير كبير
في الوصول إلى هذا القرار الوطني الرائع . وكان في مقدمة الذين وقعوه
سعد الله شقيق البطرك وابن أخيه الياس الحويك ، والموقعون يمثلون
لبنان وينطقون بلسان ابنائه . وهذا هو نص القرار المذكور :

« ان مجلس ادارة جبل لبنان النيابي المؤلف نظاماً من ١٣ نائباً
وفي الوقت الحاضر من ١٢ نائباً عاملاً بسبب خلوّ مركز واحد نائب
كسروان المستقيل ، قد وضع نهار السبت الموافق ١٠ تموز سنة ١٩٢٠
بأكثرية الكبرى القرار الآتي :

« انه لما كان اللبنانيون ، منذ اعلنت الدول العظمى ، حق انشاء
الحكومة الوطنية ، لشعوب هذه البلاد قد طالبوا وما زالوا يطلبون ،
تأييد حقوقهم بتأسيس حكومة وطنية مستقلة .

« ولما كان استقلال جبل لبنان ، ثابتاً تاريخياً ، ومعروفاً منذ أجيال
طويلة وموقعه وطبيعة أهليته الموائمة للحرية والاستقلال منذ القدم مما
يستلزم استقلاله وحياده السياسي أيضاً لوقيته من المظالم والطوارئ ،
وكان مع ذلك من أهم مصالحه وراحته شعور الوفاق وصفاء العلاقات مع
مجاوريه ، وقد دل على ذلك ما أحدثه التقاطع من ثوران الجلاء لارتكاب
الحوادث المؤلمة المقلقة المتسلسلة من السنة الماضية إلى هذه الآونة .

« فبناء على ما تقدم قد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام توصلاً لوفاق
يضمن حقوق البلدين المتجاورين سورية ولبنان ومصالحهما ودوام حسن

العلاقات بينها في المستقبل ، وبعد البحث في هذا الشأن ، وجد انه من الممكن الوصول الى ذلك بمقتضى البنود الآتية :

- ١ — استقلال لبنان التام المطلق .
- ٢ — حياده السياسي بحيث لا يحارب ولا يحارب ويكون بمعزل عن كل تدخل حربي .
- ٣ — اعادة المسلوخ منه سابقاً بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سورية .
- ٤ — المسائل الاقتصادية بحري درسها وتقرر بواسطة لجنة مؤلفة من الطرفين وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلي لبنان وسورية .
- ٥ — يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هذه البنود الأربعة وضمانة أحكامها .

« ولاجل التمكن من العمل بحرية وبمعزل عن ضغط وتأثير خارجي ولاجل السعي الناجح لدى المراجع الايجابية ، لتقرير أحكام البنود الأربعة المتقدم بيانها والتي هي مطالب الأمة اللبنانية ، ومصلحة لبنان الحقيقية المنزهة عن المآرب والأغراض الخصوصية ، وبالنظر لنيابة هذا المجلس عن الشعب اللبناني القانوني والمؤيدة مؤخراً أيضاً بأصوات أكثرية الشعب الكبرى قد قررت أكثرية المجلس موقعة هذه المضبطة الانتقال والتوجه بالذات للاحقة ومتابعة تقرير مضمون البنود الآنف بيانها ، في أعمال القضية والمراجع الايجابية وابلاغ هذا القرار بكامله الى المقامات الرسمية والسعي بالطرق الممكنة » .

سعد الله الحويك (نائب الرئيس) خليل عقل ، سليمان كنعان ، محمود جنبلاط ، فؤاد عبد الملك ، محمد الحاج محسن ، الياس الشويري ،

وتخلف العضو الثامن وهو الياس بريدي مع أنه متضامن مع الأعضاء الموقمين بسبب مرضه وأرسل نسيبه ميشيل قاصوف فاشترك في اجتماعاتهم ، ووعدهم بالحق بهم .

ومن سوء الحظ أن جواسيس الافرنسيين علموا بذلك قبل ميعاد سفر هؤلاء الأعضاء منفردين الى دمشق في ١٠ تموز . فألقت السلطة الفرنسية القبض عليهم وحكت عليهم بالنفي مدة طويلة ، ونفي معهم الأمير أمين أرسلان الى أرواد ثم لجزيرة كورسيكا . ثم أصدر الجنرال غورو قراراً بإلغاء مجلس الإدارة .

وبعد أن أصبح الموقف حرجاً في سورية اضطر الملك لإظهار رغبته بالسفر لأوروبا لمواصلة مساعيه السياسية لتأمين مطالب البلاد رغم مخالفة حكومته ومستشاريه الخصوصيين ، ونصيحة أعضاء المؤتمر السوري ، تلبية للدعوات المتكررة التي كان يتلقاها من المسؤولين الانكليز . فأرسل معتمده نوري السعيد يصحبه الكولونيل تولا لبحث مع الجنرال غورو ما ينبغي اتخاذه عدة للسفر ، فلم يقبل غورو طلب الملك قبل البت بما يشترطه الموافقة على سفره وأبلغ مطالبه شفهاً لنوري السعيد . فعاد نوري السعيد لدمشق في ٥ تموز ١٩٢٠ وأبلغ الملك وحكومته مطالب الجنرال غورو التي اشترطها الموافقة على سفر الملك وهي :

- ١ — الاعتراف بالانتداب الافرنسي رسمياً .
- ٢ — قبول النقد السوري والسماح بالتعامل به في المنطقة الشرقية (سورية الداخلية) .
- ٣ — اباحة نقل الجنود الافرنسيين بسكة حديد بيروت رفاق حلب .
- ٤ — إلغاء التجنيد الاجباري في المنطقة الشرقية .

٥ — معاقبة المجرمين الذين استرسلوا في معاداة فرنسا .

أما اذا سافر الملك عن طريق حيفا قبل الموافقة على هذه المطالب فان الحكومة الافرنسية لن تعرف عليه ، وزاد غورو بأنه أعدّ انذاراً رسمياً بمطالبه هذه سيوجهه عما قريب .

ويظهر أن غورو أتم اعداد كل شيء لتنفيذ خطته التي كان يعمل لها منذ تعيينه مفوضاً سامياً ، لاحتلال سورية ، اذ ان رئيس وزراء فرنسا ميللران كان قد ألقى في ١٨ شباط ١٩٢٠ خطاباً أمام لجنة الشؤون الخارجية صرح فيه بأن الضرورة تقضي بارسال ٣٠ ألف جندي أخرى لسورية لاحتلال أراضي الموصل وحلب ودمشق .

فاضطرب الملك ازاء هذه الطوارئ للعدول عن السفر ، وأرسل حالاً للمرة الثانية نوري السعيد لاقناع الجنرال غورو بالعدول عن ارسال الانذار والموافقة على تأليف لجنة دولية مختلطة لحسم الخلافات الموجودة فلم يتمكن السعيد من تغيير شيء في تطبيق الخطة الموضوعة ، وكان الافرنسيون قد أخذوا ثورة جبل عامل وغيرها بارسال قوى كبيرة لتلك المناطق كي يتفرغوا لمهاجمة سورية .

وقبل ارسال الانذار بيومين احتلت مفرزة افرنسية محطة سكة حديد رياق الكبرى في البقاع ، كما تقدمت قوة أخرى من جرابلس شمالي حلب وعسكرت على نهر الساجور .

وبما ان الجنرال غورو لا يعترف بحكومة دمشق ولم يكن الملك يرغب في التهرب من المسؤولية في الأوقات الحرجة بحجة كونه عدم مسؤول قانوناً ، فقد أسرع وأبرق للجنرال غورو محتجاً بشدة على احتلال

رياق خلافاً للاتفاقات القائمة ، وعلى تقدم القوى الفرنسية من جرابلس
لضفة نهر الساجور ، وطلب ايضاحاً عن هذه الاعمال غير الودية التي
يجعل سببها ، وأعقبها بهذه البرقية :

« نقل الي اللواء نوري السعيد ما دار بينكم وبينه ، من حديث بشأن
الخطاب (الانذار) الذي ستوجهونه الي بواسطة الكولونيل كوس ولم
يصل حتى الآن .

ان احتلال سكة حديد حلب — رياق الواقعة ضمن المنطقة الشرقية
مخالف على خط مستقيم لمذكرة ١٥ ايلول سنة ١٩١٩ الخاصة بجلاء
الجيش البريطاني عن البقاع والاتفاقات التي عقدت بعد ذلك بين المسيو
كلنصو وبينني مدة اقامتي في باريس » .

فاذا كنتم لا تنقيدون بما جاء في هذه المذكرة ، وفي هذه
الاتفاقيات فأنا مستعد للعمل في الدائرة التي ترسمها لنا » .

ورغبة في اجتناب كل سوء تفاهم في هذا الشأن ، أقبل أن أمنحكم
الضمانات اللازمة لسلامة ثقلياتكم ، على سكة حديد رياق — حلب » .

وأرسل سكرتيره الخاص ، في اليوم نفسه بالنيابة عن فيصل ، مذكرة
الي قنصل إيطاليا العام بصفته عميد هيئة القناصل لابلانغا الي زملائه
وايصالها الي دولهم قال فيها : « لقد احتلت رياق قوة افرنسية بقيادة
الكبتن هاك حاكم زحلة العسكري ، ووصلت قوة أخرى الي نهر الساجور .

« وقد حدثت هذه الحوادث فجأة ومن دون موافقتنا بل من دون
اطلاعنا عليها قبل وقوعها ، وهي لا تتفق مطلقاً مع التأكيدات التي
نلناها ، محافظة على الحالة الحاضرة .

« ورغبة منا في انقاذ السلام وفي المحافظة على روابط الصداقة والود حتى النهاية لم نتخذ حتى الساعة أي تدبير في مقابل هذه الأعمال العدائية . »
« ويظهر لي بجملاء ووضوح أن الثقة التي وضعناها في حلفائنا الافرنسيين ستنتهي باحتلال بلادنا كلها ، وبنت صلات الصداقة والود بيننا وبينهم . »

« وفي الختام اني آسف لابلغكم بأننا نعتبر الحركة الجديدة للجيش الافرنسي ، في داخل منطقتنا عملاً عدائياً تقع تبعته كاملة على عاتق مسببه . »
كما أرسل الملك لدول الحلفاء برقية مطولة بالمعنى ذاته .

وتلقى الملك في ١٢ منه الرد الآتي من معتمد فرنسا بدمشق :
« طلبتم بتاريخ ١٠ تموز معلومات عن ماهية الحركات العسكرية التي اقتضت وصول قطارات مشحونة بالجنود الافرنسية الى المسامية (شمالي حلب وتقع على بعد ٦٠ كم منها) فلي الشرف ان ابلغكم كما بسطت ذلك لمرافقتكم من قبل ، ان الجنرال غورو أعلمني ان ما جرى كان عبارة عن ابدال جنود المخافر الامامية أمام حرابلس بجنود غيرها . ثم قال المندوب بأن الجنرال غورو كلفه ابلاغ سموه الملكي بأنه بسبب احتلال قوة من الجنود السورية لمجدل عنجر (هو مركز حربي مهم يطل على سهل البقاع الجنوبي ويسيطر عليه ويحرس مدخل وادي الحرير المؤدي إلى دمشق) اضطر لاحتلال المعلقة ورياق الواقعتين في البقاع أيضاً . فأجاب الملك غورو بواسطة معتمده بالجواب الآتي :

« لقد اتخذت لمجدل عنجر الواقعة بين مدخل وادي الحرير ، وبين صحراء الديماس ودمشق من جهة وبين البقاع من جهة أخرى وبمحكم

وضعها الجغرافي ، مركزاً من مراكز اجتماع الجيوش المحافظة على الأمن في هذه المقاطعة كلها منذ احتلال الحلفاء وهي في الوقت نفسه المعبر الطبيعي للقبائل في غدوها ورواحها بين الشرق والغرب الأمر الذي يبعث السلطات السورية على التمسك بها والمحافظة عليها .

ولقد عززت القوات المراقبة فيها ، على اثر الاخبار المزعجة الواردة في الايام الاخيرة عن حشد الجيوش على حدود منطقة الاحتلال الافرنسي ، ولذلك لا يمكن اعتبار ما جرى سوى تدبير دفاعي رأت الحكومة السورية ان الواجب يقضي عليها باتخاذها من باب الاحتياط فقط .

فاجتناباً لكل سوء تفاهم ولما كنتم تسوغون احتلال المعلقة ورياق بوصول القوة التي وصلت الى مجدل عنجر أبلغكم اني مستعد لتخفيض قواتنا واعادتها الى ما كانت عليه من قبل اذا كنتم تدلون على شعوركم الودي بالجلاء عن رياق والمعلقة المحتلة بجيوشكم .

وأمر الملك في ١٤ منه بارسال البرقية الآتية الى رسم حيدر مندوب العرب في مؤتمر الصلح بواسطة السفارة الإيطالية في باريس :

١ — احتل الجيش الافرنسي رياق من دون اخبار ولا ابلاغ سابق ، ولما كانت النية متجهة الى ابقاء الحرب فلم تقاوم أقل مقاومة وبالطبع فقد يضطر الجيش السوري في المستقبل الى مقاومة كل حركة عسكرية جديدة لانه من الممكن استمرار هذه الحالة .

٢ — صرح الجنرال غورو بانه وضع شروطاً يريد أن يملئها علينا وقد بدأ بتنفيذها من دون أن يبلغنا ايها رسمياً ، ومع اننا طلبناها فلم يرسلها لنا رسمياً حتى الآن .

٣ - تقابل ميولنا ونياتنا السليمة ، بأعمال عسكرية من الجهة الاخرى .

٤ - يعارض الجنرال غورو في سفر الملك الى اوروبا .

٥ - لما كان الجنرال غورو في وقوفه هذا الموقف العدائي يخالف

قرارات مؤتمر السلام وسان ريمو فيجب أن يعد مسؤولاً عن كل ما يقع في سوريا .

نص الانذار :

ووصل ظهر يوم ١٤ تموز ١٩٢٠ الكولونيل نيجر ، فزار والكولونيل كوس معتمد فرنسا ، القصر الملكي ، وسلموا الملك الانذار الافرنسي وهذا نصه :

أتشرف باسم الحكومة الفرنسية أن أبسط لسموكم للمرة الاخيرة ، الموقف الذي وضعتنا فيه حكومة دمشق منذ ابتداء السنة الحالية .

سادت السكينة في سوريا ، إبان الاحتلال الانكليزي ، ولم يتعكر صفو الأمن ويبدأ الاضطراب فيها إلا لما حلت جنودنا محل الجنود البريطانية وقد أخذت هذه الاضطرابات تزداد منذ ذلك الحين .

على ان هذه الاضطرابات أثرت في رقي سوريا ونظامها السياسي والاداري والاقتصادي أكثر من تأثيرها في سلامة جنودنا ، وفي الاحتلال الافرنسي للمنطقة الغربية .

حكومتنا دمشق تتحمل كل التبعة ازاء سكان سوريا الذين عهد مؤتمر الصلح الى فرنسا بأن تمتعهم بحسنات ادارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثروة .

ان أمانى الولاء والتعاون التي أظهرتها فرنسا لسموكم بتأييدها حقوق السكان الذين يتكلمون اللغة العربية ويقطنون في القطر السوري بحكم أنفسهم بأنفسهم كأمة مستقلة ، قد أجب عليها سموكم معترفا بأن لسكان سورية مصلحة كبيرة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة لتحقيق وحدتهم وتنظيم شؤون الامة نظراً للتضعف الذي أصاب البلاد من الارهاق التركي والاضرار التي نتجت عن الحرب . وتلك المشورة والمساعدة ستسجلها جامعة الأمم عندما تتحقق بالفعل ، وقد دعي سموكم الملكي الى فرنسا للقيام بهذه المهمة باسم الامة السورية .

عندما كنتم تفاوضون الحكومة الافرنسية في شهر كانون الثاني كانت العصابات الخارجية من دمشق تحتاج المنطقة الغربية فأرسل الي مسيو كلنصو البرقية الآتية :

« عندما بلغني هجوم البدو في شمالي سوريا وجنوبها قلت للأمير فيصل اني اتفقت معه مؤقتاً على بعض المبادئ واتي احافظ أتم المحافظة على كلامي لكن يجب أن يقابل خطتي هذه بمثل ما فيها من الاخلاص وأن يجعل سلطانه محترمة من مريديه فاذا لم ينفذ هذان الشرطان تنفيذاً دقيقاً ، فالحكومة الافرنسية ستستأنف حريتها في العمل وتستعمل القوة لتأييد النظام واحترام الحقوق التي لها من المؤتمر » .

على أن البيان الآتي يوضح جلياً كيف ان حكومة دمشق لم تقطع عن اتباع خطة معادية مخالفة تمام المخالفة لسياسة التعاون التي رمى اليها رئيس الوزارة وتعهدهم بتطبيقها :

١ - ان اصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الافرنسية

باستعمال سكة رفاق - حلب الحديدية استعمالاً حراً هو عمل عدائي بحت .
فالحكومة لا تجهل أن تلك السكة لا بد منها لاعاشة احدى فرقنا الافرنسية
في الشمال وتمكينها من القتال ، وهذه الفرقة تقاتل قوات معادية تابعة
لتركيا التي انتزع الخلفاء الظافرون سوريا من ربقتها وهي لا تقاتل إلا
دفاعاً عن حدود حكومة سوريا الجديدة التي يجب أن تربطنا بها روابط
المصلحة وعرفان الجميل .

ان حكومة دمشق هي التي وضعت مبدأ تنظيم العصابات واستخدامها
ضد جنودنا المحتلة . وهذا المبدأ قد أعلنه قائد الفرقة الثالثة في حلب
صراحة يوم ١٣ نيسان بالقول الآتي : لما كنا لا نستطيع أن نعلن
الحرب رسمياً على الافرنسيين فيجب علينا أن نحكم البلاد بالعصابات التي
تجهز عليهم تدريجياً . وسيقود هذه العصابات ضباط فاذا استشهد أحدهم
تعيل الحكومة عائلته .

ويكفي تعداد الأدلة الآتية على دقة تنفيذ هذه الخطة :

في ١٣ كانون الاول ١٩١٩ هوجم موقع في تل كلخ بتحريض
السلطة الشريفة في حمص .

وفي أواخر كانون الاول ١٩١٩ ذبح محمود الفاعور الذي قلم لي
يا صاحب السمو انه صديقكم الشخصي (بدر) من مسيحي مرجعيون
وهجم على جنودنا في ٤ كانون الثاني رافعاً العلم الشريفي .

وفي ٥ كانون الثاني تحقق وجود الجنود الشريفة بين الذين هاجموا
جنودنا تحت قيادة ثريا بك في قرق خان ثم في الحمام .

وفي حزيران ثبت وجود زعيم ورئيس وستة ملازمين و ٣١٧ رجلاً

من الجيش النرويجي بين العصابات التي كانت تعمل في جهة مرجعيون ،
وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه وهي ؛ رشاشات ثقيلة
و ٣ خفيفة و ٥٠ صندوق ذخيرة . وظهر أيضا اشتراك محرضي المنطقة
الشرقية في الاضطرابات التي امتازت بمذابح عين ابل وفتنة فرق الشيعة .

ثم ان منظمي العصابات محترمون كل الاحترام في دمشق لا سيما
صبحي بركات الذي لا يجهل أحد مساوئه إلينا . وعندما لم تكن العصابات
ترسل من المنطقة الشرقية كانت الفتنة تثار في المنطقة الافرنسية نفسها .

وبهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديدة على المسيحيين ولا سيما في
جسر القرعوت في ٢٩ كانون الاول حيث تقع التبعة على الضابطين
الشرقيين : أحمد بك وتحسين بك .

وقد ساعد الشيخ صالح العلي ، بطل الفوضى والبغضاء لنا ، مساعدة
مؤثرة ومستمرة في جبال النصيرية .

ومن الممكن تعداد كثير من هذه الامثلة وقد عرضناها على سموكم
الملكي في حينها .

٢ - رأى سموكم الملكي ادخال أشخاص مشهورين بعدائهم لفرنسا
في حكومته ، وكان تأثير المحيط شديداً عليكم حتى انكم لم تتمكنوا من
السفر في الوقت المناسب تلبية للدعوة مؤتمر الصلح ، وقد انتخبت الوزارة
من اناس من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على اهانة فرنسا ورفض
مساعدتها بل تتناول المجلس الأعلى الذي منح فرنسا الانتداب على سورية .
ان رفض انتداب فرنسا رفضاً باتاً في ١٨ ايار الماضي ، هو خطوة
عمياء قد تجر نتائجها المصائب على سورية .

٣ - ان التمتع الاقتصادي الظاهر في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي أصدره البنك السوري لحساب فرنسا ومنع جميع المعاملات التجارية والمالية مع فرع بنك سوريا في المنطقة الشرقية هو دليل جديد على عداوة مضر بمصلحة البلاد أيضاً وكذلك منع نقل الحبوب الى المنطقة الافرنسية مبتدئاً من حماة فدمشق حلب .

ثم ان السلطة الادارية الشريفة ، اجتازت حدود المنطقة الشرقية وتقدمت تدريجياً داخل حدود المنطقة لتظهر انها قد توسعت توسعاً تقصد منه إخراجنا .

ففي شهر آذار وضع مخفر شريفي في الخالصة ثم رفع العلم الشريفي على القدموس بعد ذلك بقليل . وفي نيسان جعلت حكومة حلب القصير قضاءً شريفياً ثم نصبت قائماً شريفياً في جسر الشغور .

٤ - ان من كان صديقاً لفرنسا أو موالياً لها في المنطقة الشرقية يكون مشتبهاً به من السلطة ويعامل معاملة سيئة للغاية في أغلب الاحيان . ومن الأدلة الظاهرة على ذلك ان فارس غنطوس ونسيب غبريل اللذين ضمنّت حكومة دمشق رسمياً رجوعهما الى راشيا أسيئت معاملتهما ووضعاً في السجن بعد رجوعهما .

وفي ٢٢ كانون الثاني هوجم وفد من دروز حوران جاء للسلام عليّ أثناء عودته في وادي القرن وقتل عدد من رجاله .

ولدينا أمثلة عديدة على ذلك ولا سيما في حلب .

أما من كان عدواً لنا فانه يحترم في المنطقة الشرقية ويحمى من كل شيء ويحل على الرحب والسعة ، فقد احتفل بالنادشة احتفالاً كبيراً

في دمشق ولم يمس بسوء أمين محيو الذي نسف مستودع العتاد الحربي في بيروت ، ثم ان سموكم الملكي سعى مؤخراً لرجوع كامل بك الاسعد الناصر المشهور الى المنطقة الغربية ، وهو قد نفي بسبب فتن بلاد الشيعة وعليه قسم عظيم من تبعها . أما سكان المنطقة الغربية الذين أكرمهم عداؤهم لنا عطف الحكومة عليهم فعددهم عظيم أيضاً .

ان بث الدعاية ضد فرنسا في المنطقة الغربية قد ألبسته حكومة دمشق اشكالاً خبيثة ارادت السلطة الافرنسية أن تغمض عينها عنها لانها قررت اتباع خطة التساهل الى النهاية . وآخر هذه الاعمال وأظهرها شراء القسم الاعظم من أعضاء مجلس ادارة لبنان ، باثنين وأربعين الف جنيه مصري . وقد ألفت مخافتنا القبض على هؤلاء الاعضاء في ١٠ تموز بينما كانوا ذاهبين الى دمشق لبيع بلادهم منكرين الاماني التي أعرب عنها مواطنوهم بالاجماع تقريباً منذ عهد بعيد .

ان صحافة دمشق التي تفرط الحكومة في شد أزرها تواصل دائماً حملاتها على كل ما هو افرنسي وتقمح السلطة المحتلة في المنطقة الغربية ، وترد كل مساعدة تعرضها فرنسا وتمنع مقاصدها الحسنة نحو سوريا .

بمقتضى هذه الحقوق يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطراً سورياً لا بد أن يظل عثمانياً الى أن يقضي تنفيذ المعاهدة بتغييره ، ألا يعمل بغير هذه الصفة وأن يحافظ على الحالة الراهنة التي هو مارس عليها . ولكنه تصرف عكس ذلك متخذاً صفة السيادة العليا وقد تقرر التجنيد الاجباري ونفذه منذ شهر كانون الاول ١٩١٩ مع ان البلاد لا تزال بلاداً أجنبية ، وهذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعاً قد أكره الشعب

عليه حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع ، ونفذ في اناس مستثنين منه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية ، ولاقي هذا التجنيد مقاومة عنيفة أدت في بعض الاحيان الى اراقة الدماء .

ثم ان المجلس الملقب بالمؤتمر السوري الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونية لسن القوانين بل يحكم باسم حكومة ودولة لم يعترف بوجودها ، وفضلاً عن ذلك فقد قدم المنصب الملكي لسموكم الملكي بدون حق ولا وكالة مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك في موقف المتعرد على مؤتمر الصلح .

ولم تحترم الامتيازات الاجنبية فان أحد رعايانا الأمير مختار الذي يمثل اسرة كبيرة اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسا قد اوقف ايقافاً معيياً في حلب .

وايست الاتفاقات السياسية محترمة أيضاً فان لواء من الجيش الشريفي ارسل الى مجدل عنجر رغم الاتفاق الذي تم في كانون الاول الماضي مع المسيو كلنصو والذي يقضي بالأتحل في البقاع قوة شريفية أو افرنسية .

٦ - لم تستطع السلطة الافرنسية حتى الآن ان تنظم البلاد التنظيم الذي تنتظره منها اذ اضطرت الى صرف قواها وجهودها لقمع الفتن المتوالية ، ومواصلة المفاوضات السياسية العقيمة مع حكومة دمشق ، فهي والحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخر بل تتحمل العبء العسكري والمالي الذي تقضي به الحالة التي أوجدتها حكومة دمشق ، ولا يمكن إلا أن تؤثر التكاليف في الميزانية السورية سواء بفقد الدخل الذي ينشأ عن استمرار الفوضى أو بالاشتراك في نفقات السيادة التي تلحق بها في المستقبل .

على ان حالة الفوضى التي أوجدها مثيرو الفتن في البلاد وقد بلغت
حداً كبيراً دعا الى استحضار قوات كبيرة أعظم عدداً مما يدعو اليه
استبدال جنود انكليزية ابان السكينة .

فهذه الاسباب تدل دلالة كافية على انه لا يمكن بعد الآن أن نعتد
حكومة جاهرت فرنسا العداء كل المجاهرة وأخطأت نحو بلادها خطأ
عظيماً بظهورها عاجزة عن تنظيمها وادارتها ، لذلك ترى فرنسا انها
مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان في
البلاد التي نالت من مؤتمر السلام مهمة الوكالة عليها ، لذلك أتصرف
بأن ابلغ سموكم الملكي أن هذه الضمانات هي :

١ - التصرف بسكة رفاق - حلب الحديدية لاجراء جميع النقلات
التي تأمر بها السلطة الافرنسية . ويؤمن هذا التصرف بأن يراقب
مفوضون عسكريون افرنسيون جميع ما ينقل في محطات رفاق وبعلبك
وحمص وحماه وحلب تعضدهم قوة مسلحة مخصصة للمحافظة على المحطة
واحتلال مدينة حلب التي هي نقطة مواصلات هامة لا يسعنا أن نتركها
تسقط في يد الترك .

٢ - قبول الانتداب الافرنسي .

ان هذا الانتداب يحترم استقلال أهل سورية ولا يناقض مبدأ الحكم
بسلطة سورية تستمد قوتها من ارادة الشعب ولا ينطوي إلا على معاونة
بشكل مساعدة وتعاون من الدولة المنتدبة دون أن يتخذ مطلقاً شكل
استعمار أو إلحاق أو ادارة تنفذ رأياً .

٣ - قبول الورق السوري :

تصبح هذه العملة وطنية في المنطقة الشرقية فتلغى جميع الاحكام المتعلقة بالبنك السوري في المنطقة الشرقية .

٤ - تأديب المجرمين الذين كانوا أشد أعداء لفرنسا .

ان هذه الشروط تقدم جملة ويجب قبولها جملة أيضاً بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبتدىء من منتصف ايل ١٥ تموز (أي ١٤ تموز الساعة ١٢ ليلا) وتنتهي في ١٨ منه الساعة ١٢ (أي الساعة ١٢ ليلا) .
فاذا جاءني علم من سموكم قبل انتهاء هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن يكون صدرت أوامركم في الوقت نفسه الى المراجع اللازمة لكي لا تعارض جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة .

ثم ان قبول الشرط الثاني والثالث والرابع والخامس يجب أن يؤيد رسمياً قبل ١٨ تموز ، أما تنفيذه بالتام فيكون قبل ٢١ تموز الساعة ١٢ (نصف الليل) . واذا كان سموكم المللي لا يشعرني في الوقت اللازم بقبول هذه الشروط فأتشرف بأن ابلغه بأن الحكومة الافرنسية تكون مطلقة اليد في العمل ، وفي هذه الحالة لا أستطيع أن أوكد بأن الحكومة الافرنسية تكتفي بهذه الضمانات المعتدلة .

ولا تقع على فرنسا تبعة المصائب التي تحمل بالبلاد فهي قد برهنت على تساهلها زمناً طويلاً وفي الآونة الاخيرة ، فحكومة دمشق هي التي تتحمل جميع أعباء مسؤولية فصل الخطاب الذي لا أنظر إليه إلا آسفاً ولكني مستعد له بمثانة لا ترزعزع .

كما الحق بالانذار طلب اقالة حكومة الاتاسي . وكان لهذا الانذار

تأثير عظيم في نفوس السوريين إذ أنهم وإن كانت نوايا فرنسا غير مجبولة
منهم ، ما كانوا يتوقعون مثل هذه المطالب القاسية المخالفة للاتفاقات
القائمة ولأبسط أسس العدل والانصاف . ومن الطبيعي أن يكون
الاتجاه تقوية المقاومة وعدم الخضوع للانذار ، لاسيما وإن الحكومة
أعلنت في المؤتمر السوري بكل وضوح أنها حكومة دفاع وطني وباشرت
فعلاً بأعداد العدة لذلك . هذا مع العلم بأن الأمير وحكومته بعد أن
تبلغوا انذار الجنرال غورو الشفهي بواسطة نوري السعيد وقبل أن
يتسلموا الانذار الخطي ، سعوا لتقوية جهة الدفاع التي كان قوامها
أبناء الطبقة الوسطى والطلاب من سكان المدن ، فكانوا ينادون بالدفاع
والبذل والتضحية في سبيله ، كما رأت الحكومة أن من الحكمة تحريك
ضمير العالم المتمدن لتأييد قضية سورية الحقبة بطلب التحكيم الدولي في
الخلاف الناشب بين الجنرال غورو وسورية وتهديده الذي لا يتوافق مع
مبادئ الحق والعدالة التي طالما جاهر بها الحلفاء .

وقد اتى وزير الحربية يوسف العظمة في المؤتمر السوري ، بحضور
وزير الخارجية ورئيس الوزارة في ١٣ منه ، بيان الحكومة عن الموقف
وهذا نصه :

أيها السادة

نرى من الواجب أن نبسط على مسامعكم خلاصة ما يقع في هذه
الدقيقة الحرجة ، تعرفون خطة الوزارة وتذكرون أننا قلنا في بيانها
الذي نال استحسانكم أننا سنحافظ على صلات الصداقة مع جميع الحلفاء
ولا سيما مع فرنسا وانكلترا ، وتعلمون أيضاً أننا حافظنا على هذه الخطة

ساعين لتحقيقها وتحقيق آمال الأمة التي أعلنتها للعالم على لسانكم اتم
ممثلوها في هذا المؤتمر الموقر .

بدأت المفاوضات وسارت في طريق حسن وتلقينا ما تعلمونه من
قرارات مؤتمر سان ريمو المعترف بسورية دولة مستقلة ، ومن التبليغات
غير الرسمية من حليفتنا بريطانيا التي تشير إلى الاعتراف بجلالة ملكنا
ملكاً على سورية علاوة على تأييد الاستقلال المذكور .

وعزمننا في المدة الأخيرة على ارسال وفد إلى أوروبا لاتمام المفاوضات
وحل المسألة السورية حلاً نهائياً يحقق آمال الأمة وسعادتها ، ولنبرهن
للعالم والدول كلها أننا لا نعادي أحداً ولا نقاوم قرارات مؤتمر السلم
مادامت ضامنة لاستقلالنا وشرفنا . وقد عزم جلالة الملك على السفر
بالذات جاً بانتهاء المفاوضات ، وكنا واثقين بأننا سنتلقى البشائر بتحقيق
آمالنا التي هي آمال الأمة معاً .

وبينا كنا مثابرين على خططنا العملية آملين خيراً من سفر الوفد
تحت رئاسة جلالة الملك اذ حصل ما لم يكن في الحسبان ، احداث
الحالة الحاضرة الخطيرة التي نريد أن نبينها لكم وهي :

ان الجنرال غورو أراد وهو مستفيد من تحشيداته العسكرية أن
يعرقل أو يمنع سفر جلالة الملك لأسباب لانعلمها ، وقد أظهر لموفدنا
بعض الشروط التي قال انه يريد أن يطلبها منا ، ولكننا لم نطلع بعد
على نصها الرسمي ولا يمكننا أن ننظر إلى هذه الشروط بصورة رسمية
أو نعتقد انها صحيحة أو نبلغكم اياها مكتوبة من يد رسمية .

وإذا نظرنا الى بعض هذه الشروط نراها ليست مغالفة فقط ، لمطالب

الامة ورغائها وعزمها القطعي على محافظة استقلالها بل تخالف بالوقت نفسه ، روح المقررات التي اتخذت بين الدول في مؤتمر سان ريمو وتخرق حرمة هذه القرارات التي تعتمد عليها حكومة فرنسا أيضاً ، إذ أن هذه الشروط اذا كانت صحيحة تخل في أساس استقلالنا ، والسيادة التي اعترفت بها الدول في مؤتمر سان ريمو ، وقد حشد الجنرال جيوشاً على حدود المنطقة الشرقية من الشمال والغرب ، وربما كانت غايته من ذلك تعزيز الشروط المذكورة التي نكرر بأنه لم يبلغنا ايها بصورة رسمية حتى هذه الساعة ، وأرسل جنوده لتعزيز القوة الافرنسية في ريباق وصرح حاكم زحلة الافرنسي لقائد المحطة العربي في ريباق انه احتل ريباق احتلالاً عسكرياً ، وأعاد الجنرال القوة التي كانت احتلت المعلقة في العام الماضي .

وقد تلقينا البارحة من الكولونيل كوس ، عن لسان الجنرال غورو ، أن احتلال ريباق والمعلقة هو مقابل تعزيز قواتنا في مجدل عنجر وهي نقطة عسكرية وضعت لتأمين الأمن الداخلي في ذلك الجوار فقط وذلك منذ ابتداء الاحتلال ، وتعزيزه من قبلنا أخيراً ليس إلا تدييراً اضطررنا أن نتخذه بعد أن رأينا تحشيدات الجنرال على حدود منطقتنا .

حكومتنا بعد أن احتجت على معاملة الجنرال غورو التي لا تتلئم مع التحالف وطلبت احالة القضية إلى التحكيم الدولي ، تعلن إلى الامة وإلى العالم أجمع ما يلي :

١ — نحن لا نريد إلا السلام والمحافظة على استقلالنا وشرفنا الذي لا نتحمل أن تشوبه شائبة .

٢ - نحن نبدأ من كل تهمة نوصم بها ، ويراد بها الإيهام بأننا نريد الإخلال بعلاقتنا مع حليفتنا وحلفائنا .

٣ - نحن لا نرفض المفاوضات ومستعدون أن ندخل بها ، وها ان الوفد تحت رئاسة جلالة الملك مستعد للذهاب لمواصاتها ، ونحن نقبل كل حل لا يمس استقلالنا وشرفنا ويكون مبنياً على أساس الحق والاستقلال .

٤ - اننا مستعدون كل الاستعداد ومصممون كل التصميم على الدفاع عن شرفنا وحقوقنا بكل ما أعطانا الله من قوة .

هذا هو الموقف الحاضر ايها السادة ، بسطناه لحضراتكم والله معنا ، اذ لا نريد الا حقنا والدفاع عن كياننا .

وأعقب ذلك اعلان الادارة العسكرية العرفية ، ثم اتصال الملك بالمرکز باتير نوادي مانكي قنصل ايطاليا العام في سورية وعميد القناصل في دمشق ، وكان يعطف على قضيتنا لاتفاق ذلك مع مصالح حكومته ، وتسليمه له برقية احتجاج على انذار الجنرال غورو ومنعه من السفر لاوروبه للاتصال بمؤتمر السلم بطريقة لا تتفق مع مبادئ العدل والانسانية ، ولكن ذلك لم يفد شيئاً ، وكذلك كلف الملك القنصل العام تبليغ برقية لحكومته نظراً لتعذر ارسالها بسرعة بغير تلك الوساطة ، ولقناصل الدول في دمشق ليلفوها لحكوماتهم التي يرجو الملك منها تبليغ ذلك الى جمعية الامم أيضاً ، وطلب تأليف لجنة تحكيم دولية لحسم هذه المشكلة ، متعهداً بالخضوع لقرار لجنة التحكيم راجياً تدخل الدول حقناً للدماء وللمنع خراب البلاد ، ولم تعقب هذه المحاولات اي نتيجة . وكان العرب لم يكونوا من الحلفاء ، فلم تحل مراجعاتهم دون توجيه انذار الجنرال

غورو بالمطالب الواردة فيه ، ودون تصرفاته الاستبدادية ، وكذلك لم تقد
البرقيات التي ارسلت لرستم حيدر مندوب الحجاز في مؤتمر السلم لاعلامه
بكل ما تقدم ليعمل كل ما في وسعه لتحقيق مطالب الملك وحكومته .
ولما كان من الظاهر ان دمشق هي هدف الحركات العسكرية الفرنسية ،
فقد عززت حاميتها كما عززت القوات العسكرية المعسكرة في مرتفعات
مجدل عنجر ، خط الدفاع الاول عن دمشق . فاحتج غورو على ذلك ،
رغم تهديداته التي كانت تتوالى ، وكأن الدفاع عن النفس محرم .
فنتج عن ذلك كله ان انقسمت الوزارة بخصوص قبول الانذار او
التريث والانتظار ، وكان القائلون بقبول الانذار يرون استحالة التغلب
على الجيش الفرنسي الكثير العدد والمعدة .

هذا مع العلم بأنه لم يكن بين الوطنيين المثقفين ، وكنت في مقدمة
هؤلاء ، اذا استثنينا منهم الشيخ كامل ومن يتبعه من البسطاء ، من
يعتقد بإمكان التغلب على جيش فرنسا الكبير سيما والتدخل بالسياسة كان
يعمل عمله الضار بين ضباط الجيش السوري الناشئ ، ولم يعد كالجيش
القائم المتحد الكلمة والمستميت في سبيل مثله العليا فقط ، ذاك الذي
حرر سورية بقيادة فيصل ، لكن المقصود كان المقاومة المستميتة مدة
طويلة على ذلك يؤثر في ضمير العالم المتمدن الخارج من مجزرة الحرب
العظمى وحكوماته القائلة بأن الحق يعلو ولا يعلى عليه ، او الاسانة
في سبيل الدفاع ، فتسجل سورية والعرب صفحة مشرقة في سبيل
الدفاع عن كيانها وكرامتها . ولتفعل القوة ما تشاء لان النتيجة واحدة
مها كانت الظروف التي تسمح لفرنسا بان تمسك جنودها في أي بقعة

من بقاع الوطن العزيز . ويكون ذلك قد تم رغم رغائب الشعب وبعد
تقويض أركان حكومته الوطنية .

وبعد وصول انداز الجنرال غورو اظهر وزير الدفاع يوسف العظمة
وهو من أعضاء « الفتاة » ومن اشد القائلين بالدفاع حتى النفس الاخير ،
يؤيده في ذلك من الوزراء ساطع الحصري المرابي الذي يجعل المثل العليا
المقام الاول في كل أعماله ، نشاطاً كبيراً ، وسعى لاستتمام الاستعدادات
العسكرية اللازمة في الجهات المختلفة . وبما ان جهة مجدل عنجر هي
أهم جهة لأنها ستكون معرضة للهجوم الفرنسي الاساسي ، فقد طلبت
الوزارة من الملك تعيين الأمير زيد لقيادتها مع القيادة العامة للجيش ،
الافادة من نفوذه الأدبي وسمعته العسكرية العظيمة ، وتعيين ياسين باشا
الهاشمي أكبر قادة العرب الذي عاد من الرملة في ١٦ أيار ١٩٢٠ رئيساً
لأركان حربه ، قم ذلك حالاً كما عين يحيى حياتي لقيادة منطقة حمص
وحماه ، وكانت فرقة حلب بقيادة محمد اسماعيل وفرقة درعا بقيادة اسماعيل
الصفار . إلا أن الهاشمي اعتذر عن القبول ، وعلل ذلك للأمير زيد
بقوله ان الجيش أضعف من أن يصمد للمقاومة والدفاع ، خصوصاً وان
مستودعات السلاح تكاد تكون خالية من العتاد ، فأسرع زيد وأبلغ
هذا الوضع الخطير لفیصل ، فاستولى علينا الهلع والاثم إذ لم نكن
نتوقع أن يكون وضع الجيش سيئاً لهذا الحد ، فاذا كنا لا نعتقد بسهولة
الانتصار على الجيش الافرنسي ، إلا اننا كنا واثقين من الصمود في
وجهه ولو أسابيع معدودة . فدعا الملك مجلس الوزراء الاجتماع بغية
بحث هذا الأمر الخطير ، فنفي يوسف العظمة ما قاله الهاشمي بشدة ،
وأصر على المقاومة وتحمل تبعه ذلك بصفته وزير الدفاع المسؤول . على

ان ثقتنا بالهاشمي جعلتنا ننظر الى ما قال بعين الجد ، ففاتحت العظمة مستفسراً ، فأيد لي ما قاله في مجلس الوزراء ، وأسرّ إليّ بأن الهاشمي قد يكون مأخوذاً بالغيرة حين ألقى قنبلته هذه بعد إذ أصبح مركزه في الجيش ثانوياً .

وعلى الأثر ناقش فيصل وزير دفاعه على انفراد في الأمر ، واتفق معه على عقد مجلس عسكري من أمراء الجيش لدراسة الموقف وتفهم الحقيقة والبت في الخطوة الواجب اتباعها .

وبذل العظمة غاية جهده ليحصل على تأييد قادة الجيش فيما قاله ، واجتمع مجلس الدفاع العسكري في البلاط برئاسة الملك في اليوم الثاني ، بتاريخ ١٦ منه ، وحضره الهاشمي وتحلف العظمة عن الحضور ، فلم تكن بيانات المجتمعين صريحة ، فأصرّ فيصل على ابداء الرأي الحاسم . فاجتمعوا على حدة ، ثم اتفقوا خلال الاجتماع على رأي موحد أبلغوه لفيصل ، وهو انه اذا كان الهجوم قوياً وحمي وطيس القتال ، فليس لدينا من العناد ما يمكن جيشنا من أن يقاوم أكثر من خمس دقائق .

وفكرت تلقاء هذه النتائج الخطيرة ، بالحصول على معلومات من قنصل إيطاليا العام عن عدد وعدة الجيش الذي سيعتدي علينا إذ قد يكون على علم بشيء من ذلك ، فأجاني بأن القوة الافرنسية المتجمعة بالشمال وحده ، بعد هزتهم مع الانراك ، لا تقل عن ٧٥ ألفاً كاملة العدة ، فخرجت من مقابلته قاصداً وزارة الدفاع حيث قابلت الركن مصطفى وصفي ، فوجدته يحجل مقدار القوة العظيمة التي حشدتها فرنسا لهاجتنا ، واستولى عليه العجب لما سمع مني . وعدت من لدنه فوراً

الى البلاط حيث عرضت كل ما حصلت عليه لفیصل ، فزاد ذلك في آلامه وتذمره من الهاشمي الذي كانت المسؤول الاول عن الجيش الى ما قبل اعتقاله في تشرين الثاني ١٩١٩ ، وكانت من أشد المتحمسين للمقاومة ، وقد علل الهاشمي موقفه بقوله ان الافرنسيين اتوا بقوى كبيرة في الاشهر الستة الاخيرة . أما نحن فلم نزد استعداداتنا الحربية زيادة تذكر . كما ان فیصل حمل على العظمة مستغرباً موقفه ، وما قال لي والالم يحز في نفسه ، ان الحكمة أصبحت تقضي علينا بمسألة فرنسا .

على ان هذه الاحداث كانت تنتشر في اوساط دمشق السياسية والوطنية محدثة التبلبل العظيم ، وراجت الاشاعات منتشرة عن اتجاه الحكومة لقبول الانذار ، الأمر الذي دعا المؤتمر السوري لعقد جلسة صاخبة في ١٥ تموز حمل خطباؤه فيها على الوزارة بشدة ونادوا بضرورة التمسك بقرار المؤتمر القاضي بالدفاع عن الاستقلال التام والوحدة حتى النهاية ، ذلك القرار الذي نالت الحكومة ثقتها من المؤتمر بعد قبوله ، واعلانها أنها وزارة دفاع وطني . وختم المؤتمر جلسته بقرار يطلب من الحكومة فيه اقرار اقتراحاته الآتية ونشرها على الأمة وهي :

١ — الاستقلال التام والوحدة السورية ورفض الهجرة الصهيونية .

٢ — ملكية الملك فیصل على الاساس النيابي الدستوري .

٣ — ابقاء المؤتمر منعقدّاً يراقب أعمال الحكومة المسؤولة أمامه الى

أن يجتمع مجلس النواب بموجب القانون الاساسي ، قراراً واحداً لا يقبل التجزئة ، وان المؤتمر السوري لا يعترف باسم الأمة السورية بأية معاهدة واتفاقية أو بروتوكول يتعلق بمصير البلاد ما لم يصادق عليه .

وكنت من أشد العاملين في المؤتمر لاصدار هذا القرار رغم اني كنت على علم تام بوضعنا العسكري ، لاني لم أكن أستسيغ توقيع عقد استعبادنا بأي شكل كان ، وتحت ضغط أي ظرف قاهر .

وكان من أثر هذا كله أن اضطربت دمشق وهاج الناس وقامت المظاهرات مطالبة بالدفاع حتى الموت ، إلا أن ذلك لم يمنع الحكومة من قبول الانذار في ١٧ تموز بعد أن استوثقت من فقدان العتاد وضعف الجيش .

واجتمعت في البلاط بالمعظمة فسألته كيف وقع بهذا المأزق الحرج ، وبرغم اني من مقاومي قبول الانذار لكنني لا أستسيغ الانزلاق مع سياسة الشارع ، فكان جوابه بأنه كان يرمي الى اختداع الافرنسيين ولا يخطر له على بال انهم يقدمون على مهاجمة حلفائهم حرباً ومجلس الصلح لا يزل منعقداً . وهنا كشفت له عن رأيي بأنه كعسكري لا خبرة له بالسياسة ، كان ينبغي عليه أن لا يورط نفسه في أمر خطير كالذي أقبل عليه .

وبعد أن تسلم الملك قرار الحكومة دعا أعضاء المؤتمر لاجتماع خاص في قصره ، وخطب فيهم شارحاً وملجأً للأسباب القاهرة التي اضطرت به ليجنح الى مسالة فرنسا ، فهاجت ثائرة بعض الاعضاء من سكان فلسطين والساحل ، وردوا عليه بشدة ، وذكروا بماضيه الوطني ، مرددين بأنه لا يليق به أن يقبل عن رضى تحطيم الافرنسيين لاستقلال سورية ، فتألم لما سمع كثيراً ، إلا أنه تغلب على تأثره وأنقذ الموقف بكياسته ، إذ اقترح أن يكتب كل واحد من الاعضاء رأيه الشخصي ويسلمه إليه

من غير أن يطلع عليه أحداً لأن ذلك أدعى للروية والتعقل ، واعدأ بتنفيذ القرار على ما تأني به الاكثرية . ولكن هذا الاقتراح لم يحققه أحد من أعضاء المؤتمر الذين سارعوا فقرروا الاجتماع في مقر مؤتمرهم . وظهر عند اجتماعهم أنهم لم يكونوا على رأي جميع ، فالأعضاء من المنطقة الغربية والجنوبية (فلسطين) كانوا مندفعين بحماس واصرار الى التمسك بمبدأ الدفاع . أما سكان المنطقة الشرقية (سورية الداخلية) فكانوا بأكثريةهم ميالين الى الاعتدال . ولذا التزموا جانب الصمت . وتوالت جلسات المؤتمر ، وكلها يعبر عن الهياج الوطني الذي ملأ الصدور ، والتحامل على الحكومة ، وقد اعتذرت الحكومة عن حضور المؤتمر لايضاح الحالة وبيان خطتها ، قبل عودة الرسول الذي أوفدته لمفاوضة الجنرال غورو في شروط انذاره .

ونج عن ذلك قيام المظاهرات وهياج الشعب ، وراجت سوق الشائعات عن عزم الحكومة على توقيف بعض الوطنيين المتطرفين استجابة لمطالب غورو ، ولا اساس لذلك من الصحة ، واضطر الأمير بهجت الشهابي مدير الشرطة العام الى الاستقالة لأنه كان من أعضاء « الفتاة » وقد قررت المقاومة مما كانت الظروف .

وبما ان غورو طلب تغيير الوزارة القائمة ، وكانت الظروف الحرجة تستلزم ان يكون رئيسها قوياً ، ففكر الملك باستشارة ياسين الهاشمي بتأليف الوزارة فردد بالقبول ، ثم اعتذر ، وكانت هيئة ادارة « الفتاة » أبلغته قرارها بالمقاومة ، ولم اكن وياه في عداد اعضائها اذ ذاك ، وقد استنبأته خبر ما عزي اليه من وجوب قبول الانذار ، وقوله لساطع

بصراحة إن الجيش لا يصمد امام هجوم مركز للعدو اكثر من دقائق
معدودات ، مخالفاً بذلك ما كان صرح به قبل اعتقاله ، فعمل ذلك بتغير
الظروف ، وبجشد الافرنسيين قوى واعتدة جديدة كثيرة ، واستبلى
فقال بأن واجبه العسكري يحتم عليه عدم اخفاء الحقيقة عن القائد
العام ، رغم قرار الجمعية بالمقاومة . وانتقد تفأؤل العظمة واعترافه
لساطع بأنه كان يود اختداع الافرنسيين ، وابدى عظيم استغرابه في
ان ينهج رجل عسكري مثل هذا النهج مع زملائه الوزراء ، ثم دعم
ما كان قد صرح به من اننا لانملك للخمسة عشر الف بندقية المختلفة
الانواع في حوزتنا ، سوى مئتين وخمسين طلقة لكل بندقية ، وقذائف
المدفعية اقل ، فلم يعترض على اقواله احد ، الا ان قرار الجمعية بالمقاومة
ظل قائماً .

وكان للبرقية التي ارسلها نوري السعيد وعادل ارسلان اللذان كان
اوفدهما الملك لاستشارة اللني الذي كان يزور حيفا اذ ذاك بما يجب
اتخاذ لوقف الانذار ، والرجاء بالتوسط للوصول لذلك ، تأثير وأي
تأثير على موقف فيصل ، اذ اشار القائد الانكليزي بوجوب قبول
الانذار ، وزاد بأن حرر الى الملك كتاباً خاصاً يصر عليه فيه بضرورة
الترؤل عند حكم الانذار .

ورغب الملك ايضاً في معرفة رأي الكولونيل تولا الذي عينته وزارة
الخارجية الفرنسية لمرافقته عند زيارته الاولى لباريس ، واصبح يقدر
مزاياء فيصل وحسن طويته ، فأشار عليه بقبول الانذار ، وأيد ذلك
الكولونيل كوس معتمد فرنسا في سورية ، وقد لمح تولا في حديثه

الى ان الجنرال غورو يستحس الشوق لدخول دمشق دخول الظافرين
وعلى رأسه اكايل الغار ، فقبول الانذار يحول دون ذلك ويكفل منافع
فرنسا وسورية في آن واحد ، ثم زاد على ما تقدم بأن ليس في حوزة
سورية غير مئتين وخمسين طلقة لكل بندقيّة واقل من ثمانين قذيفة
لكل مدفع .

ومن الغريب انه وكوس كانا يرددان ذلك كثيراً لدعم رأيهما
بضرورة الاتفاق مع فرنسا بدون ان يكثر احد بأقوالهما ، بل من
المؤلم ان يصبح ما قالاه حقيقة ثابتة . ووقع ان اجتماعي ، فأصرا
عليّ بأن اقنع الملك بقبول وجهة نظرهما ، واني لا أذكر قولهما
متسائلين : ألا قل بربك يا دكتور ماذا تجدي بنادقكم بعد نفاذ ذخيرتها ؟
أيمكن بينها وبين العصي اختلاف ؟ وهل للعصي ان تقاوم ماضي
السلاح الحديث ؟

لم تبق هذه الحقائق اي مجال لاختلاف الرأي بين الملك والوزارة ،
فقرروا قبول الانذار بعد تفهمهم حقيقة الموقف واطلاعهم على بيانات
ساطع الحصري . فأشارت الحكومة على الملك في ١٧ تموز بقبول الانذار
فأبلغ الملك الجنرال غورو بتاريخ ١٨ تموز قبول الانذار بكتاب أرسله
مع الكولونيل تولا ، فأجابه غورو في ١٩ منه بالرد التحريري الآتي :
« لي الشرف أن أتسلم كتابكم المرمّل بواسطة الكولونيل تولا
المنطوي على قبولكم مبدئياً وشخصياً بشروطي فأذكر سموكم الملكي بأنه
ليس المقصود من مذكرة ١٤ تموز قبولها وانما المقصود هو تنفيذ أحكامها
بأعمال رسمية ، تعمل قبل ١٨ منه على أن يتم تنفيذ ما ورد فيها بكامله ،
قبل ٣١ منه عند منتصف الليل .

ولما كنت قد مدت المدة ٢٤ ساعة اجابة لطلبكم ، فسأكون محققاً
إذا لم أمددها مرة أخرى قبل أن أتلقي نبأ القبول رسمياً وفعلياً من
جانب سموكم بأعمال تعملونها وقد أشير إلى ذلك في الفقرة الرابعة من
مذكرة ١٤ منه .

ولكي أدع لكم وقتاً كافياً لقبول المطالب رسمياً وتنفيذها فقد قررت
الاحتراك جيوشي قبل ٢١ تموز عند منتصف الليل . وأكد الجنرال
جوابه بالتاريخ ذاته بالبرقية الآتية :

حدد يوم ١٨ تموز موعداً لقبول أو رفض مذكرة ١٤ منه ، ثم
مددت المهلة حتى ١٩ منه عند منتصف الليل ، لا لقبول الشروط رسمياً
بل للبدء بتنفيذها رسمياً مع العلم بأن تنفيذها بكاملها يجب أن يتم قبل
٣١ منه ، وبناء على ذلك فلن أقبل أي مهلة بعد التسهيلات التي جرت .
وإذا كان لا بد من إعطاء وقت كافٍ لاجل قبول الشروط والبدء
 بتنفيذها فاني أقرر ان جيوشي لا تتحرك حركة قبل ٢١ منه عند
منتصف الليل .

وبعد قبول الانذار ، بدأت الحكومة بتنفيذ أحكامه فأمرت بتسريح
الجيش في ١٨ منه وقد نفذ ذلك ، الا ان يحمي حياتي أمر منطقة
حمص وحماة الوسطى الذي كان يتعاون تعاوناً وثيقاً مع متصرف حماة
زكي قدري رئيس تشكيلات دفاع المتصرفية الوطنية ، رفض ذلك وكان
أمين سرها كاظم الجزار ، فأخذ المتصرف على عاتقه وضع صندوق مال
المتصرفية تحت أمر آمر المنطقة ليصرف منه على نفقات الدفاع . وقد
زاد تسريح الجيش الاستياء فعمّ دمشق كما زاد الاتهام على الحكومة .
وكان الشيخ كامل في مقدمة المخرضين باسم اللجنة الوطنية فلم تر الحكومة

بدأ من تأجيل انعقاد المؤتمر شهرين ، وتلا قرار التأجيل يوسف العظمة بحضور رئيس الوزارة في الساعة التاسعة من صباح ٢٠ تموز ، فعلا ضجيج الاعضاء وهموا بالخطابة فأجابهم الوزير بلهجة قوية ان القانون يحتم عليهم الانصراف فانصرفوا . وعقد مجلس الوزراء بعد ذلك فوراً اجتماعاً وضع فيه نص مذكرة جوابية لغورو بقبول انذاره وكل مطالبه ختمت بالجملة الآتية :

« ولن يطول الوقت حتى تترك حكومة الجمهورية ان هذه الازمة الشديدة التي اجترناها لم تكن سوى نتيجة سوء تفاهم واسع النطاق بينها وبين الشعب السوري الذي قائل جنباً الى جنب مع الحلفاء وضحي في سبيلهم . »
وسلم الملك المذكرة المذكورة في اليوم ذاته للكولونيل كوس مندوب فرنسا بدمشق وفي ما أشار به غورو ، وقد أهمل كوس ايصال تبليغه لغورو بقبول كل مطالبة ، مع ان كل الامكانيات كانت متيسرة له واكتفى بارسال برقية لغورو بواسطة مكتب التلغراف عن ذلك ، قيل انه قد تأخر وصولها قليلا ، الا ان هذا التأخير لم يكن له أهمية من الوجهة القانونية بعد أن انتهت موافقة الملك إلى الجنرال غورو في حينها وانتهى اليه الرد على وصولها . وكان من المرتقب بعد تحقيق كل ماطلبه غورو ، أن تعد هذه المشكلة منتهية وينظر في التنفيذ ، إلا ان الكولونيل كوس وقد تسلم من الملك مذكرة الحكومة المفصلة بقبول انذار غورو وفقاً لما طلبه بخلافه وبابتداء التنفيذ قبل الوقت المحدد ، لم يلجأ للحال الى ايصال محتويات البرقية بالوسائل المتعددة التي كان يملكها سيما وان منطقة الاحتلال الافرنسية لم تكن تبعد عن دمشق أكثر من ساعة ونصف ، متذرعاً بأن أسلاك البرق كانت تحت التصليح

فتأخر وصول البرقية ، واعتبر غورو هذا التأخير مبرراً لالغاء جميع ماتم ، وشرع بعملياته العسكرية .

واذا تأخرت برقية المعتمد الافرنسي بدمشق للجنرال غورو مدة جزئية لأسباب تتعلق بالمندوب الافرنسي ، او قد تكون لأسباب قاهرة اخرى ، فليس ثمة ما يعد مبرراً لالغاء ماتم ، ثم ان الاقدام على عمل عسكري عدواني ليس له ما يبرره من الوجهتين العسكرية والحقوقية . هذا فضلاً عن ان الجانب الافرنسي لم يغب عنه البدء بتطبيق المطالب الواردة في الانذار وأهمها سحب قوى الجيش السوري من مجدل عنجر وتسريحها .

وما كادت هذه الاخبار تذيع في دمشق وبخاصة قبول الحكومة انذار الجنرال غورو حتى هاج الشعب هياجاً عظيماً لعدم تبينه حقيقة الموقف ، وكان الشيخ كامل القصاب في مقدمة المتحمسين ، وكنت أؤيده دوماً لدى الملك ، ثم انتشرت الدعايات ضد الحكومة معللة بقبول الحكومة الانذار بحرصها على التمسك بالحكم مع ان استقالتها كانت من شروط الانذار .

وهاجم المتظاهرون عند المساء ، بعد أن اغروا بعض افراد الجيش المسرح بالانضمام اليهم ، قلعة دمشق وكان في مقدمتهم عثمان قاسم (من جمعية الفتاة) يطلق النار من مسدسه في الهواء مشجعاً اياهم ، والأصوات تملأ الفضاء بسقوط الحكومة ، ووجوب الاستيلاء على الاسلحة والاضطلاع بمهمة الدفاع ، وقد انضم الى المتظاهرين كثير من الرعايا الذين اطلقوا سراح المسجونين في القلعة ونهبوا كل ما وصلت اليه أيديهم ، ولم يمكن كبح جماحهم الا بعد تدخل الامير زيد وياسين الهاشمي واللاجوء الى القوة ، وأصبحت دمشق في ٢١ منه هادئة .

وفي خلال هذه الفتنة كان بعض المتظاهرين يرسلون حناجرهم إليهم
فيصل بالاشتراك مع حكومته بعملها الشائن . وقد حمل ذلك بعض ذوي
الأغراض فوسعوا فيه ما وسعهم حتى أنهم لم يتورعوا عن الزعم بأن
المتظاهرين تأمروا على الفتك بالملك . فلما ان اطلع فيصل على ذلك تأثر تأثراً
عظيماً على شكل لم نعهده فيه من قبل ، ولقد سمعته يقول مهتاجاً : أهذه
هي مكافأتي على جهودي التي طالما بذلتها في سبيل بلادي ؟ فأهدد بالقتل
وأوصم بوصفات يعلم الله اني بريء منها ! ألا ليت زعماء المتظاهرين
الآن ، كانوا قد أصغوا لنصائحي واتبعوها مهتمين بأعداد المعدات للدفاع
والكفاح ، اذن لما تورطنا في موقفنا الحرج ، ولما اتينا الى هذه
العاقبة الاليمة .

وبعد جهد جهيد أمكن كبح جماح الشعب الهائج وتهدة ثائرة
الملك المتألم . ومن الحزن أن تفاجأ البلاد يوم ٢١ تموز بعد كل التوضيحات
التي أقدمت عليها الحكومة ، بخبر زحف الجيوش الفرنسية باتجاه مجدل
عنجر ودخولها وادي الحرير متجهة نحو دمشق بعد انسحاب الجيش
وتسريحه استجابة لاذار الجنرال غورو . فسأل الملك الذي كان يسيطر
على أعصابه أكثر من جميع رجال حكومته الكولونيل كوس عن أسباب
هذا الأمر ، فأبدى عجبه واستعداده للسفر حالاً للحيولة دون زحف
الجيوش الفرنسية الى دمشق وهو الزحف الذي لا مبرر له .

واحتاطت الحكومة للأمر فأوقفت مالم يكن قد تم تسريحه من
قوى الجيش ، وأمرت القوى المنسحبة بالوقوف في المواقع التي وصلت
إليها . فأبرق الملك الى الجنرال غورو قائلاً : « على الرغم من المشكلات
التي توقعها مقدماً (يقصد هياج الاهلين) فقد قبلت كتابة ورسمياً كل

ما طلبتموه في انذاركم ، وسرحت الجيش العامل طبقاً لاحكامه ، والغيت
الخدمة العسكرية الاجبارية مما سبب استياء أبناء شعبي كما يشهد بذلك
قناصل الدول في دمشق . ولقد دهشت حينما علمت أن جيوشكم تزحف
على دمشق رغم قبولي جميع الشروط الواردة في الانذار بلا قيد ولا
شرط مما يعد انتهاكاً للعهد المقطوعة وخرقاً للحقوق الخاصة والروح
الادبي العام ، فكل تبعة تنجم عن هذا العمل الغريب تقع على عاتق
مسببها ، وأطلب منكم في الختام اتخاذ التدابير اللازمة لسحب
جيوشكم بسرعة .

وأبلغ الملك صورة عن هذه البرقية الى الكولونيل إيستون المعتمد البريطاني
في سورية ولقناصل بقية الدول راجياً تبليغها لحكوماتهم بكل سرعة .
وقد أبلغ الكولونيل كوس الملك جواب الجنرال غورو الذي علل
سبب الزحف بتأخير وصول البرقية التي ارسلها عند استلامه مذكرة
الحكومة السورية المفصلة عن قبول الانذار ، بسبب انقطاع أسلاك البرق ،
وأن مسؤولية قطع العصابات السورية لأسلاك البرق تقع على عاتق سورية ،
حكومة دمشق تحيي الآن ثمر ما زرعه سابقاً ، وأن زحف الجيش
الفرنسي سيستمر الى أن يصل الى مدخل دمشق . وسيأمر الجيش بأن
لا يدخلها اذا لم يجد الجيش الفرنسي مقاومة عند احتلاله محطات السكة
الحديدية بين رياق وحلب ، ومدينة حلب نفسها . وأشار كوس بارسال
معتمد من قبل الملك لمقابلة غورو في عاليه عليه يتمكن من تدارك الأمر .
فأسقط في يد الملك بعد ما تأزمت الأمور الى هذا الحد ، ولم يبق دونه
الا التفكير بانقاذ البلاد من ثورة أهلية بدأت طلائعها بالظهور مساء ٢٠

تموز وعدم اعطاء فرنسا مجالاً للزعم بأنها دخلت العاصمة دمشق برضاء أهلها وبدون اراقة دماء .

فأشار على حكومته بأن تعلن قرارها باستعمال السلاح لوقف العدوان الفرنسي ، واستدعى الشيخ كامل القصاب زعيم اللجنة الوطنية يومئذ وخطبه قائلاً : لقد نزلت أنا وحكومتى على الرغبة التي طالما ناديتكم بها لمقاومة العدوان بالقوة وقبلت قواكم بأن القوى الوطنية مستعدة للاضطلاع بتلك المهمة ، فيها أرنا هممكم وعلى الله التوفيق .

وأسرعت قيادة الدرك والجيش فجمعت فرقة من الجنود الذين كانوا سرحوا ، وارسلت كل ما أمكن جمعه من قوى الى ميسلون للدفاع فيها عن دمشق ، ونادى منادي الجهاد في دمشق ، وانشرح وجه المدينة وعادت اليها حركتها بعد الجلود القاتل الذي كان يخيم عليها ، وقامت المظاهرات الحماسية ، وهربول بعضهم باتجاه ميسلون لصعد العدوان وهم مسلحون بالبنادق أو بالسيوف أو المسدسات أو العصي بدون ميرة وأعتدة . وقد اضطر الكثيرون منهم الى العودة بعد أن تأكدوا من صعوبة ما يرغبون الاقدام عليه لان الحرب في الجبهات العسكرية تحتاج الى جيش مدرب وعتاد وفير ووسائل منظمة .

وقد ذكر الهاشمي في القصر الملكي أن الشيخ كامل القصاب طلب مقابلته في مقر عمله ليطلعه على الجهود العظيمة الذي قام به فدخل عليه وبعد أن قال له انظر الى الشعب المتحمس ، قدم له من طرف جيبه بضع مئات من طلقات البنادق المختلفة الاجناس ، كما انني سلمت بدوري لصديقي عزت دياب ٣٠٠ ذهبة عثمانية وهي كل ما كنت أملك للمساهمة

في شراء عتاد للبنادق ، فشكر الهاشمي القصاب ورجاه الاستمرار في مسعاه الوطني ، وضحك ضحكة كلها ألم وقال : أبمثل هذا العتاد وهؤلاء المتطوعين الذين يظنون الحرب كالمظاهرات والتزهات يمكننا أن نصد الجيش الفرنسي سيما وحرب العصابات تختلف عن الحرب النظامية ؟ . وبعد أن تأكد الملك أن الحالة في دمشق لم تعد تهدد بالثورة التي قد ينتج عنها نهب المدينة وخرابها ، لجأ الى آخر ما يمكن اللجوء اليه ، وقرر وحكومته ارسال مندوب للتفاهم مع الجنرال غورو فأبرق له في اليوم نفسه (٢٢ تموز) قائلا :

« على الرغم من قبول جميع الشروط الواردة في مذكرة ١٤ الجاري وعلى الرغم من زحف الجيش الفرنسي وتقدمه نحو دمشق ورغبة في حقن دماء تسيل بلا طائل أطلب منكم في الدقيقة الاخيرة أن تصدروا أمركم الى الجيش بايقاف أعماله الدخول في محادثات تدور على القاعدة المبنية في برقيتكم المبلغة اليوم ، يسافر اليوم الى طرفكم أحد أعضاء الحكومة ومهمته التعاقد معكم باسمها » .

واجتمع مجلس الوزراء وقرر أن يكون الموفد لمقابلة غورو وزير المعارف ساطع الحصري ، فوافق الملك ، وأرسل مرافقه جميل الاشلي لاستدعاء ساطع لمقابلته قبل سفره ، ولاحظ ساطع ان المرافق لم يعد معه لغرفة الملك حسب الاصول بل تخلف في غرفة الوزراء وقد أعطى الملك لوزير برقيته للجنرال غورو المؤرخة في ١٨/١٩ تموز عن قبول الانذار وجواب الجنرال غورو الذي يشكره فيه ويطلب منه ارسال قبوله الشروط بالتفصيل .

ولما كان مجلس الوزراء لم يطلع بعد على هاتين البرقيتين ، وكان

ذلك من دواعي سرور ساطع الحصري لاعتقاده بأن هاتين البرقيتين تسهلان مهمته كثيراً وتسقطان الحجة التي تدرع بها الفرنسيون للزحف على دمشق . وعندما عاد ساطع رأى الاثني يتكلم باهتمام مع الوزراء الذين كلّفوه بأن يكون معه ضابط سوري بالنظر للظروف القائمة ، فلم يمانع الحصري ، فتقدم منه الدكتور شهنندر ومعه جميل الاثني واقترح عليه أن يستصحب الاثني معه ، فقبل لأن مهمة الضابط الذي سيرافقه ليست الا شكلية وبسبب الحركات العسكرية القائمة ، ولم يذكر اسمه في كتاب اعتماد الوزير المفاوض . ثم غادر ساطع ومعه الكولونيل تولا وجميل الاثني دمشق قاصداً عاليه وأعلمنا ساطع عند عودته انهم صادفوا في الطريق كثيراً من الجنود وقوافل النقلات السورية العائدة من مجدل عنجر مما أوجب توقف السيارة من حين لآخر . وكان الاثني يسأل الجنود عن عددهم وعتادهم ووجهتهم ، الأمر الذي لا يصح ذكره أمام ضابط يعرف العربية من ضباط الجيش المعتدي ، فاضطر ساطع الحصري لاسكاته بكلمات تركية مرات عديدة .

وكان لسان حال ساطع كان يقول بأن ذلك خطأ عظيم ، وقوله ولا شك هو الحق لو ان الافرنسيين ايسوا على علم بحالة جيشنا وعتاده قبلنا نحن ، كما مر ذكره ، الا ان الارتباك السائد لم يسمح لي بالأخذ والرد في هذا الشأن ، مع العلم بأنني متألم جداً من موقفه تجاه فيصل بعد خروجنا من دمشق وهو مرافقه ومن مقربيه .

ولما اقتربت السيارة من وادي القرن ، علموا من الجنود السوريين بأن الجنود الفرنسية وصلوا الى مدخل الوادي مساء ، فصدتهم نيران حاميتنا المتراجمة ، وبعد قليل ظهر مقر الحملة الافرنسية المتجهة لدمشق

في الجديدة ، فنزل الكولونيل تولا وقابل قائد الحملة الجنرال غوايه ،
ثم استصحب ساطع الحصري وقدمه للجنرال ، وابتدر ساطع الجنرال
قائلاً : ان الحكومة السورية قبلت كل شروط الانذار وسرحت الجيش
كما شاهدتم ذلك . والظاهر ان ما نشاهده من تقدم الجيش الفرنسي
نتج عن سوء تفاهم يؤسف له . واتي قاصد مقابلة الجنرال غورو للتفاهم
معه ، فأرجو أن تأمروا بوقف جيشكم حيث هو ، فأجابه الجنرال بأنه
رجل عسكري وليس عليه الا تنفيذ الأوامر . ومع ذلك أستطيع أن
أؤخر الزحف بشرط قبولكم الشروط العسكرية التالية :

« سحب الجيش السوري الى ميسلون على أن تكون للجيش الفرنسي
حرية الحركات في هذه المنطقة . وتقل مؤن وذخائر الجيوش الفرنسية
من رياق الى التكية بدون أن تصادف أي مناعة » .

فقبل ساطع هذين الشرطين لتأخير الزحف على دمشق عله يتفاهم
مع غورو ، وعاد الى سفوح ميسلون وأبلغ الامير زيد ويوسف العظمة
ما اتفق عليه وكانا يعملان فيها لاعداد معدات الدفاع ، فسر ذلك العظمة
اذ انه كان رجاء أن يعطيه اطول وقت ممكن لتنظيم الدفاع وانتظار
وصول المتطوعين الى ميسلون . وعند الفجر وصلت السيارة الى المربجات ،
وكانت في طريقها كميات عظيمة من المقاتلة الحربية . وعندما وصلوا
الى عاليه قابل الجنرال غورو ساطع دون تأخير وبأدبه الحديث باعادة
ذكر الاسباب التي دعت الى اصدار أمره بزحف الجيش ، اذ أن
برقية كوس عن استلامه مذكرة الحكومة السورية التفصيلية بقبول
شروط الانذار وصلته متأخرة نصف ساعة ... نصف ساعة فقط ... !
فسعى ساطع لاقناعه بأن مذكرة الحكومة السورية المفصلة عن قبولها

شروط الانذار وبهذهها فعلا بتطبيق أحكامه سلمت الى ممثل فرنسا قبل الوقت المعين بست ساعات فلم يشأ الجنرال أن يقبل أي حجة منطقية . ثم فاجأه ساطع بقوله ان فيصل أبرق له بتاريخ ١٨/١٩ عن قبول سورية الانذار وانه أجاب شاكراً . ولم يكن للمنطق شأنه وقيمته لدى الجنرال وتمسك بتأخير برقية ممثله نصف ساعة . كما أنه لم يصغ لحجة ساطع بأنه كان عليه اصدار الامر للقوة الافرنسية عند وصول البرقية ، بالتوقف حيث وصلت من سهل البقاع التابع لسورية ، ثم في الجديدة حيث كانت قد وصلت بعد ذلك وفيها كل ما تحتاجه الجيوش من موقع موافق ، كتوفر المياه والمواصلات . بل سلمه مذكرة هذا نصها : انه وان تكن طرق التنفيذ المنصوص عليها في الانذار لم تنفذ خلال المدة المضروبة ، ولما كان الامير قد اتخذ تدابير التنفيذ فالجنرال غورو مستعد لوقف زحف الحملة على دمشق بالشروط الآتية :

- ١ - تصدر حكومة دمشق منشوراً (الحقت مسودته بهذا البيان) يوضح الاسباب التي حملت الجيش الافرنسي على الزحف وعلى التوقف (والبيان يضع كل المسؤوليات على عاتق سورية خلافاً للواقع) .
- ٢ - تستقر الحملة في الاماكن التي بلغتها ، وتحد من الشرق بمسيل التكية وتظل فيها ريثما يتم تنفيذ شروط الانذار كاملة ، تلك الشروط التي قبلها الامير وتخفف تدريجياً بنسبة تنفيذ الشروط .
- ٣ - تظل سكة حديد رياق - التكية في خلال هذه المدة تحت مطلق تصرف الافرنسيين .

- ٤ - تسترجع الحكومة الى دمشق القوات العسكرية الشريفة المرابطة غربي شمالي مسيل التكية وفي المنطقة نفسها ، بما في ذلك قوات الدرك

وذلك رغبة في سلامة الجيش الافرنسي ، ويجعل الدرك الباقي في هذه المنطقة تحت أمر السلطات الافرنسية المحتلة .

٥ - تمتنع حكومة دمشق من الآن عن مد يد المساعدة للعصابات التي تعمل في المنطقة الغربية وخصوصاً عصابة الشيخ صالح العلي .

٦ - ان وقوع الاضطرابات التي نشأت عن أعمال العصابات التي أوصلت الحالة الى هذا الحد وحوادث ٢٠ تموز في دمشق وقد اثبتت خطر تسليح الشعب تسليحاً عاماً . ان هذه الاعتبارات تجعل من الواجب على الجنود المرحلين أن يسلموا أسلحتهم الى المستودع العسكري على أن ينزع سلاح الشعب تدريجياً .

٧ - تقيم في دمشق لدى الحكومة بعثة افرنسية مفوضة تمنح الاختصاصات الآتية :

أ - اختصاصات مؤقتة ، تقوم بمهمة المراقبة على تنفيذ الشروط التي قبلتها الحكومة .

ب - اختصاصات دائمة ، تدرس طريقة تطبيق الانتداب في المنطقة الشرقية ، أي تعاون في تنظيم وفي قيام الوزارات بالخدمات العامة .
توضع هذه البعثة تحت اشراف الكولونيل كوس ، وتؤلف من الفروع الآتية :

فرع عسكري ، فرع مالي للضرائب والمحاسبات العامة ، وأملاك الدولة والمساحة والبريد .

فرع اداري - لأعمال الاسعاف والصحة .

فرع اقتصادي - للزراعة والمناجم والأشغال العامة .

فرع للمدلية والشرطة .

فرع للتعليم العالي .

٨ — في حالة عدم تنفيذ شرط من هذه الشروط أو في حالة الاعتداء على الجيش الافرنسي في أي جهة من الجهات تسترد الحملة حريتها المطلقة في العمل .

ثم طلب الجنرال غورو من ساطع قبول هذه المذكرة والتوقيع عليها ، فاعتذر عن التوقيع قبل استشارة الوزارة والملك سيما وقد لاحظ بأن البند الأخير إن هو إلا حجة لاحتلال دمشق وعدم الاكتفاء باحتلال حلب . فلم يقبل الجنرال اعتذاره وبرغم ما تذرعه به ساطع من الوسائل والحجج لاقناع الجنرال لم تلن قناته . وعندئذ اضطر ساطع لاستمالته بطريق العواطف ، فقال انه لم يطلب منح سورية مهلة جديدة لأن الجنرال غواييه وافق على عقد هدنة تنتهي في صباح ٢٤ تموز . فهل يرغب الجنرال ان يفسخ هذه الهدنة التي وقعها جنرال فرنسي مع العلم بأن هذا مرتبط بشرف فرنسا ؟ واستتلى بكثير من الجمل العاطفية الى أن قبل الجنرال طلب ساطع . وللحال أسرع ساطع ليمتطي السيارة مع رفيقيه حرصاً على الوقت أن لا يضيع . ويقول ساطع : الا أن تولا ما لبث أن دعا جميل لمقابلة الجنرال ، فرجاه بالتركية ألا يطيل المقابلة وألا يبدي أي رأي ، ومع ذلك فقد استمرت المقابلة نصف ساعة ، ثم تسلم ساطع من الجنرال رسالة إلى الملك . ولما امتطوا السيارة للعودة إلى دمشق فوجيء ساطع من قبل تولا بأن الانسب أن تقلبهم السيارة إلى رفاق ، ومنها يستقلون القطار الى دمشق ، فكان هذا ايذاناً بتأخير الانذار الجديد عن الوصول في الوقت المناسب ، فيبدأ الافرنسيون حركاتهم العسكرية لاحتلال دمشق ، ولكن ساطع اعترض على هذا التدبير بشدة

على غير جدوى ، وبعد أن تحقق عملياً بأن القطار لن يصل لدمشق إلا متأخراً قبل تولا أن يواصلوا سفرهم على سيارة من المعسكر الافرنسي بعد أن بارحتهم السيارة التي أفلتهم لرياق ، فوصلوا دمشق ليلاً وقصد ساطع لتوجه إلى القصر الملكي حيث أطلع الملك على ماتم ، وسلمه شروط الجنرال غورو الجديدة والكتاب الخاص الذي يطلب فيه ابعاد الوطنيين المتطرفين من حوله ليتمكن من أن يطبق على سورية الانتداب الذي قبلته فرنسا بتكليف من جمعية الاثم ، والانتداب الذي يفيد سورية ولا يتعارض واستقلالها . وبعد أن اطلع الملك على الانذار والرسالة أمر أن يجتمع مجلس الوزراء في صباح اليوم التالي في قصره ، وكان هذا اليوم آخر يوم من أيام الهدنة الجديدة التي تنهي في منتصف ايل ٢٣ تموز ، وقص ساطع على الوزراء حقيقة الموقف جازماً بأن الجنرال لا يتحلل عن احتلال دمشق . وكان من الظاهر أنهم لا يشاطرونه رأيه كما أن الملك نفسه بدأ يشك في ذلك بسبب موقف وزرائه ورسالة الجنرال غورو الشفهية التي رفعها اليه بعد مقابلته لجيل الاشبي والتي يظهر منها كثير من الاغراء ، ويستثم منها اعتماده على الملك مامحاً بأن سبب الاختلاف هو وجود الوطنيين المتطرفين من حوله .

لكن هذا التفاؤل لم يدم طويلاً إذ أن الكولونيل كوس زار القصر والمجلس مجتمع ، وقدم برقية جديدة من الجنرال غورو يطلب فيها تقدم الجيش الفرنسي إلى ميسلون لضرورات عسكرية زيادة على الشروط المرسله مع ساطع . فاستوثق الوزراء عندئذ بأن ما يرمي اليه الجنرال هو احتلال دمشق بعد أن كانوا جميعاً بدون استثناء مالوا الى قبول الانذار الأخير .

وتغير الموقف فلم يعد مجال لقبول الشروط الجديدة ، ولذا طيرت
للحال برقيات الاستغاثة لكافة الدول ، وطلب من ساطع الاجتماع بقنصل
الدول في مقر عميدهم ممثل ايطاليا ولو ان ذلك من خصائص وزير
الخارجية ، فشرح لهم ساطع ما انتهت اليه الحالة المؤلمة . أما الماركيز
دوبارينو فكان يظهر العطف على قضيتنا . واما قنصل الولايات المتحدة
فقد أجاب بأن حكومته قد رفضت يدها من السياسة الاوربية . ومن
الغريب جداً أن لا يتحمس قنصل ايران فيعطف على قضيتنا حتى ولو
بالتزام الصمت ، وعاد ساطع على الاثر يعرض على الملك ما قام به .
وفي تلك الاثناء دخل الشيخ كامل القصاب على الملك وخطبه بامان
واعتماد على النفس قائلاً : اما وانك قررت الدفاع فاتي اعدك بتجنيد
عشرة آلاف متسلحين بالبنادق حتى هذا المساء . ولكنه لم يف بوعده
ولم يتمكن من تحقيق شيء ، وفي مساء ٢٣ تموز عاد الكولونيل كوس
طالباً جواب الحكومة على الانذار وقد أعد نص برقيتين احدهما بالقبول
والثانية بالرفض ، وكانت عباراتها جافة ، فلم يوافق مجلس الوزراء
الذي كان منعقداً برئاسة الملك وأقر الرد التالي :

« نحن نأبى الحرب ، بيد ان قبولنا لمذكرتك الاخيرة يعرضنا
لحرب اهلية ، ويجعلني انا وكل عضو من اعضاء الحكومة عرضة للتهلكة .
نحن على استعداد لتنفيذ انذار ١٤ تموز بكامله . وقد نفذنا حتى الآن
اربعة بنود من بنوده ، ونتعهد بشرفنا بأن ننفذه باخلاص اذا ما جلا
الجيش الفرنسي عن الاماكن الجديدة التي احتلها » .

فلم يرد الجنرال على هذه البرقية إذ انه كان مصمماً على متابعة
الزحف الى دمشق .

ولما كان ياسين الهاشمي قد اختلف مع العظمة فقد سلم القيادة في
ميسلون الى الاميرالاي تحسين الفقير وشريف الحجار ، فأسرت قاصداً
ميسلون لأطعمن على الموقف فيها . فلم آنس ما يشجني إذ لم يكن هناك
إلا عدد لا يزيد على الالف من المتطوعين مسلحين بأسلحة مختلفة ينقصها
العتاد ، وجيش قليل العدد لا يملك من الذخيرة الحربية إلا اليسير ،
لكن تحسين الفقير شجني وقال لي ان مواقعنا منيعة وسنرد الغازين على
اعقابهم ان شاء الله . وفي اليوم نفسه ، في يوم الجمعة ٢٣ تموز ، نشرت
القيادة السورية البلاغات الرسمية الثلاثة الآتية :

١ — حالما اعلن الدفاع عن البلاد وقفت قواتنا التي كانت راجعة
من مجدل عنجر غربي خان ميسلون فتعرضت لها القوات الافرنية
المتقدمة ، وفي طلعتها خمس دبابات فوقعت مصادمة بين مدفيعتنا والدبابات
خبطت مدفيعتنا ثلاثاً منها واكهرت الدبابتين الباقيتين على التقهقر سريعاً .
وكان قطار عسكري سائراً من رياق الى جهة حمص ، فاقفلت
قواتنا الوطنية الخط الحديدي قرب القصير ، وتدهور القطار ، فانفجر
ما فيه من المواد الحربية ولم يرد علم عما أصاب الموجودين في القطار
من التدهور والانفجار .

وكانت دورياتنا في بعلبك سائرة للمحافظة على الأمن فتعرضت لها
قوة افرنية ، وبعد مصادمة انهزم الافرنيون تاركين مركبة وسبعة
قتلى وثلاثة جرحى .

وحامت طيارة فوق مواقعنا فأكهرتها مدفيعتنا على الانسحاب سريعاً
نحو الغرب .

وزحفت قوة نظامية افرنسية مؤلفة من كتيبتين الى يحفوا فقابلها
الوطنيون وردوها الى رفاق بعد ما كبدها خسائر فادحة .

٢ - كل من كان عنده شيء من التجهيزات العسكرية كالألبسة
والاحذية والخبيم الصغيرة والكبيرة وما أشبه ذلك ، فالقيادة العامة
ترجوه أن يتبرع بها للجيش الذي يدافع عن الوطن ، ويذب عن الاعراض
ويسلمها الى اللجنة الوطنية وفروعها لمدة ثلاثة أيام ، وبأخذ مقابل ذلك
وصلاً ، وبعد مضي هذه المدة اذا وجد شيء منها عند احد يصادر منه .

٣ - من يود أن يتبرع للجيش بشيء آخر ينفع الجيش في هذا
الوقت الخطير كألبسة وقمصان وأحذية وأقمشة الى غير ذلك من لوازم
الجيش فالمرجو منه أن يراجع الغرفة الثالثة الميرة وفي الملحقات قائمقام
القضاء ويقدم ما يريد تبرعه وبأخذ وصلاً بذلك .

٤ - نرجو من حمية الاهالي ، المتهافتين على التجنيد ، الا يتسارعوا
الى المحطات طالبين سوقهم ، اذا كانوا بدون سلاح ، لأنه قد أصبح
في الجيش الوف من الذين تهافتوا اليها بدون سلاح ، وخير ما يفعلونه
ان يراجعوا دار التعليم في الثكنة العسكرية .

« القيادة العامة »

ولدى عودتي الى القصر شاهدت يوسف العظمة هناك ، فقال لي
بأنه آت من مقابلة ساطع ، وأنه اودع ابنته الوحيدة أمانة في عنقه
وعنقنا نحن أصدقاءه . ثم دخل على الملك يصحبه مرافقه ياسين الجابي
الذي اخبرني بأن الوزير لا يجد فائدة من الدفاع ، فأدخل معه وابدل
قصارى الجهد لتنفيذ رغبة الائمة في الدفاع . فدخلنا معاً وسلم على الملك

سلاماً عسكرياً وقال : أتيت لالتقي أوامر جلالكم ، فأجابه الملك : بارك الله فيك ، اذن انت مسافر لميسلون ؟

— نعم يا مولاي اذا كنتم لا تودون قبول الانذار الاخير .
— ولماذا كنت تصر على الدفاع بشدة ؟
— لأنني لم اكن اعتقد بأن الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع الحقوق الدولية والانسانية ويقدمون على احتلال دمشق ، وكنت اظاهر بمناورة المقابلة بالمثل .

— فأجابه فيصل : وهل يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم

— اذن فهل يأذني جلالة الملك بأن أموت ؟
— بعد ان انتهت الامور الى هذا الحد يجب علينا ان نموت جميعاً شرفاء ، وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً .
— اذن فانا أترك ابنتي الوحيدة أمانة لدى جلالكم .

ثم سلم وخرج ليتولى قيادة الجبهة في ميسلون .
وقد خصص فيصل مبلغ عشرين جنيهاً استرلينياً شهرياً لابنة الشهيد يوسف العظمة تقديراً لتضحية أبيها بنفسه ، وكانت تصلها بانتظام .
وفي صباح اليوم التالي الباكر الموافق ليوم السبت ٢٤ تموز ، أطلقت المدفعية الفرنسية نيرانها بشدة على المواقع السورية ، وتقدمت الدبابات ، ثم قامت المشاة بالهجوم ، وكان معظم الجيش من الجزائريين والافريقيين والمغاربة ، فنفدت أعتدة المدافع السورية التي كانت تحجب على المدافع الفرنسية ببطء بسبب قلة عدد قنابلها ، فسهل عندئذ على المشاة التقدم بحماية مدفعيتهم ودباباتهم ، ولم يعد للسوريين نجاة الا

بالتراجع لكن العظمة أبي الا أن يثبت المقاومة ، واقفاً يشرف على العمليات العسكرية ويده منظاره ، الى أن استشهد ، وتراجعت عندئذ القوى السورية بعد أن صمدت نحو ثلاث ساعات . وقد أنحى الكثيرون على الحكومة السورية باللائمة لاسراعها بتسريح الجيش تنفيذاً لمطالب الجنرال غورو ، لكن الموقف كان يستلزم ذلك ، كما أن النتيجة لا يمكن أن تنتهي إلى غير ما انتهت اليه ، وأكثر السوريين لم يكن يعتقد امكان مخالفة الاتفاقيات المعقودة بتلك السهولة اذا تجنبنا الصدام المسلح ، كما ان الارستقراطيين والحزب الذي شكلوه ، كانوا من أنصار التفاهم مع فرنسا ، وإذا أضفنا إلى هذه العوامل كلها ان قلة الاعتدة لم تكن تسمح بالاقدام على المقاومة في جهات محدودة يكون القتال فيها وفق القواعد والاصول الحربية ، خلافاً لحرب العصابات التي تعتمد على الكر والفر وسرعة التنقل والمفاجأة ، ان هذا الوضع المؤلم لا يجعل حجة اللامعين قوية .

وفي صباح ذلك اليوم المشؤوم قصد جلالة الملك قرية الهامة مترقباً أخبار المعركة ، كما انه أمر أخا، الأمير زيد بالتوجه إلى الجهة ، للاشتراك بواجب الدفاع عن الوطن فرافقته بالسيارة ، وقد شاهدنا في سهل الديماس الطيارات الفرنسية تقذف بقنابلها قوافل المؤن وسيارات الاسعاف التي كانت شارارات الهلال الأحمر ظاهرة عليها خلافاً للقواعد الدولية والانسانية ، وهنا نزل الأمير من السيارة وأمرني بالنزول أيضاً مخافة من أن نكون عرضة للهجوم ، وصوب نيران بندقيته على الطائرة التي كانت تطير على ارتفاع منخفض فابتعدت عنا ، وقبل أن نواصل السير مر بنا متجهاً لدمشق سائق سيارة يوسف العظمة ، والسيارة

فارغة ، فاستوقفناه وعلمنا منه خبر استشهاد الوزير ، وانهيار جبهة المقاومة ، وتراجع المتطوعين مسرعين لدمشق ، فامتنع علينا الاستمرار بالتقدم فعدنا قافلين الى الهامة لعرض حقيقة الموقف على الملك . وبعد أن انتظر قليلاً ، وشاهد بألم عينه قوى الدفاع السورية الراكبة تعود بسرعة وعلى غير انتظام ، أمر بالذهاب لمنزل الأمير زيد عن طريق المزة ، ولم أر من الكرامة مرافقة الملك ، فرجحت مواصلة التقدم باتجاه ميسلون مؤثراً الموت على ما استشعرت من ذل واهانة ، متحدياً كل ملاحظات ومحاذات الملك القبيحة عن ذلك ، إلا أن جلالاته بعد أن ابتعد قليلاً عن الهامة أوقف سيارته يسأل عني وعن تخافي ، وأرسل سيارة خاصة أقلتني اليه لآكون في معيته .

وعند وصولنا الى منزل الأمير زيد قابله نسيب البكري ، وطلب منه أن يعهد اليه بادارة شؤون المدينة ، فلم يمانع في ذلك ، إلا أننا عرضنا لجلالاته بأن حكومته لم تزل قائمة ويستحسن أن يستمر العمل وفقاً لما كان متبعاً بتحمل الحكومة عبء السلطات كلها . فعدل عن ذلك وأمرني بالذهاب إلى المدينة لابلاغ الوزراء حقيقة الموقف وكذلك رئيس البلدية ، لاتخاذ ما يلزم لتأمين سير النظام والأمن ، وعند وصولي إلى مدخل السراي رأيت مظاهرة عظيمة تهتف هتافات وطنية مشيرة ، ويتقدمها بعض المشايخ وعلى رأسهم الشيخ تاج الحسيني الذي تقدم مني مستوضحاً ، فبينت له حقيقة الواقع . وهكذا لم تمر بضعة دقائق إلا وانصرف الجميع ولم يبق للمظاهرة أثر . ودلفت الى السراي حيث أبلغت الوزارة رسالة الملك ، وأنه سيتحول للحال من بيت الأمير زيد إلى الكسوة ، وهو يطلب من أعضاء الوزارة الالتحاق به اليها . وقد أعد

قطار خاص لانتقالهم وليكون مقراً مؤقتاً للحكومة . ومرت بطريق الى القصر أمام مقر المعتمد الفرنسي ، فاستدعاني المعتمد بعد أن علم بمروري الى مقره ، وقال لي بلغ جلالة الملك أن لا يبتعد عن دمشق كثيراً ليسهل علينا الاتصال به . وفي عودتي رأيت ياسين الهاشمي قائد موقع دمشق وهو يعترض سير المدافع العائدة من ميسلون بعد أن نفذت ذخيرتها والتي كانت في اسراعها لا تستهدف وجهة معينة ، وبأمرها بالدخول الى ثكنة المدفعية الكائنة على طريق بيروت العام ، وكذا كل ما يمر به من وسائل النقلات العسكرية . ثم عدت الى الملك ورفعت اليه تنفيذ أوامره ورسالة كوس ثم اتجهنا الى الكسوة بالسيارات بعد أن عين الملك نوري السعيد قائداً لموقع دمشق ، وكلفه الاتصال بالكولونيل كوس لمعرفة نوايا الافرنسيين أيضاً . وقررت الوزارة نشر بيان تعلن فيه أن الحكومة خرجت من العاصمة لمواصلة الدفاع عن استقلال البلاد وحقوقها .

وبعد سقوط جبهة الدفاع عن دمشق غادرها لحيفا بعد الظهر كل الوطنيين : سعد الله الجابري والدكتور عبد الرحمن الشهبندر وحميل مردم وسعيد حيدر وخير الدين الزركلي وعثمان قاسم وخالد الحكيم وعمر شاكر وتوفيق اليازجي ويوسف ياسين وبهجة الشهابي وسليم عبد الرحمن ومعين الماضي ورفيق التميمي وعزت دروزه وعبد القادر سكر وغيرهم بأحد القطارين الذين كانا معدين لنقل الحكومة لدرعا ، كما كان قد غادرها أيضاً شكري القوتلي والشيخ كامل القصاب ونبه العظمة ورياض الصلح ومحمود الفاعور وفؤاد سليم وعوني القضايني وياسين دياب وشكري الطباع ومحمد علي التميمي ورشيد طليع والشيخ عيد الحلبي ممن أعرفهم . ولم

يسرع رئيس المؤتمر السوري الشيخ رشيد رضا بمغادرة دمشق لاعتقاده بأن التجاوز بالقوة على حقوق البلاد لا يمكن الا أن يحرك ضمير العالم المتعدن . وقد تخلف وزير المالية فارس الخوري في دمشق في آخر لحظة بعد ان أرسل حقيته الى القطار المعد لنقل أعضاء الحكومة الى الكسوة ثم الى درعا ، كما ان وزير الداخلية علاء الدين الدروبي الضليع مع الحزب الذي يقول بالتفاهم مع الافرنسيين لم يوافق على مرافقة زملائه الوزراء ولم ينشر بيان الحكومة الذي كان قد عهد اليه نشره قبل مغادرتها دمشق . وقد تجمعت الدلائل على انه كان متفاهماً مع الافرنسيين وبذلك لم يعد في الامكان انسحاب الحكومة لدرعا وتنفيذ خطة الملك بتأسيس خط دفاع ثان فيها .

وفي المساء عقد مجلس الوزراء اجتماعاً برئاسة الملك ، وكان قلقاً كل القلق على مصير البلاد . وقد تجنب ابداء الرأي في المجلس والتكلم في أي موضوع حتى لا يؤثر في المجتمعين ، وكان الرأي السائد بأن الفرنسيين ليسوا حسني النية تجاه الحكم الوطني رغم ما يظهر من تفاؤل الكولونيل كوس والكولونيل تولا .

وفي مساء ٢٥ منه وردت برقية من نوري السعيد بواسطة خط برق سكة حديد الحجاز لمخطة الكسوة ، موجهة لرئيس الوزراء تشير الى حصول اتفاق مؤقت ، وبقاء الحكومة القائمة على أن تعد ما حصل ضد رغائبها السامية ، وتنتشر بلاشاً بذلك . ويقيم الفرنسيون في المزة لمدة مؤقتة ، ولا يتدخلون بغير تنفيذ المواد الاولية المعلومة . أما الجنود النظامية القديمة فتبقى في القدم بعد أن تحول الى قوى الدرك ، ويبقى الدرك والشرطة داخل المدينة للحفاظ على النظام ، وان وجود جلالاته

على مقربة من دمشق ضروري . أنتظر توكيلاً تحريراً للمفاوضات السياسية . منع التجول بعد الساعة الثامنة ليلاً . البلد هادئة تماماً لا تفتكروا .

وكان مضمون هذه البرقية يؤيد ما أفادني به مندوب فرنسا الكولونيل كوس . والظاهر أن البرقية كانت خلاصة محادثة جرت بين نوري السعيد والكولونيل المذكور . فتفاءل بعضهم خيراً بها ، لكنني كنت اعتقد أبداً باستحالة تعاوننا مع الفرنسيين بصورة تضمن لنا الحياة الحرة وتصور كرامتنا ، فلم أعرها أي اهتمام ، كما أن ساطع كان على يقين أن نية الفرنسيين سيئة تلقاء الحكم الوطني والملك ، وإن ما يبدونه من الظواهر البراقة إن هو إلا خداع موقت لارجوة لنا من ورائه . وقد تقدم الجيش الفرنسي ، بعد انكسار الجبهة الوطنية ، نحو المزة فوصلها عند المساء . وزار نوري السعيد مستعيناً بحميل الاشبي الذي لم يغادر دمشق مع الملك مع انه مرافقه ، قائد الحملة في المزة ، واستوضح القائد منها عن الوضع ، فأجابه بأن ليس ثمة أية فكرة ترمي الى المقاومة والكيد للجيش الفرنسي ، وإن له من الحرية ما يجعله يقوم بأي تدبير على ما يشاء في اطمئنان .

وفي عصارى اليوم التالي تحرك الجيش الفرنسي داخلاً دمشق وأسرع فاحتل مكنتاتها . وكان السكان والهين آلمين ، ينظرون الى ما يتعاقب على ناظرهم وكأن على رؤوسهم الطير . وورد على الملك في صباح اليوم الذي قضيناه في الكسوة من الاخبار ما يؤيد ما جاء في برقية نوري السعيد من تفاؤل . فقررت الحكومة أن تستقيل وأن يعهد الى وزير الداخلية علاء الدين الدروبي وهو الذي أعلنت الحقيقة بحسن علاقاته مع الفرنسيين

بتشكيل وزارة يرضى عنها الفرنسيون عساها تتمكن من حل المشكلة القائمة ، وايكون من هذا التدبير ما يحول دون المفرضين باتهام الحكومة انها سلكت مسلك الرعونة ولم تسلك سياسة التروي .

والحال أوفد الملك كبير الاثماء احسان الجابري للاضطلاع بهذه المهمة ، وهو في هذا العمل انما يقدم في الحقيقة على آخر تضحية ، ويطلق آخرسهم من كنانته صبراً واحتمالاً . وكان أن ألف الدروي الوزارة لتوه ، من جميل الاثني للحرية ، وعطا الايوني الداخلية ، وعبد الرحمن اليوسف لرئاسة مجلس الشورى ، وبدع المؤيد المعارف ، وهم المعروفون بالاعتدال ولا ينزعون الى مقاومة الافرنسيين ومنازعتهم بالقوة ، واحتفظ فارس الخوري بوزارة المالية التي كان يشغلها ، وكذلك احتفظ جلال الدين بوزارة العدلية ويوسف الحكيم بوزارة الزراعة . ثم باشرت الوزارة أعمالها .

وحدث ان اجتمع احسان الجابري وهو في دمشق بممثل ايطاليا . فلم منه ان الفرنسيين سيعلمون انتهاء العهد الوطني وملكية فيصل ، وقد كلفوا القائلين بالتعاون معهم بتقديم عريضة يدعمون بها قرارهم ، وان بعض هؤلاء انما اعلن بأن بيعه الملك فيصل قد انحلت بعد الفرار من عاصمة ملكه .

واوصى الماركيز دوباترنو قنصل ايطاليا العام بأن يعود الملك الى دمشق ليحبط هذه المؤامرة ، وايكون اخراجه من قبل الفرنسيين بالقوة ، فاستصوب فيصل هذا الاقتراح بعد بحثه مع الموجودين معه . وهكذا عدنا ادراجنا بالقطار من الكسوة الى دمشق ، وحل الملك في قصره ، بيد أن الوزارة الجديدة لم تنهض بأي عمل ايجابي تحقيقاً

لما كان ينتظره الملك منها ، ولبت الى أن طلب الجنرال غوايه قائد
الجملة التي احتلت دمشق ، أن يجتمع بأعضائها ، وفي الاجتماع أبلغهم
مايلي : ان الامير فيصل جر البلاد الى شفا الهلاك وانه مسؤول
مسؤولية كبرى عن كل ما حدث من اضطرابات دموية في سورية في
الاشهر الاخيرة . لذلك لم يعد من الممكن استمراره في حكم البلاد .
ثم أمر بأن تدفع سورية عشرة ملايين فرنك تعويضاً عن الخراب الذي
سببته في المنطقة الغربية ، ونزع سلاح الجيش السوري وتسليمه للجيش
المحتل ، ثم تسليم كبار المجرمين ليحاكموا أمام المحاكم العسكرية ، هذا
مع نزع سلاح الاهالي بتقديم عشرة آلاف بندقية ، فنفذت الوزارة
الأمر . وحدث مثل ذلك في المدن السورية الكبرى الاخرى .

وعندما بلغ الملك فيصل مضمون هذه المطالب ، أرسل الى الجنرال
غورو في ٢٧ تموز برقية احتجاج هذا نصها :

أحتج على التصريح الذي صرح به قائد حملتكم الى حكومتي بتاريخ
أمس ، وأتصل من كل تبعة أردتم أن تحملوني اياها ، واعتبر جميع
المسكبات التي تدور بينكم وبين حكومتي ، أو التعليلات التي تصدرونها
اليها مباشرة وبدون علمي ، ملغاة وغير مشروعة أمام جمعية الأمم .

كما انه أرسل في اليوم نفسه برقية مفصلة الى اللورد كرزون
يحتج فيها على تصرف الفرنسيين في دمشق ، ومثلها لكافة الدول راجياً
تدخلها لاحقاق الحق .

وكان رد الفعل الذي أحدثه احتجاج الملك أن سلم الكولونيل تولا
الملك في مساء اليوم نفسه أي في ٢٧ تموز الكتاب الآتي :

أنصرف بأبلاغ سموكم الملكي قرار حكومة الجمهورية الفرنسية بأنها

ترجو منكم ان تغادروا دمشق بأسرع ما استطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غداً في ٢٨ تموز في الساعة الخامسة صباحاً . فرد الملك على هذا الكتاب حالاً ببرقية احتجاج للجنرال غورو هذا نصها :

ابلغني الكولونيل تولا بكتاب مؤرخ في ٢٧ الجاري قرار الحكومة الفرنسية بدعوتي الى مغادرة دمشق ، بقطار خاص في الساعة الخامسة من صباح غد ، في الشرف ان اصرح لكم انني لا اعترف للحكومة الفرنسية بحق نزع الاختصاص الذي منحني اياه مؤتمر الصلح رسمياً لادارة المنطقة الشرقية حين احتلال سورية وتقسيمها الى ثلاث مناطق ثم تأيد عملياً بتاريخ ١٥ ايلول سنة ١٩١٥ بالمذكرة التي قدمها المستر لويد جورج الى كلنصو وإلي .

وما أنا بمتعترف للحكومة الفرنسية بأي صفة في نزع اللقب الذي لقبني به الشعب السوري ، والقوة وحدها هي التي تستطيع نزعها ، ولكنكم تعلمون انه لا عمل لها في الحقوق الخاصة .

وغني عن البيان ، ان دخول جيوشكم الى دمشق بعد معركة قصيرة مع الشعب السوري واحتلال دور المصالح العامة عسكرياً هو خرق لمقررات مؤتمر السلام ، وبالاخص لمبادئ جامعة الامم التي الفت الحرب ووضعت قواعد لحل الخلافات بطريق التحكيم الدولي .

وكذلك فان احتلالكم عصمة البلاد عمل خطير الشأن ، وغير عادل لانه وقع بعد تسريح الجيوش السورية طبقاً لاندازكم المؤرخ ١٤ الجاري وقد قبلته بكامله ، ذلك القبول الذي أظهرتم ارتياحكم اليه في

كتابكم يوم ٢٠ الجاري واقتموني شاهداً لعطفكم على الشعب السوري .
نعم انكم طلبتم في الفقرة الثانية من ذلك الكتاب تأكيداً مفصلاً
لقبول شروطكم لا جواباً بالقبول ، لأن هذا كان في يديكم ، على أن
تأخير وصول هذا التأكيد المفصل وقد سلمته الى معتمدكم الكولونيل
كوس قبل انقضاء الموعد بست ساعات لا يسوغ لكم سوق جيوشكم
الى دمشق خصوصاً وقد أبلغتكم قبل انقضاء الموعد المضروب بالإنذار
بأنتي عشرة ساعة ، انني بدأت بتنفيذ شروطكم بحمد وفي مقدمتها
تسريح الجيش السوري .

واقصد استخرجتم من هذه الحالة ، وهي تثبت ما عانيت به بسبب قبول
الإنذار حجة للزحف على بلادتي فاستقبل عدد من الجند ، اقيم لحفظ
الامن والنظام جيشكم كحليف فلم يحمل هذا دون اعتقال ضباطكم
لهؤلاء كأسرى حرب ، مع ان حالة الحرب غير موجودة .

واذكركم أيضاً بالكتاب الذي ارسلتموه الي مع وزير المعارف ،
مندوبني لديكم وما انطوى عليه فقد اعترقتم بأنتي غير مسؤول عن تأخير
وصول البرقية المفصلة ، وقد اشير اليها آنفاً ، وفي نفس الوقت الذي
اعترقتم فيه هذا الاعتراف ، فرضتم علينا شروطاً قاسية ، جديدة يستحيل
علي حمل شعبي على قبولها فوضعتوني بذلك بين أمرين كلاهما مخطر
ومخيف ، فاما قبول شروطكم الجديدة وفي ذلك الثورة على جيشي وحكومي
فتتذرعون بها للتدخل واحتلال دمشق ، واما الرفض وفي هذه الحالة
تزحف الالوف المؤلفة من جيوشكم المسلحة بجميع أدوات التدمير الحديثة
وتنتصر على شعب حمل على أن يكون ضدها ، وتدخل دمشق وقد
وقع الشق الثاني .

ولو كانت الشعوب تعيش اليوم كما كانت تعيش في القرون الوسطى ،
يوم كان الحق للقوة وكان السيف هو الحكم في الاختلافات لكان
تصرفكم منطبقاً على القوانين القائمة ، ولكن الحرب العظمى وقد خضنا
غمورها في جانب الحلفاء لنفوز باستقلالنا قد بلغت غايتها باقرار مبدأ
الحق وسحقت الروح العسكري ، واذا كانت مبادئ مؤتمر الصلح
التي اعلنت حرية الشعوب وحقوقها في أن تحكم نفسها بنفسها ، ليست
لغواً من القول ، واذا ظل عهد جامعة الامم وقد وقع عليه الحلفاء
والاعداء وهو يلغي الحرب بين الشعوب واستعباد الامم باقياً ومحترماً ،
فالقوة العسكرية الافرنسية التي احتلت المنطقة الشرقية التي عهد الي
بادارتها انما تمثل الاحتلال الذي لا يمكن الا أن يعد اداة للارهاق ويجب
أن يغير كذلك .

وختاماً فان تصرفاتكم تخالف اتفاق سايكس - بيكو وقد وقعت
عليها الحكومتان الافرنسية والانكليزية سنة ١٩١٦ والاتفاقات المعقودة
في أواخر سنة ١٩١٥ بين الحكومة الانكليزية من جهة وجلالة والذي
ملك الحجاز من جهة اخرى والمادة ٢٢ من عهد جامعة الامم وقرارات
مؤتمر سان ريمو والتعهدات التي تعهدت بها الحكومة البريطانية ونص
معاهدة الصلح المعروضة على تركيا ، والاتفاقات المعقودة بين المسيو
كلنصو رئيس الوزارة الافرنسية السابق وبينني وتخالف في النهاية القوانين
العامة ومبادئ الاخلاق الدولية . « فيصل »

وقد سلم نص الاحتجاج الى جميع قناصل الدول في دمشق . الا
انه لم يكن بد من تنفيذ حكم القوة الجائر ومغادرة دمشق ، فزار
الفصر الملكي ليلة السفر عدد من الوطنيين من علية القوم ومن الشباب

الواعي . وذكر الملك أثناء حديثه معهم أن ليس من شيمته أن يعمل
ما عمله الخديوي توفيق ، فيتفق مع الفرنسيين ويستعين بهم على كبح
جماح مواطنيه ثم قال بأنني عندما عاينت الخطر بأم عيني ، وأشرت
بضرورة اتباع سياسة الاعتدال والحكمة ، لم يستمع إلي أحد ، وذهب
رأبي أدراج الرياح . ولكن لا بأس فقد يجعل الله بعد عسر يسراً .

وكننت بعد ظهر ٢٧ تموز في دار ابن عمي خليل مردم واذا
بأحد أصدقائي يخبرني بأنه شاهد أوراقاً رسمية في سراي الحكومة
وقد تضمنت الحكم باعدامي ونجبة من زملائي الوطنيين من قبل المحكمة
العسكرية الفرنسية ، فلم يسترع ذلك اهتمامي بعد أن انهارت آمالنا جميعاً ،
وذهبت كل مساعينا أدراج الرياح بفعل السياسة الدولية الفاشمة . وبقيت
انتظر حكم القدر وأمي وطيد بوطنية الشعب . وقد أبلغني الملك قبيل
منتصف الليل ، أن أكون في محطة الحجاز عند الساعة الخامسة من
صباح الغد الموافق ٢٨ تموز فصعدت بالأمر ، ولم يعترض سبيلي أحد .
ومن غرائب المصادفات أن يشب حريق هائل في هاتيك الليلة في
دار سامي باشا مردم قرب سوق الحميدية ، فزاد في الكآبة المخيمة على
المدينة ، الجائحة على الصدور . وكأني بالسما كانت تشاركنا في الآلام
فتبدت حمراء لاهبة كأن فيها قطعاً من النيران المتأرززة والحمم الغاضبة .
ولم يكن في وداع الملك إلا فئة قليلة من الوطنيين . لم يصطحبه
في القطار من وزرائه غير ساطع الحصري وسكرتيه انخاص عبد الهادي
ومن السوريين كبير امنائه احسان الجباري ومرافقه العسكري تحسين
قصري وكاتب هذه المذكرات .

وتحرك القطار من محطة الحجاز في الساعة الخامسة من صباح
٢٨ تموز سنة ١٩٢٠ قاصداً حيفا . وعند وصولنا الى درعا أمر الملك
بأن يتوقف فيها قليلاً . والغريب ان لا يتعرف على ملك البلاد ، أحد
من رجالها الرسميين . وقد اتخذ الملك ومعيته من القطار الذي أقلمهم
الى درعا مقراً ومسكناً . وسرعان ما انتشر الخبر بين سكان حوران .
فأحدث في حوران رجة كبيرة أقبل على أثرها شيوخه وزعماءه متوافدين
للترحيب بالملك ، وقد تجمعت هناك متطوعة العقيل النظامية وفقاً للخطّة
التي كانت وضعت بعد ان أبلوا بلاءً حسناً في مقاومة الجيش الفرنسي
ولم يمكنوه من دخول وادي بردى للالتقاء بالقوى الفرنسية التي سلكت
الطريق العام فضحوا محتسبين شهداء كثيرين الى ان اضطروا الانسحاب ،
وقد أكرمهم الملك فوزع عليهم ما كان قد تبقى في حوزته ، وهو
يقرب من سبعة آلاف جنيه لا يملك بعدها ما يستحق الذكر .

ولما كانت درعا مقراً لفرقة عسكرية بقيادة اسماعيل الصفار البغدادي ،
فقد أمرها وزير الدفاع في حكومة دمشق جميل الأشي ، بأن تفتح
عيونها بقظة ساهرة كيما تحول دون أي مساعدة قد تقدم للملك ، ومع
ذلك ، فقد احوج البنزين ثلاث سيارات ملكية ولم يكن متوفراً الا
في مستودعات الجيش ، فاعتذر قائد الفرقة رسمياً عن اجابة الطلب في
تقديم البنزين المطلوب ، إلا انه من جهة ثانية أشار بصورة خاصة إلى
أن اقوى التي تحت امرته ان تقاوم من يتظاهر بأخذ البنزين عنوة
لسيارات الملك ، وهكذا كان .

والواقع ان معظم الزعماء الذين قابلوا الملك في درعا قد أظهروا
استعدادهم لتأييده على ان يكون وبريطانيا على اتفاق بحيث لا يقفون مع

الفرنسيين وجهاً لوجه من غير عون من الخارج . وقد أثر في الملك هذا التردد من الحورانيين وتمنعهم عن تأسيس خط دفاع في بلادهم قبل الحصول على تأييد صريح من انكلترا واصبح يحزم بعدم امكان القيام بأية مقاومة ، هذا وان السلطة الفرنسية بدمشق قد اوعزت الى رئيس الوزراء علاء الدين الدروبي وهو الرئيس الذي كان قد عين بمرسوم من فيصل ، بأن يبرق الى الملك حالاً بضرورة مواصلة سفره الى الحجاز ، فلم يتردد في ان يرسل الى متصرف حوران ، برقية مستعجلة يطلب تبليغها للملك حالاً والاجابة عليها .

وقد ورد في البرقية ان السلطة الفرنسية ابلفت رئيس الوزراء ان يضع قطاراً تحت امر جلالاته للسفر الى الحجاز بطريق معان او حيفا ، بلا توقف في درعا ، فأسترحم من جلالتكم حفظاً لبلاد حوران من المصائب والخراب تعجيل حركة جلالتكم مولاي . هذا وان طائرة فرنسية حلقت فوق درعا والقت منشورات تطلب فيها من الاهلين اخراج الملك فيصل من البلاد ، وهذا نصها :

من الجنرال قائد الحملة الفرنسية الى اهالي درعا وضواحيها .
« ان الامير فيصلاً كان قد تلقى امراً بأن يترك دمشق ويسافر رأساً الى بلاده وتعمد تنفيذ الامر ، اما وقد بلغنا على العكس مما تعهد به انه بقي في درعا وشرع في مخادعة الاهالي ليدفعهم الى اعمال سيئة العواقب ومضرة بصالح البلاد التي لم يبق له فيها اقل علاقة فقد كتب له ان يتابع سفره بلا تأخير ، فنحن الآن ندعو عموم الاهالي ان يكلفوه بأنفسهم بترك بلادهم حالاً اذ ان اقامته بينهم تجعل بلادهم هدفاً للقنابل . والآن نعطيك مهلة عشر ساعات ليتوجه الامير في ختامها الى

بلاده ، واذا مانع في ذلك يجب ارجاع قطاره الى الشام .
 وتلقاء هذا الموقف الحرج قرر الملك فيصل مغادرة درعا بعد أن
 استيقن من استحالة المقاومة فيها ، وكان عليه ان يختار بين السفر الى
 لواء الكرك الذي هو منطقة نفوذ بريطانية ولو كان جزءاً من سورية
 التي حكمها الملك فيصل ، لان الفرنسيين لن يتعرضوا له فيها ، او السفر
 الى حيفا باديء ذي بدء . ولما كانت غاية فيصل ابعد من الاكتفاء
 بجزء صغير من سورية وهو الذي دعي فيما بعد بشرقي الاردن ، وكان
 على يقين من اتفاق بريطانيا مع فرنسا على ان تتخلى لها عن حرية
 العمل في سورية ، وهو لهذا لا يسعه الاعتماد على بريطانيا في ان تعينه
 على استرجاع الحقوق المقتضية الى اصحابها اذا ما اتخذ مركزاً للدفاع
 عن قضية سورية في البلقاء لواء الكرك ، سيما وقد افهمه زعماء حوران
 بكل صراحة بأنهم لا يجسرون على نصرته الا اذا اتاهم بدليل ملموس
 بتأييد بريطانيا له وان تختلف خطة زعماء البلقاء عن مثل ذلك ، مما
 اضطره لترجيح السفر الى حيفا بقصد السفر الى اوروبا للدفاع عن
 الحق المقتصب لدى جمعية الائتم وبريطانيا وغيرها من الدول الغربية .
 ولم يفكر بالسفر الى الحجاز كما رغبت فرنسا ، وكان قراره هذا ،
 مما يرضي المسؤولين البريطانيين في فلسطين اذ لا يبق مجالاً للاحتكاك
 بينهم وبين فرنسا بسبب قيام فيصل في بلاد تابعة لنفوذهم ، بأعمال
 تعدها فرنسا عدوانية . فرحب المندوب السامي البريطاني في القدس
 بسفر جلالاته الى حيفا ، واصدر أوامره لحاكمها بتقديم ضروب المساعدة
 والاحترام اللائق لجلالاته .

وهكذا غادر الملك فيصل ومعيته درعا ، في أول آب ، قاصداً الى

حيفا . وقد تريت القطار في محطة العقولة بعض الوقت حيث قدم
جلالته الشاهي من مخزن بيع الاطعمة (السكاتين الانكليزي) التابع للجيش
البريطاني ولكننا فوجئنا من محاسبة الجيش اثر وصولنا الى حيفا بطلب
ثمن ما قدم لنا .

وقد خصص حاكم حيفا منزل المس (نيوتن) لاقامة الملك ، وكانت
هذه السيدة كثيراً ما تعطف على قضية العرب ، وان كان عطفها لا يعني
انها غير مرتبطة بخدمة حكومتها .

وكان أول عمل قام به جلالته أن أبرق الى والده راجياً ارسال
مبلغ كاف من المال لادارة شؤونه وليتمكن من السفر الى سويسرا
والاتصال بمجلس السلم وجمعية الامم للدفاع عن قضية سورية الحققة .
ولما كان من المتعذر سفره عن طريق فرنسا فقد سافر الى سويسرا
عن طريق ايطاليا . وقد انتظر وصحبه في حيفا حتى ١٨ آب كي يسافر
الى بور سعيد والابحار منها على باخرة تقصد نابولي . وفي غضون اقامتنا
في حيفا لم تقطع عنا أخبار درعا ودمشق . وكانت تصلنا تفاصيل أعمال
السلطة العسكرية الفرنسية الفاشية وفرضها الغرامات على مختلف المدن ،
والاحكام العسكرية الكيفية باعدام الكثير من الوطنيين بدون استجواب
أو محاكمة اذ أصدر المجلس العسكري التابع للفرقة الثالثة الفرنسية في
٩ آب الحكم باعدام ومصادرة أملاك كل من الوطنيين السادة :

كامل القصاب ، علي خلقي ، أحمد مريود ، محمود القاعور ، فؤاد
سليم ، صبحي الخضرا ، صبحي بركات ، منيح هارون ، شكري الطباع
عمر شاكر ، سليم عبد الرحمن ، عمر بهلوان ، عثمان قاسم ، سعيد
حيدر ، عبد القادر مسكر ، خليل بكير ، حسن ورمضان وعادل ارسلان ،

محمد اسماعيل ، رشيد طليع ، عوني عبد الهادي ، احسان الجابري ،
الدكتور احمد قدرى ، رفيق التميمي ، توفيق اليازجي ، رياض الصلح
خير الدين الزركلي ، محمد علي التميمي ، بهجت الشهابي ، نبيه العظمة
شكري القوتلي ، عيد الحلبي ، ياسين دياب ، خالد الحكيم .

وقد زادت هذه المظالم من ألم الملك ، وحفزته الى بذل أقصى الجهود
والتضحيات كما يضع حداً لما يقاسيه قومه . وما أن وصلنا القنطرة
على قنال السويس حتى وجدنا فيها السيد عبد الملك الخطيب ، معتمد
حكومة الملك حسين ، في استقبال جلالته . فأبلغه أوامر والده المشجعة
ووصاياه ، وسلم من سيرافقه جوازات سفر باسم الحكومة العربية الهاشمية .
ولما كانت موارد الملك المالية ضيقة استأذنت جلالته بالسفر للقاهرة
لأعيش من مزاولة عملي الطبي فيها ، فقدر لي هذا الموقف ، وسمح لي
بما طلبت على كره منه . ثم اقتصر من حاشيته على نوري السعيد وساطع
الحصري واحسان الجابري ومرافقه تحسين قدرى ، وخصص لمن بقي
في مصر من رجالات جلالته الوطنيين رواتب تدفع لهم بواسطة معتمد
الحكومة العربية في القاهرة ، وتقتطع من مخصصاته من أبيه .
وبتنا ليلتنا في بورسعيد . وفي صباح ١٩ آب غادرتها الباخرة التي
تقل جلالة الملك قاصدة نابولي وسافرت أنا وعائلي الى القاهرة حيث
افتتحت عيادة كانت مركزاً للاسوريين اللاجئين لمصر نجتمع فيها للتباحث
في شؤون الوطن . وكنت ألتقي في القاهرة أخبار الملك بالتفصيل من
أخي تحسين .

والى هنا تنتهي خدمتي لوطني تحت لواء فيصل .

وما كاد يصل جلالته الى ايطاليا حتى سعى الى الاتصال بساسة الانكليز ورجلاتهم الذين رافقهم في الحرب العامة . فصور لهم بجلاء النتيجة المحزنة التي انتهت إليها تضحيات العرب وجهودهم العظيمة طوال الحرب ، جنباً الى جنب مع بريطانيا وحلفائها ، معتمدين على شرف بريطانيا ووعودها . وكان ساسة الانكليز في موقف حرج تلقاء الرأي العام البريطاني والعالمي ، اذ ان لويد جورج رئيس وزراء انكلترا آنذاك ، كثيراً ما اسبغ الثناء على الملك فيصل ، وأفاض بذكر استقامته وخدماته العظيمة في سبيل انتصار قضية الحرية والسلام حتى لقد أعلن في احدي خطبه في البرلمان البريطاني وذلك بتاريخ ٢٩ نيسان ١٩٢٠ قائلاً : « لايسع أحداً أن يجد أكثر استقامة وإخلاصاً وأشد رغبة في التعاون مع الحلفاء من فيصل ، في وقت السلم كما في وقت الحرب » . وكان جميع القادة البريطانيين الذين اتصلوا به يذكرون البسالة والتضحية التي قام بهما فيصل طيلة مدة الحرب ، الأمر الذي كان من اكبر العوامل في التوفيق الذي ناله الجنرال آللبي في جهة فلسطين .

لذلك لم يكن من السهل على الساسة البريطانيين أن يقلبوا له ظهر الحجن ، فاستمهلوه قليلا في ايطاليا الى أن يتفرغوا من المشاكل الدولية التي كانت قائمة حينذاك ثم ينظرون فيما ينبغي اتخاذه لاصلاح الموقف والحد من المأساة التي ذهب ضحيتها .

ولم يكن بوسعهم التأثير على السياسة الفرنسية لما اشتهر عن الساسة الفرنسيين من تعسف ورعونة ، ولأن انكلترا سبق أن اربطت مع فرنسا بمواثيق تخوّلها حرية العمل في سورية .

وبما أن الثورة العراقية قد أضنت بريطانيا حتى لقد أضجّ المول

البريطاني من النفقات التي يتحملها - سيما والحرب العامة قد انتهت -
وكثير من البريطانيين كانوا ينادون بضرورة الجلاء عن العراق ، فقد
رأى الساسة البريطانيون حمل فيصل على تسلم مهام الحكم في العراق
بأقل نفقات عسكرية ممكنة تتحملها بريطانيا في ذلك السبيل فنبئت إذ
ذاك فكرة ترشيح فيصل لعرش العراق . وبذلك اضطر أن يتخلى عن
خدمة سورية مؤقتاً ، وأن يحرص غاية جهوده في السبيل الجديد الذي
خطه له القدر . إلا أنه كان يؤكد للعاملين معه أن ليس ذلك إلا
الخطوة الاولى من مجهوده الوطني وانه لن ينسى بيعة السوريين التي في
عنقه ، وانه سيتابع العمل للوصول الى تحرير سورية وتحقيق العهد الذي
قطعه على نفسه بتحرير البلاد العربية وتوحيدها .



الخاتمة

لم أكد أمسح القلم من كتابة فصول هذه المذكرات ، حتى خاطرتني فكرة وضع خاتمة تكون منها كالخلاصة ، تشفئ عن غاية ما جاء فيها ، وتوضح ما قد يستبهم من حقائقها ، وتلفت النظر الى ما ينبغي الوقوف عنده .

وكدتُ أرجع عن هذه العزيمة حين عنَّ لي أن من حق القارئ ألا أفرض عليه آراء بعينها قد يستخلص غيرها على ما يوافق حرية تفكيره ، ثم لأن الحقيقة لا يمكن إلا أن تتم عن نفسها مهما غشت عليها حجب الاستبهام . إلا أنني عدت فذكرت أن القراء ليسوا سواء وهم أنواع وأصناف في التفكير ، وأنا لم أضع مؤلفي لفئة خاصة دون أخرى ، فلا مناص إذن من الاخذ بالاجمال والاسباب ، كل في موطنه . فأنا ههنا لا أفرض الرأي فرضاً وإنما أستخرج الرأي من بين ركam الحوادث التي أخذ بعضها برقاب بعض على ما يؤدي الى اظهار الحقيقة ناصعة بعيدة عن التأويل والالتباس . وهذا لا يناهض حرية القارئ في استخلاص ما يشاء ، بل بالعكس يمهّد له الطريق ويفتح دونه الآفاق مشرقة الى التفسير السديد ، ويحول دون انحصار نظره في الاجزاء التي كثيراً ما تدلّ على غير معناها ، لأن من شروط الحكم أن يؤخذ مأخذ الكمال الشامل غير منقوص ولا مجزأ .

وإذا كان لنا أن نضرب مثلاً على ما تقدم فإن مثلنا هو الثورة

العربية الكبرى التي عُنينا بوضع هذه « المذكرات » عنها ، فهل كان من الاحسان القيام بها أم لا ؟ وهل كان بطلها الملك حسين أول من أطلق أول رصاصة فيها في مكة ممن دخل التاريخ مخلصاً ، أمياً ، مصيباً ، أم هو على الضد ؟ وكذا نجله فيصل ، أترانا بماذا نحكم عليه ، سلباً أم إيجاباً ؟ كل هذه الاسئلة اذا أخذها القارئ من بعض وجوها مالت به الى غير ما تميل فيها لو غير وجهة نظره الى سواها ، وفي ذلك دليل ، أكبر دليل ، على وجوب الاخذ بالشمول ، وعدم اعتماد القياس مجزئاً لانه بتحقيق الحقيقة ولا يحسر إلا عن بعضها .

من أجل هذا رأيتني أميل الى وضع هذه الخاتمة ، وأحرص على إثباتها استقناً ، للفائدة واستكمالاً للغاية المنشودة ، وهي تصوير الثورة العربية بصورتها الصحيحة الناصحة من غير تمويه أو تعصب أو نقصان ، وبخاصة اتني واكتبها من ألفها الى يائها ، وكنت أحد العاملين فيها وعلى كئيب من أقطابها ما تخفى عليّ خافية .

وإني لأعجل الرأي في الحقائق الرئيسية ، وهي : نشأة الحركة القومية الحديثة في البلدان العربية الآسيوية وخصتها في آسيا ، ثم ما قامت به جمعية « الفتاة » التي أدت دورها كاملاً ، ما تحللت قيد شعرة عن مبادئها التي أعلنتها منذ تأسيسها ، ثم العوامل التي أهابت بالملك حسين الى نفخ الثورة وإعلانها على الأتراك وهم في سلطانهم الممتد وتحالفهم مع ألمانيا أقوى دولة على الأرض في ذلك العهد ، ثم كيف تفككت الفكرة العربية وما أصابها من انحلال حوّلها عن وجهتها الجامعة الشاملة ، ثم التحدث عن شخصية فيصل وحكومته بما لها وعليهما ،

وأخيراً فضل السياسة السلبية التي استنّتها سورية الى أن تسنى لها
التفلّت من نير الانتداب .

أما الحركة العربية الحديثة فقد انبثقت أول ما انبثقت في الآستانة
متأثرة بالروح القومية التي ذاعت وشاعت بين الامم ، وبالشعور الوطني
الذي عمّ المشاعر يومئذ وعمل عمله بين المثقفين في البلاد العربية ،
ولم تكن اقليمية كما قد يتبادر الى بعض الازدهان ، لم تكن حجازية
أو عراقية أو سورية أو ما الى ذلك ، وانما كانت من العرب والى
العرب جميعاً دون تفريق ولا تمييز بين الاقطار الناطقة بالضاد . هذه
الحقيقة ينبغي ألا ينساها القارىء كي لا يُتَّهم الثورة بما ليس فيها ،
ولا يُسَّهم القائمون بها بالنوازع الخاصة ، ولكي يدرك القارىء بانها نتاج
شعور عام شامل لا جماعة أو قطر دون غيرها .

وجمعية « الفتاة » التي كنتُ من العاملين فيها ، والتي أسست كأول
حزب وطني للقضية العربية ، انما واكبت الوعي أول انبثاقه ، وكانت
في مرامها حزباً لكل عربي تحت أي نجم وُجد ، ويستهدف نوال
الاستقلال للعرب أسوة بغيرهم من الاثم التي انفردت عن الدولة العثمانية
وأدركت حريتها ولم تكن أكثر استعداداً من العرب ؛ ولم تكن الجمعية
تضمر أيّ عداً للدولة العثمانية أول الامر ، ولم تنقلب عليها إلا بعد
أن استوثقت من سوء نوايا القائمين على حكمها . ومما يلاحظ أن أعضاءها
كانوا من خيرة الشباب المثقف الواعي المتحمس ، ومن تحرروا من
عننات القديم والجود ، وتحسّسوا بالمذاهب الحرة السائدة في العالم ،
ولعل في طريقة الانقسام إليهم دليلاً على الطريقة الحرة في السرية

والاستخفاء مما لم يكن معروفاً آنذاك إلا بين جماعة الاحرار المقاومين للاستعمار ، والارستقراطية المتأبئة ، والتعسف النائم .

وثورة الحسين لم تبدر خطوتها الاولى إلا بدافع من الغيرة على العرب وبغية استنقاذهم من الذلة والصغار ، وتحكّم الأتراك بأقدارهم والامعان في تعسفهم .. والواقع ان الملك حسين تردّد كثيراً قبل القيام بثورته ، وبذل غاية الوسع في سبيل التفاهم مع الأتراك لانصاف العرب ولم يألُ في النصيح لهم ، وما زال حتى يأس وأدرك أن لا خير فيهم وأنهم يبيّتون الدسيسة لتتريك العرب والقضاء على قوميتهم . ولولا هذا كله ما حرّك ساكناً لاسيا وان الحرب في أول اندلاعها والغلبة تبدو للعثمانيين باتحادهم مع ألمانيا القوية ، وكفة الحلفاء لا تبين راجحة . والحقيقة ان الملك حسين كان بصيراً فيما فعل ، وكان مضجياً ، وكان في حذسه كالمهم بمصير الحرب . ولولا انضمامه الى الحلفاء لكان مصير العرب بما لا يحمد بعد أن أحرزوا النصر على العثمانيين وحلفائهم . هذا وقد وسع سيد الهاشميين أن يث الفكرة العربية قوية بعد أن كانت مضطربة حائرة ، وجعل لها حسابها في الموقف الدولي فرجّحت كفة النصر في بلادنا كما شهد بذلك أقطاب السياسة والحرب . واذا كان ثمة خطأ فهو خطأ العثمانيين الذين لم يعرفوا كيف يحافظون على العرب في صفهم ، ولم يستسيغوا اعطائهم حقوقهم المشروعة ، بل شنقوا أحرارهم ونفوا سرائرهم ، وضيقوا عليهم جوعاً وفاقاً ، وأهلكوا قسماً كبيراً منهم عمداً في ساحات القتال .

ان التاريخ ليذكر الحسين بطلاً أوّل للثورة العربية الكبرى ، ومؤسساً أوّل للوحدة العربية المنشودة ، وباشناً أوّل للشعور القومي ،

ورسولاً أميناً للقضية العربية ، افتدى نفسه وملكه في سبيلها من غير أن يعيل ذات الشمال واليمين أو تأخذه في الحق لومة لائم . وإذا كانت انكثرة قد خانت عهده ولم تبر بالوعود التي قطعها له ، فما يلحقه من ذلك نقد أو غميرة إذ ما كان لائيّ كان سواء في مثل موقفه أن يستوثق بأكثر مما استوثق . ولطالما خانت السياسة ومارت وضربت بالواثيق عرض الحائط . لقد وضع الحسين لأمته الأسس وفتح في وجهها السبيل ، وعليها استكمال البناء والانتهاى الى حيث تشاء .

لثبت الفكرة العربية بعيدة عن الاقليمية الى أن دارت بها بعض العوامل فأحالتها غير صورتها ، مُشدّبة من اطرافها ، ضيقة محصورة . ومن هذه العوامل فكرة « الاتحاد السوري » التي عمل لها آل لطف الله وجماعته باخلاص ، ثم ميل بعض ضعفاء النفوس لتلك الفكرة ، وهم ممن يُشترَوْنَ بالمال والوظائف من قبل المستعمر ، ثم حرص لقيف من الذوات والارستقراطيين على عنجبياتهم ، فقد رأوا أن الخير لهم في أن يكون لسورية مركزها المرموق وحكمها الذاتي . وهنا ظهر التصدع في الفكرة الوطنية وجهتها وأخذت الفكرة الاقليمية تذيع منتشرة كواجب لا بد منه .

فاذا انتقلنا من هذا الى الحديث عن شخصية فيصل قلنا انه ما من شك في انه صاحب قدم سابقة في الجهاد ، وصاحب يد سابغة على الامة العربية بما قدم وبذل . وقد بدت غيرته على أمته منذ كان في دمشق الى جانب جمال الطاغية ، ثم ظهرت عبقريته الادارية وذكاءه الملتصع خلال حربه للعثمانيين وتجيهمهم الهزيمة تلو الهزيمة ، ثم كان له تبصره السياسي في الاستباق الى دخول دمشق كفاتح عربي الى جانب جيوش

الحلفاء ، وتسلمه مقادة الحكم وتصريفه الامور طبق سياسة حازت رضى الجميع وتأييدهم . والواقع الذي لا ينكر ان فيصلاً كان موقفاً في اوروبا بمواقفه الحازمة وسياسته المثلى ، وقد وجد من الرئيس .ولسن خير ظهير . ولكن خذلان انكلترا اياه تنفيذاً لاتفاقها مع فرنسا على اقتسام البلاد المنفصلة عن تركيا ، وانعدال أمريكا عن التدخل في السياسة الاوروبية ، ومؤامرة عصبة الامم في توزيع الانتدابات على الامم الضعيفة مخالفة بذلك مبدأ تقرير المصير الذي أعلنه ولسن وارتضته كافة الدول في سياستها ، حالت دون تحقيق غاياته النبيلة . زد على ذلك تعمقت الفرنسيين واصرارهم على احتلال سورية ولبنان كيفما كان ، وهم الذين يرون في ذلك تحقيقاً لمطامعهم القديمة التي تجلّت منذ القرن السادس عشر أيام لويس السادس عشر الذي انشأ علاقاته مع موارنة لبنان ، ثم أيام نابليون الثالث الذي أرسل حملته العسكرية للدفاع عن نصارى لبنان عقب حوادث ١٨٦٠ ما بين المسيحيين والدروز ، ولولا استنجاح الدولة العثمانية يومئذ بدول اوروبا وتألّب هذه الدول على فرنسا لما خرجت من لبنان ولبقيت فيه .

مُنيت الدولة الفيصلية بهذه العوامل الضارة في السياسة الخارجية ومنيت كذلك بعوامل هدّامة في السياسة الداخلية ، كتشكيل الاحزاب المناوئة والاحزاب الرجعية والاحزاب الميسالة الى المسالة ، ثم تسريح الجيش الذي دخل دمشق وعدم امكان تسليح جيش جديد قوي يصمد للحوادث ويدافع عن حوزة البلاد .

كل هذه العوامل اصطلمحت مجتمعة على فيصل عتبة في طريقه لم تمكّنه من اتباع سياسة ثابتة هادئة ، ثم انتهت بسقوط دولته في سورية وانطواء صفحتها أوشك ما يكون .

كان فيصل مخلصاً ذكياً مجرداً ، وكان يعتمد في سياسته على الرئيس
ولسن والانكليز ، ولكنهم خانوه وخانه كثير ممن حوله ، إلا انه حتى
في خذله لم يبرح في رأينا ظافراً منتصراً إذ لو انحشد ما انحشد من
المقاومات والمعاكسات لأعظم انسان لما وسعه أن يخرج منها غير مخرجه
ولا أن تكون له نتيجة غير نتيجته . . . فهو لم يدع وسيلة أو حيلة
إلا تدرع بها ، ماشى تطور الحوادث وقاومها ، وأخذ بالمسألة والعداء ،
وسلك كل طريق لحماية البلاد والفوز باستقلالها ، ولكن العوامل من
حواله كانت أقوى منه .

لقد أخطأ وأصاب ، شأن كل انسان ، ولكن ما عساه يفعل هو
أو أي داعية في السياسة ، والآنك قد استغلوا الحركة العربية حتى
فازوا بما يريدون من الفرنسيين ، والانكليز عرفوا كيف يسامون على
الموصل الغنية ببترونها فتنازلوا لفرنسا عن ضمان حقوق العرب في سورية
لقاء تنازلها عن الموصل ، ماذا يسع فيصل أن يفعل ومن حوله لم
يتمسوا على السياسة ولكل من غاياته السياسية وجهة هو مولها ،
وتعاكس وجهة سواه . . . ؟

وما يسجله التاريخ لفیصل بمداد الفخر والقدر ما بثه في النفوس
والافكار من روح الوعي والتمرد على الظلم والشعور بالقومية ، رغم
ان دولته كانت في عمرها قصيرة ، ولقد رأينا كيف ان الروح التي
نفخها قد آتت أكلها في الثورات المتدركة التي نشبت في سورية والعراق
وفلسطين ثم امتدت الى الشمال الافريقي ، فنغصت على المستعمرين عيشهم ،
وآذتهم في سياستهم ، كما آذتهم في الضحايا التي ذهبت طعمتها . نضيف
الى هذا ما اضطلع به فيصل في ميادين الإصلاح الاجتماعي والعمراني

والاداري ، فقد خلف وراءه نزوعاً قوياً الى استحياء الانجاء العربية
كما أسس كثيراً من دور العلم ، واليه يرجع الفضل في وضع أساس
الجامعة السورية ، وتجديد الجهاز الحكومي الذي خلفه الانراك بالياً سقيماً .
ان السياسة السلبية التي اتبعها سورية منذ عهد الدولة الفيصلية
كانت سياسة صائبة رشيدة ، على رغم ما يرد عليها من انتقاد ، ورغم
ما جرئت من مصائب على البلاد ، اذ لولاها لما خرجت فرنسا من سورية
ولبنان بسرعة بعد الحرب العامة الاخيرة ، ولما وجدت انكترا وأمريكا
ذريعة لتعضيد السوريين واجبارها على الجلاء عن بلاد لا موافق تربطها
بها وانما هي تحكمها منتدبة من عصبة الأمم وقد زالت من علم الوجود
وتحكمها مفتصة برغم ارادة السكان ، وهذا مما لا تجوز الشرائع الدولية .
والخلاصة هي ان استقلالنا مدينٌ لهؤلاء المخلصين الذين عرفوا كيف
يوجهون سياسة البلاد في طريق المقاومة السلبية للحصول عليه ، على
رغم ما نالهم من الأذى . . . استقلالنا مدين لاولئك الذين احتسبوا
حياتهم في سبيل الوطن . . . استقلالنا مدين للعاملين الذين ثبتوا على
العهد ولم يميلوا مع الاهواء ، وكانوا منذ اليوم الاول على علم بأن معنى
الانتداب الفرنسي الاستعباد والاسترقاق مهما تلونت صورته وزخرفت قيوده .



* الخطأ والصواب *

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٦	٨	علي سلوم	علي سلام
٣٠	٢٢	للحكم على	للحكم بالاعدام على
٤٢	٧	لكنه استبه	فاشبهه
٤٧	١٢	وهم	منهم
٥١	١٤	شكري	حسين
٥٣	٤	الخبراء	الخضراء
٦٠	١٩	فقط من	فقط هنا من
٦٥	١	يونيو	يونيو ١٩١٨
٧٥	٩	١١/٣	١٠/٣
٧٥	٢٢	٥ تشرين الثاني	٥ تشرين الاول
٧٩	١٢	ثم الاتفاق	تم الاتفاق عليه
٧٩	١٦	بالمصائب	بالمصاعب
٩١	١٤	فابلغت	فابلغ
١١٤	٣	مع	ليبان
١١٨	١٤	لبنان في ١٠/٦/٩١٦	يافا في ١٠/٦/٩١٩
١١٩	١٠	بريطانيا	بريطانيا بطبيعة الحال لاننا نرفض اي استعانة من فرنسا .
١٤١	١١	كان	كان
١٤٩	١٦	للوطينين	للوطينين في العراق
١٧٢	١٧	الامير	الامير ، وبين الركابي وحليفه البكري
١٧٥	١٢	تكلم	يكلم
١٧٨	٥	كان في	كان لها في
١٩٦	١٥	مؤتمر	مؤتمر الصلح
٢٠٤	٢١	٢٤ آذار	٢٤ نيسان
٢٣٠	١٦	بمقتضى	٥ - واعتدى على الحقوق الدولية بمقتضى

BB-36216

FB-30243
5-11T

Back

PB-36245

5-11T

CC

3

8

8



Date Due

[illegible]

Demco 38-297.



NYU - BOBST



31142 02821 7142

DS63 .Q3

Mudhakkarat al 'an al

مطابع ابن زيدون بدمشق